



حكايات دبلوماسى مصرى





السفير / عبد الفتاح شبانة

اهداءات ٢٠٠٣

السيد السفير/ عبد الفتاح شبانة

القاهرة

حكايات دبلوماسى مصرى

حكايات دبلوماسي مصري ، السفير/عبد الفتاح محمد شبانة

غلاف: **يوسف شاكر**
الناشر: **دار المستقبل العربي**
٤١ شارع بيروت – مصر الجديدة – القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١٠٤٧٣
الترقيم الدولي: I.SB.N 977 - 239 - 060 - 4

حكايات دبلوماسى مصرى

السفير
عبد الفتاح محمد شبانة



دار المستقبل العربي

مقدمــــة

يعيش الدبلوماسي حياة مليئة بالمتغيرات والقرارات التي تمس وطنه، وتؤثر على عوامل الصراع بين القوى العالمية، ويساعده التواجد في بؤرة الأحداث، وإطلاعه على مجريات الأمور، ومتابعته للأخبار من مصادرها العالمية على الاقتراب من دائرة الحقائق المجردة. وتتاح للدبلوماسي فرصة ثمينة قلما تتاح لغيره لمعايشة حضارات مختلفة، والالتقاء بشخصيات من بلاد متعددة؛ كل ذلك يشكل حصيلة ثرية للخبرات، سواء بالنسبة للأحداث السياسية أو النفس البشرية أو أسلوب ممارسة الحياة.

وعندما بدأت في استعادة شريط الذكريات التي مرت بي خلال عملي الدبلوماسي في خمس دول، وجدت أن الحصيلة تشكل كماً كبيراً من الأحداث والوقائع والحكايات، وقدرت أن الأحداث السياسية الجادة قد يكون من الأفضل جمعها في كتيب مستقل، واكتشفت صدق الحكمة القائلة «ليس كل مايعرف يقال، وليس كل مايقال قد حان أوان الحديث عنه»، لذلك اخترت من مجموعة الذكريات بعض حكايات بعيدة عن دوائر المحظورات، وتقدم في الوقت نفسه معلومة عن حضارة البلد الذي عشت فيه، وقدمت نماذج لبعض المآزق التي يمر بها الدبلوماسي، ومدى الحرج الذي يعانيه في حياته التي يعتقد البعض أنها مقصورة على الحفلات الرائعة، المليئة بالمآكل والمشرب في صحبة الجميلات الفاتنات، كل ذلك مع حصانة دبلوماسية تسمح لسيارته بالوقوف في الممنوع – إذا شاء – ويرتدي الملابس الرسمية الأنيقة التي تزينها النياشين والأنواط.

لايشعر الناس بمدى حساسية العمل الدبلوماسي، والمسئولية المتكررة في اتخاذ القرار السريع الذي لايحتمل التأجيل لحين استطلاع رأي الوزارة، ومدى المعاناة التي يعيشها الدبلوماسي في مواجهة مقاطعة الأعداء والأشقاء – بعد زيارة القدس – وهو يعلم أنه مستهدف للعدوان والاختطاف كما حدث مع سفراء عديدين لمصر (تركيا، بنجلاديش، أسبانيا، كولومبيا)، كل ذلك يذكرنا بأن الدبلوماسي «كراكب الأسد، يحسده الناس وهو أدرى الناس بموقعه».

وأخيراً فإنني أرجو أن يجد القارئ أو القارئة في هذه المآزق الدبلوماسية التي سأعرضها نوعا من الطرفة لعلها تبعث الابتسامة الى الشفاه، أو معلومة جديدة مشوقة...... فإذا تحقق شيء من هذا فذلك غاية المنى بالنسبة لي.

والله الموفق،،،

الجزء الأول

رؤساء قابلتهم

الجنرال فرانكو - اسبانيا

عملت في أسبانيا خلال المدة من ١٩٦٨/٧/٢٢ حتى أغسطس ١٩٧٢ كوزير مفوض بالسفارة أى الرجل الثانى بعد السفير، وقد عملت لشهور قليلة مع السفير أحمد أنور ثم نقل الى كوبنهاجن، وحضر الى مدريد من نيقوسيا السفير محمد مصطفى لطفى، وتحدد موعد للسفير لتقديم أوراق اعتماده للرئيس فرانكو، ووفقا لقواعد البروتوكول يرافق السفير ثلاثة من أعضاء السفارة. وجرى العرف أن يرتدى السفير والأعضاء بذلة «الفراك». وهى بذلة سوداء تتميز جاكتتها (السترة) بطولها، وأنها تنتهى من الخلف بذيل مفتوح، ويلبس معها قميص أبيض له أزرار خاصة وله ياقة مرتفعة يلبس معها ببيون أبيض، وبنطلون أسود عليه شريط أسود لامع فى الأجناب ثم حذاء أسود من الجلد اللامع. كان من المتبع أن يلجأ أعضاء السفارات (عدا السفير) الى أحد المحلات القليلة التى تعرض هذه البذل للاستئجار وتقوم بالتعديلات اللازمة، وبذلك تسهل للشخص المدعو الى حفل بروتوكولى أو حفل زفاف الحصول على البذلة وحضور المناسبة مع سداد مبلغ معقول مقابل استئجار البذلة ذات الثمن الباهظ أصلاً.

وكان يعمل معى بالسفارة المستشار عمر حفنى محمود (السفير فيما بعد)، وهو ابن المرحوم حفنى باشا محمود، وقد ورث الزميل عن والده روح المرح، و«العنجهية» الصعيدية اللطيفة، واقترح المرحوم عمر أن يقوم كل منا بتفصيل هذه البذلة لتنفعنا فى هذه المهمة وعسى أن نحتاجها فى مناسبات هامة مقبلة، مع ملاحظة أن أغلب دول العالم حاليا لاتتقيد بهذه المراسم الحازمة وأول هذه البلاد الولايات المتحدة الأمريكية التى تتميز مراسمها بالبساطة، وخاصة فى بند الملابس. وقاومنا التردد، وقررنا التضحية بمرتب شهر، وقمنا بتفصيل البذل، وأذكر أن الترزى كان يستأجر محله فى فندق هيلتون بمدريد، وكان هو الوحيد الذى يتمتع فنه بسمعة طيبة تطمئن الانسان على أن البذلة التى سيدفع فيها هذا الثمن الباهظ ستخرج من بين يدى صانعها بحيث تليق بالمناسبات التى سنرتديها خلالها.

وجاء اليوم الموعود، يوم تقديم أوراق الاعتماد، ولبس كل منا بذلته الأنيقة وعليها الأوسمة والنياشين وكان لى شرف حمل وسام الجمهورية المصرى، وللوسام شريط (وشاح) أخضر عريض يمر من أعلى الصدر الأيمن حتى نهاية الذراع الأيسر حيث ينتهى بميدالية الوسام، أما الوسام نفسه فيعلق على الصدر من جهة اليسار.

وتوجهنا عمر حفنى محمود (المستشار) وحسين الخازندار (سكرتير أول) الى منزل السفير حيث مكان التجمع قبل أن يقلنا الموكب الرسمى الى قصر الرئاسة.

وعند وصولنا منزل السفير فوجئنا بمشكلة طريفة فإن وشاح النيشان (الاستحقاق) الخاص بالسيد السفير يحتاج الى تثبيت مما يدعو للقيام «بعملية خياطة»، وكان السفير أعزب ولايجيد استخدام الابرة، وخاصة فى هذه اللحظات التى امتلأت بالتوتر والعصبية، والدقائق تجرى وموعد بداية الركب يقترب، وانقذتنا خادم عجوز بالمنزل أحضرت الإبرة والخيط وبدأت فى تثبيت الوشاح، وكنا ندعو لها بالتوفيق ونحن نلاحظ مدى الجهد الذى تبذله بعينها الكليلة، والارتباك الذى يسود الموقف ونحن فى الحجرة بملابسنا الرسمية، وقد حضر لنا مدير البروتوكول الاسبانى ليبلغنا أن الموكب جاهز للتحرك.

وحمداً لله فقد انتهت هذه المهمة الفنية فى الوقت المناسب، وانتقلنا بالسيارات الى مبنى وزارة الخارجية الأسبانية الذى يبعد حوالى كيلومترين عن مقر الرئاسة، ومن هناك انتقلنا الى المركبات المخصصة لنا، وتقدم السفير ليركب العربة الأولى مع مدير البروتوكول، ونركب نحن الأعضاء الثلاثة مع مساعد مدير البروتوكول العربة التالية متجهين جميعا الى قصر الرئاسة، أما العربات التى ركبناها فتستحق وقفة منا لوصفها، فإن مراسم تقديم أوراق اعتماد سفير فى أسبانيا تعتبر من المراسم غير المعتادة التى انقرضت من أغلب الدول الا من عدد قليل مازال يحافظ على هذه التقاليد العريقة والجميلة، كل عربة يقودها ستة من الخيول المطهمة، وجسم العربة مزين بالنقوش الحمراء والشعارات الملكية الذهبية اللون، ويجلس فى مقعد القيادة شخصان يرتديان الثياب المزركشة، والقبعات الملونة ويقودان الخيل، وخلف جسم العربة مقعد يجلس عليه حارسان بملابسهما الملونة، ويتقدم العربتين مجموعتان من الخيول كل مجموعة تعدادها حوالى الأربعين حصانا كلها لها نفس اللون (بنى - أبيض - أسود) وعلى كل حصان ملاءة يتناغم لونها مع لون الحصان، ويركب الحصان جندى بسلاحه وملابسه المزركشة، وينسدل على الجاكتة عباءة كبيرة ملونة تصل الى نهاية جسم الحصان.

كل هذا الجمال يتلاعب بالألوان فى تنغيم فنى رائع يبهر الناظرين. وتتبع المجموعة الأولى من الخيل، مجموعة أخرى تختلف ألوانها عن المجموعة الأولى بحيث تشكل لوحة جمالية متحركة، يتلو ذلك عربتا الركاب، ويسير خلف العربتين مجموعة أخرى من الخيول ومزيج رائع من الألوان المستخدمة، كل هذا الموكب يسير على نغمات موسيقية عسكرية تعزفها فرقة من راكبى الخيول. وتستمر هذه المسيرة الرائعة لمسافة كيلومترين حتى نصل الى قصر الرئاسة وقد اصطف الحراس على الجانبين، والجميل انه على طول الطريق يصطف العديد من المواطنين والسياح للاستمتاع بجمال هذا العرض وتسجيله بالكاميرات، ونصل الى ساحة القصر الملكى، وتصطف المجموعات الثلاث من الجند والخيل، ويقومون بتحية السفير وهو يمر أمامهم بمركبته، وتدخل العربتان حتى باب القصر، ويتقدمنا مدير البروتوكول عبر قاعات أنيقة مفروشة بالسجاد، ومليئة بالتحف المبهرة، ونصل الى قاعة نستريح فيها عدة دقائق حتى يحين الموعد المحدد لنا، وتفتح الأبواب ويتقدم السفير ونحن خلفه لنجد الرئيس فرانكو وحوله وزير الخارجية وكبار رجال البلاط، ويقدمنا السفير بأسمائنا للرئيس فرانكو، ونصافحه باليد، ونقف خلف سفيرنا الذى يبدأ فى إلقاء خطاب تقديم أوراق الاعتماد، وعادة يكون الخطاب

موجزا ويشمل تحيات رئيس جمهورية مصر للرئيس الأسبانى، مع التمنيات بإقامة علاقات طيبة بين البلدين، ويرد الرئيس فرانكو بكلمات تقليدية، ثم يقدم لنا مشروب مثلج، ونمكث دقائق لنغادر القصر فى نفس الموكب حتى وزارة الخارجية ومن هناك نستقل سيارتنا للسفارة.

وقد كان ومازال نظام الحكم فى أسبانيا ملكيا، وكان الجنرال فرانكو بعد نجاحه فى سحق المعارضة بالقوة العسكرية قد أعلن نفسه حاكما على أسبانيا بعد هروب الملك للخارج، ثم قام بالإشراف على تعليم وإعداد الأمير ولى العهد، وذلك تمهيداً لتسليمه عرش آبائه عند بلوغه السن القانونية.

وكان ولى العهد (الملك الآن) حريصا على إبراز ولائه وطاعته للجنرال فرانكو الذى كان يمارس الحكم بدكتاتورية ساحقة، وقد تكون هذه الأحداث مناسبة لأن أذكر أن المعارضة الأسبانية كانت تحارب فرانكو بأسلوب النكت، وكانت إحدى النكات تصفه بأنه الحاكم «المتجمد»، ويشبهونه بالفراخ التى توضع فى «الفريزر» لتتجمد. كنت أسمع هذه النكتة وغيرها ولا أقف عندها كثيرا، أما بعد أن صافحت الرئيس فرانكو يدا بيد بمناسبة تقديم السفير أوراق اعتماده، وفى مناسبات عديدة بعدها، فأذكر أنه بعد كل مصافحة كان ينتابنى شعور غريب ومخيف، فلقد كنت أشعر بأننى أصافح يدا قد هربت منها الحياة وليس لها معالم الآدمية، يد ترتفع وتصافح وتنخفض لكن لها ملمس غريب، ملمس شخص يفتقد الحرارة وينقصه الإحساس، ويجعلك تتساءل هل هذه يد آدمية حقا، تشعر وتحس وبها شرايين وأوردة ودماء تجرى بها؟ أم جزء شمعى بارد ميت ولكن يتحرك؟ ومهما طال الزمن بى فلا يزال ملمس هذه اليد (يد الرئيس فرانكو) تبعث فى نفسى بعض الرعدة والشعور بقشعريرة غير مفهومة.

ومن اللطيف أنه فى كل عام وعند حلول موعد عيد ميلاد الرئيس فرانكو، فإن الصحف ووسائل الإعلام تتعمد أن تظهر له صورا لتثبت بها أنه مازال بصحة جيدة وقادر على الحركة، وبالتالى على ممارسة مسئولية الحكم، وذلك ردا على الهجوم ضده الذى يتهمه بالشيخوخة والعجز وضعف الحواس وفقدان الذاكرة، وكانت وسائل الإعلام تتفنن فى اختيار اللقطات بذكاء تحسد عليه، فهى تصوره من بعيد وهو يسبح ويضرب الماء بذراعيه بقوة، أو وهو يهم بامتطاء الحصان بحركة رشيقة صعبة، ولكن الخبير بركوب الخيل إذا استخدم خياله قليلا فسيعرف أن القدم الأخرى ثابتة تماما على كرسى لحفظ التوازن لحين إتمام التصوير، وكانت هذه اللقطات وغيرها بالاضافة للكم الهائل من الدعاية عن أنشطته ومقابلاته، تقابل من جماهير الشعب بالسخرية والضحك وعدم التصديق، ويرد عليها الشعب بالنكت والتشنيع، والغريب أنه رغم مرض فرانكو وشيخوخته إلا أنه استمر يحكم هو وأعوانه أسبانيا بيد من حديد، ولم يقهره إلا الموت.



مقابلة الرئيس فرانكو

الرئيس هوفيت بوانييه
رئيس كوت دى إيڤوار (ساحل العاج سابقا)

عينت سفيراً لمصر بساحل العاج (حاليا الكوت دى إيفوار) من ١٩٧٤/٣/١٧ حتى ١٩٧٨/١٢/١ أى حوالى خمس سنوات وكانت الدولة تسمى بالانجليزية أيڤورى كوست، وبالفرنسية كوت دى إيفوار، وبالأسبانية لاكوستا ديل مارفيل وبالعربية ساحل العاج، وكلها ترجمة لاسمها الفرنسى، وقد أصدرت الدولة منذ سنوات قليلة قرارا بتوحيد الاسم مهما اختلفت اللغة بحيث تسمى «كوت دى إيڤوار».

كانت كوت دى إيفوار مستعمرة فرنسية احتلها الفرنسيون منذ زمن طويل، وعند انتشار روح الحرية والاستقلال فى الدول الأفريقية المستعمرة فى الستينات، إضطرت فرنسا لاقتراح الاستقلال للدول التى ترغب من المستعمرات الفرنسية وكان عليها أن تختار أحد حلين: حصولها على الاستقلال الكامل وانسحاب الإدارة والقوات الفرنسية، أو بقاؤها فيما يشبه الكومنولث الفرنسى، واختارت كوت دى إيفوار برئاسة هوفيت بوانييه الذى كان وزيرا بالوزارة الفرنسية البقاء ضمن المجموعة الفرنسية مع بقاء الجيش والادارة الفرنسية بالبلاد، وذلك بالمخالفة لكل الدول الأفريقية التى تستعمرها فرنسا والتى فضلت الاستقلال وفك الارتباط مع فرنسا. وأرادت فرنسا أن تجعل من علاقتها بكوت دى إيفوار التى استقلت بعد ذلك نموذجا مضيئا للتواجد الفرنسى فى أفريقيا، فوضعت الخطط لانعاش البلاد اقتصاديا وصناعيا وثقافيا وزراعيا، وفعلاً حققت هذه السياسة أهدافها، وتقدمت كوت دى إيفوار عن شقيقاتها الأفريقيات فى طريق الرخاء والتنمية بفارق كبير للغاية.

وكانت مصر تمثل حتى أوائل عام ١٩٧٤ بسفارة صغيرة يرأسها قائم بالأعمال، وكان لكوت دى إيفوار علاقات وثيقة للغاية مع إسرائيل، إما مباشرة، أو عن طريق الشريك الثالث وهو فرنسا ذات الصلات الحميمة فى هذا الوقت مع اسرائيل، ونتيجة للعدوان الاسرائيلى عام١٩٦٧، ولنشاط الديلوماسية المصرية لإدانة الغزو الاسرائيلى فى المجال الأفريقى، فقد قامت معظم الدول الأفريقية بقطع العلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل عدا كوت دى إيفوار، فقد كان النشاط الاسرائيلى ناجحا للغاية داخل الدولة، ومن مظاهر التعاون إقامة اسرائيل فندق «إيفوار» فى العاصمة العاجية، وهو واحد من أفخم فنادق العالم، ويشمل ألف غرفة، ومجموعة من حمامات السباحة، وقاعة للمؤتمرات معدة للعمل فى نفس الوقت كأحدث المسارح وتحوى ألف كرسى، وبالفندق أيضاً ملعب للانزلاق على الجليد (رغم وجود الفندق على خط الاستواء)، ومجموعة رائعة من المطاعم، كل ذلك فيما يشبه القرية التى تتميز بحسن الادارة والنظام والجمال.

كما أوفدت حكومة اسرائيل مجموعة من الخبراء فى الزراعة والتعليم والتعليم الفنى،

ومستشارين لبعض الوزراء وكانت الدعوات تتوالى لزيارة كبار المسئولين المحليين لاسرائيل حيث يقدم لهم كل ما يخطر على البال من هدايا ومتع ويعودون لبلادهم وهم أصدقاء أوفياء مخلصين لاسرائيل. لكل هذه الأسباب تأخرت كوت دى إيفوار جدا فى اتخاذ قرار قطع العلاقات السياسية مع اسرائيل، وكانت آخر دولة أفريقية تقدم على ذلك بعد جهود مضنية من الديبلوماسية المصرية وأصدقائها.

وهكذا عينت كأول سفير لمصر فى كوت دى إيفوار وقابلت قبل سفرى المرحوم الدكتور محمود فوزى نائب رئيس الوزراء للشئون الخارجية، ووزير الخارجية المرحوم محمود رياض وأبرزا لى مدى أهمية دور كوت دى إيفوار السياسى التى لها تأثيرقوى على جيرانها الأفارقة الذين يحاولون متابعتها فى سياستها الخارجية.

وكان الرئيس هوفويت بوانييه يتمتع – نظرا لكبر سنه الذى تعدى الخامسة والسبعين – باحترام فائق بين زملائه رؤساء الدول الأفريقية المجاورة، نظرا لخبرته السياسية، لممارسته شئون السياسة الدولية كوزير فى الوزارة الفرنسية، بالاضافة لخبرته القيادية كثائر من ثوار أفريقيا، واتصالاته القوية بالقوى السياسية فى فرنسا وأفريقيا، كل ذلك جعل منه القدوة والزعيم الذى يتبعه الباقون، وقد أطلق عليه الرؤساء الأفارقة فى الدول المجاورة لقب «العجوز» بمعنى الحكيم، بل كان بعض الرؤساء الأفارقة يوجهون له الخطاب باسم «الوالد» تكريما له وتعظيماً لشأنه.

ركبت ومعى زوجتى وأبنائى أحمد وحسين طائرة مصر للطيران من مطار القاهرة لنصل للعاصمة أبيدجان بعد ثمانى ساعات من الطيران، ووصلنا الساعة الثامنة مساء، وكنا نعرف مقدما أن أبيدجان تقع تماما على خط الاستواء، وأن موقعها يجعلها ذات جو استوائى حار ورطب، ولكن أبدا لم نتصور أننا سنخرج من باب الطائرة لنفاجأ بهذا الجو الحار الى درجة الاحتراق والرطوبة التى تعوق التنفس، وبمجهود شاق وصلنا الى قاعة كبار الزوار حيث وجدنا مندوبى وزارة الخارجية للترحيب بنا، كذلك سعدنا بوجود أسرة السفارة مع نخبة من أبناء الجالية المصرية الموجودة بأبيدجان.

وبعد استراحة قصيرة ركبنا السيارات متجهين الى الغرف التى حجزت لنا بالفندق، ونحن نتطلع بأمل الى اللحظة التى سنخلع فيها ملابسنا بعد أكثر من عشر ساعات مرت منذ دخولنا مطار القاهرة، وكان الدش البارد هو الحلم الذى كنا نأمل فى تحقيقه فورا حتى نغسل عن النفس متاعبه السفر وتوتر مواجهة المسئوليات فى بلاد جديدة ذات مناخ سياسى وحرارى ساخن يكاد يلهب أعصاب القادم الجديد.

ولكننا للأسف فوجئنا بأن السيد مستشار السفارة وقد أبى إلا أن يثبت لنا ولاءه وكفاءته، فقام بدعوة كل الموجودين بالمطار – دون علمنا – للترحيب بنا مرة أخرى فى الصالون الملحق بحجرتنا، وازدحم الصالون بأكثر من ثلاثين شخصا لم تكفهم الكراسى الموجودة، وكان علينا أن نبادلهم كلمات المودة والترحيب. وشاءت لباقة السيد المستشار وكياسته أن تبلغ منتهاها فأمسك بتليفون الغرفة

ليطلب مشروبات للجميع (على حساب صاحب الغرفة)، وحبسنا جميعا فى هذا الحيز الضيق الحار فى انتظار وصول المشروبات التى وصلت بعد مدة ليست بالقصيرة، ثم قمنا بتوديع الجميع الذين حضروا مشكورين لأداء هذه التحية، وأسرعنا الى الماء البارد نغسل به ما أحسسناه من إجهاد وإنهاك.

وفى الصباح توجهت للسفارة التى كانت تشغل مكانا صغيرا، وكانت هى المساحة التى تتناسب مع الاحتياجات المطلوبة وقتئذ قبل تعزيز العلاقات الديبلوماسية، وتذكرت التعليمات التى تلقيتها بإيجاد مقر مناسب للسفارة، وهمست لنفسى «مرحبا بالمتاعب». وحضر للسفارة مندوب إدارة البروتوكول بالخارجية، ودرسنا معا خطوات مراسم تقديم أوراق إعتمادى.

وفى صباح اليوم التالى حضر للسفارة السفير جورج وانيان وكان يشغل - ولايزال - منصب مدير المراسم بالخارجية وبالرئاسة فى نفس الوقت.

ولعل شخصية جورج جديرة بأن أتحدث عنها قليلا قبل تناول مراسم تقديم أوراق الاعتماد. كان جورج عام ١٩٧٤ تاريخ تقديم أوراق الاعتماد فى حوالى الثلاثين من عمره، ممشوق القوام، فائق النشاط، مرتب الذهن سريع البديهة، يجيد اتخاذ وتنفيذ القرار بسرعة، يسهل عليه إيجاد الحل المناسب لأية مشكلة، وحدث نوع من التقارب الإنسانى السريع بيننا، وحكى لى أنه ولد لأم لبنانية وأب عاجى، وأنه عاش فى لبنان فترة طفولته، وأحسست أن ما فى دمائه من قطرات عربية لاتزال تحمل الحنين والمودة والصفاء، واستمرت صداقتنا لمدة خمس سنوات هى فترة عملى بالسفارة بالكوت دى إيفوار وقدم لى خلالها الكثير من المساعدات والخدمات الديبلوماسية والشخصية.

وفى الموعد المناسب تحرك الركب تتقدمنا مجموعة من راكبى الموتسيكلات بملابسهم الزاهية ثم سيارة رئاسة الجمهورية وبداخلها السفير المصرى ومعه السفير جورج وانيان، تتبعها سيارة السفارة وبها إثنان من الأعضاء ثم مجموعة أخرى من راكبى الموتسيكلات.

وكنا نرتدى فى هذا الجو الخانق بذلة التشريفة «البونجور»، وهى مكونة من بنطلون أسود به خطوط بيضاء رفيعة، وصديرى أسود، وقميص أبيض، وكرافتة لونها فضى أو رمادى فاتح، ثم جاكتة سوداء طويلة ولها ذيل طويل من الخلف، وكانت هذه البذلة تشكل عبئا ثقيلا فى هذا الجو الخانق، ولكن كان ارتداؤها أمرا واجبا وفق البروتوكول العاجى، ولعلنا نذكر هنا أن البروتوكول العاجى كان يقضى إما بارتداء هذه البذلة، أو اللباس القومى، وكنا نغبط الإخوة سفير السودان أو السعودية عندما نراهما فى المناسبات الرسمية، السودانى وقد ارتدى الجلباب الأبيض الجميل والعمامة السودانية، والسعودى وقد ارتدى الجلباب والعباءة الخفيفة، وكنا نتميز غيظا ونحن نعانى من ارتفاع درجة الحرارة مع الرطوبة ثم لا نجد لنا رداء قوميا، ويا حبذا لو كان «الجلابية البيضاء» نهرب إليها وبها من هذا المناخ القاسى الحرارة.

ومن نوادر البروتوكول أن السيارة التى أركبها الى القصر الجمهورى لايوضع عليها أعلام، أما بعد تقديم أوراق اعتمادى فيرفع على يمينها فى المقدمة العلم المصرى، وعند وصولنا للقصر الجمهورى نزلنا من السيارة وعزفت موسيقى القصر السلام الجمهورى المصرى، وهى لحظة لا يستشعر جلالها إلا من عاشها، ويحس أثناءها بأنه شخصيا هو الذى يمثل مصر بكل تاريخها وجهادها وحضارتها، ويشعر أن هذا التكريم والتقدير يتقبله هو نيابة عن الأم والأصل والنبع، نيابة عن مصرنا العزيزة.

ويتقدم قائد الحرس للتحية، ويتقدم السفير المصرى وبجواره مدير المراسم للتفتيش على حرس الشرف وتحية علم كوت دى إيفوار، ثم ندلف الى الداخل حيث نشرف بمقابلة رئيس الجمهورية وعلى يمينه وزير الخارجية وعلى يساره مدير المراسم وقائد حرس الرئاسة، وأسلم على الرئيس وأقدم له الزملاء أعضاء السفارة، ثم أنفذ خطوات البروتوكول التى سبق لى استذكارها بالأمس مع مدير البروتوكول، فأقف أمام الرئيس على بعد حوالى المترين وعلى طرف السجادة المخصصة لى، ويقف خلفى الزملاء أعضاء السفارة، ثم أبدأ فى تلاوة خطاب تقديم أوراق الاعتماد بالفرنسية ويتضمن مدى الفخر والسعادة التى أحسها بتمثيل بلدى فى كوت دى إيفوار، ونبذة قصيرة عن العلاقات السياسية بين البلدين، ثم إبلاغه تحيات الرئيس المصرى، واختتم بأمنياتى أن أوفق فى تعزيز أواصر الصداقة والتعاون بين البلدين.

وأضع هذا الخطاب فى المظروف الذى يحوى مسبقا خطابا من الرئيس المصرى للرئيس العاجى يخطره فيه بأنه قد اختارنى سفيرا فوق العادة.(تعبير بروتوكولى) لتمثيل مصر فى بلده، ويرجو أن ألقى كل مساعدة فى أداء واجباتى لتقوية روابط العلاقات بين البلدين، وأتقدم لأسلم مرة أخرى باليد على الرئيس، وأسلمه المظروف الذى يحوى الخطابين، ويسلمه بدوره الى مدير البروتوكول ثم يدعونى للجلوس الى جواره على أريكة فى ركن من القاعة، بينما يجلس أعضاء السفارة مع رجال البروتوكول فى ركن آخر، وتقدم لنا المشروبات التى تم الاتفاق عليها منذ الأمس، فأغلب سفراء الدول الإسلامية يتناولون عصير العنب، وهو بنفس لون الشمبانيا التى تقدم لباقى الموجودين بالقاعة.

وأتبادل مع الرئيس حديثا وديا كان من المفروض أن يكون لدقائق معدودة، وفى موضوعات طابعها المجاملة إلا أنه بشخصيته الآسرة، ورقته ومجاملته الرقيقة قد سمح للحديث أن يستمر حوالى «الربع ساعة» وفى حديث سياسى جدى للغاية. ثم قام الرئيس مصافحا فحييته مستأذنا فى الانصراف، وعند الخروج من باب القاعة عزفت الموسيقى السلام الوطنى المصرى مرة أخرى، وقام رئيس الحرس بتقديم التحية، ورفع العلم المصرى الكبير على سارية القصر الجمهورى يرفرف فى شموخ. وبعد كل هذه الانفعالات والتجربة الأولى لى التى أقدم فيها أوراق اعتمادى سفيرا لمصر، ركبت السيارة، وصحبنى رئيس البروتوكول، وسعدت أن وجدت علم مصر يرفرف على السيارة باعثا الىّ برسالة عبر الهواء أن قد أصبحت الآن ممثلا لمصر، خطواتى كلها وتصرفاتى ستحسب إما لصالح مصر أو عليها،

وقد آن الآوان الآن لأسدد ما لمصر من ديون فى عنقى، بأن أبذل كل الجهد لخدمتها ولتحقيق سياستها، وأن أعمل كل مايعود عليها بالخير، وما يحقق أهدافها السياسية والاقتصادية، وعدنا الى مقر السفارة حيث سبق ترتيب حفل صغير للسيد مدير البروتوكول ومصاحبيه وأعضاء السفارة قدمت فيه المشروبات المثلجة، ثم أرسلت - وفقا للعادة التى علمت بها - الى قائد الركب مظروفا به مايعتبر بديلا عن المشروبات فى هذه المناسبة السعيدة.

وخلال الحديث مع السفير جورج وانيان مدير البروتوكول حكى لى بعض النوادر التى عاشها مع السفراء عند تقديم أوراق اعتمادهم؛ أحدهم وقف أمام رئيس الجمهورية وبدأ يقرأ الخطاب المكتوب إلا أن يده ارتعشت بشدة وتلعثم ثم توقف عن القراءة مرتبكا للغاية، وكان الرئيس هوفويت رقيقا كعادته. إذ اقترب منه مبتسما واصطحبه الى ركن بالقاعة يتحدث إليه فى هدوء حتى استعاد سكينته ثم تسلم منه الرئيس مظروفه فى هدوء دون الحاجة الى قراءة محتوياته، وخرج السفير من هذا المأزق بسلام. أما الحادث الآخر، فقد أخطر السفير الجديد بالموعد الذى حدد له لتقديم أوراق اعتماده بعدعشرة أيام، ونظرا لأنه لم يحضر معه أوراق اعتماده التى لم تكن جاهزة، فقد أرسل لوزارته بالموعد الذى تحدد له وتلقى منهم تأكيداً بإرسال المظروف مع مبعوث خاص (حامل حقيبة دبلوماسية) ليصله قبل الموعد المحدد له، واقترب الموعد والسفير على أحر من الجمر، وفى ليلة تقديم أوراق الاعتماد اتصل بوزارته التى اكدت له وصول المبعوث فى نفس الليلة بالمظروف والرسالة ليلحق بموعد الصباح.

وأتى الصباح، ووصل مندوب البروتوكول للسفارة ولم يصل المبعوث ولا المظروف، وبعد اتصالات مليئة بالخجل والاعتذار قبل المسئولون أن تجرى كل إجراءات المراسم وفقا للخطوات المتبعة على ألا يلقى السفير خطابا، بل يكتفى بتقديم مظروف بلا محتويات داخله، وهكذا حلت المشكلة مؤقتا وبطريقة مليئة بالحرج للسفير وحكومته وبأسلوب حضارى غير بيروقراطى من حكومة كوت دى إيفوار.

ولعل الواقعة الأخيرة تعطى نموذجا مبسطا للحرج الذى يعانيه السفير نتيجة لإهمال أو تكاسل يحدث فى وزارة الخارجية التى يتبعها، والشخص المتسبب لا يدرك مدى حساسية الموقف، والتداعيات التى ستحدث نتيجة تهاونه أو تكاسله، والموقف الذى سيواجهه السفير وهو على بعد آلاف الأميال من عاصمة بلاده.

ولاأستطيع أن أنهى حديثى عن رئيس كوت إيفوار دون أن أذكر واقعة حدثت لى معه وتدل على مدى ما يلاقيه السفير من توفيق إذا كانت علاقاته جيدة وطيبة مع كبار المسئولين. فور زيارة الرئيس السادات للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وفى نفس يوم الزيارة كنت مدعوا الى حفل عشاء أقامة سفير أمريكا، وشاهدت فى الحفل المستشار جاى نيراى المسئول السياسى فى رئاسة الجمهورية وكان قليل الاختلاط بالمجتمع الدبلوماسى ويفضل العمل فى صمت وعزلة، وتمكنت باستخدام الوسائل

الديلوماسية من الانفراد به، وشرحت له المغزى السلمى لزيارة السادات للقدس، وذكرته بأن هذه هى أول محاولة عربية للتفاوض والمناقشة مع الاسرائيليين، وأن الرئيس هوفويت هو الذى اخترع مبدأ «الحوار» أى تفاوض الأفارقة السود مع رعايا جنوب أفريقيا البيض (The dialoge)، وهو الذى قرر أن التفاوض هو الحل الأمثل لإنهاء الخلافات، وبناء عليه لم تقطع كوت دى إيفوار علاقتها الديبلوماسية بدولة جنوب أفريقيا، ثم ذكرت أن هناك الآن من يتبنى نظرية التفاوض فى الشرق الأوسط وكان نصيبه من زملائه وأصدقائه العرب المقاطعة والهجوم العنيف، وتساءلت أليس هذا هو الوقت المناسب ليرسل الرئيس هوفويت برقية تأييد للسادات تدعم موقفه من مبدأ التفاوض؟ وبذلك تتحقق صحة النظرية التى بدأها هوفويت بوانييه، وأعجبته الفكرة وقرر لى أنه سيعرضها الليلة على الرئيس ويتصل بى فى الصباح.

وأرسلت ليلا برقية باقتراحى للوزارة فى القاهرة، وفى الصباح المبكر، اتصل بى المستشار السياسى ليقرأ على نص برقية التأييد القوية والممتازة التى أرسلها رئيس الدولة للرئيس السادات، ثم بعث لى بنسخة منها.

وكانت أول برقية تأييد تصل الى القاهرة، وكان لأسلوبها القوى الواضح أجمل الأثر عند الرئيس السادات ووزارة الخارجية، ولم تتأخر وسائل الاعلام المصرية من الاستفادة من هذه البرقية — التى وصلت فى اللحظة الحرجة التى تردد فيها الكثيرون — استخداما إعلاميا جيدا، وبعدها تشجع الكثيرون وخاصة فى أفريقيا وعبروا عن تأييدهم لخطوة الرئيس السادات.

ومضت فترة على زيارة القدس وبدأت الديبلوماسية المصرية برئاسة المرحوم السادات خطواتها فى مجلس الأمن للدفاع عن الأهداف السياسية المصرية، ويبدو أن الرئيس السادات قد أراد أن يبعث برسالة عاجلة الى الرئيس الفرنسى «جيسكار دى استان»، وفى الوقت نفسه يطلب فى رسالة أخرى من الرئيس هوفويت التأييد للطلب المصرى المقدم للرئيس الفرنسى، وتبين للقاهرة أن الرئيس الفرنسى فى زيارة رسمية للكوت دى إيفور، وهكذا أرسلت لى وزارة الخارجية المصرية برقية بها نص الرسالة وطلبت ضرورة توصيلها للرئيسين العاجى والفرنسى فى نفس يوم تسلمى للبرقية، وذلك للحصول على الموافقات وصدور التعليمات قبل التصويت «باكر» على قرار يخصنا فى مجلس الأمن.

وبدراسة الموقف فى العاصمة أبيدجان، تبين أن الرئيس هوفويت يقيم حفل غداء فى نفس اليوم تكريما للرئيس الفرنسى، ويحضر السفراء ومنهم سفير مصر هذا الحفل. وبعد الحفل مباشرة يستريح الرئيسان لمدة ساعة ثم يغادران العاصمة الى بلدة «ياما سوكرو» وهى قرية الرئيس هوفويت — وقد أقام بها قصرا رائعا — ليمكثا بها يومين فى زيارة خاصة — غير رسمية — تعتبر أجازة للرئيسين ولا يمارسان خلالها أى مهام رسمية معلنة.

ووجدت أنه سيتعذر تسليم الرسالة للرئيس الفرنسى ومصاحبيه أو لزميلى السفير الفرنسى لوجود

الجميع فى البرلمان، حيث يلقى الرئيس الفرنسى خطابا سياسيا، وذلك قبل الحضور مباشرة لحفل الغداء. وكان الحل الوحيد أن اعتمد على وزير الخارجية وجهازه لتحقيق المطلوب. وطلبت موعدا عاجلا مع الوزير، ورغم انشغاله بزيارة الضيوف تحدد لى موعد فى الساعة الرابعة مساء بعد الغداء الرسمى فى وزارة الخارجية، وقد عكفت السفارة على ترجمة الرسالة التى وصلتنا باللغة العربية الى الفرنسية وتركت التعليمات بالنسبة لأسلوب كتابتها، والورق المستخدم على أن أراجعها بعد الغداء وقبل تسليمها لوزير الخارجية.

وتوجهت وزوجتى لحفل الغداء وحضر الرئيسان، وبدأنا الطعام وأنا أشعر بالتوتر والقلق، وأسأل نفسى ماذا لو تأخرت وزارة الخارجية فى إبلاغ الرسالة لسبب خارج عن إرادتها، وبذلك تضيع فرصتنا فى الحصول على التأييد الفرنسى الذى ننشده. ولأن الله لايتخلى عمن يبذل جهده، فإن لكل مشكلة فرجا. لقد كان حفل الغداء مقاما على طريقة «البوفيه» بحيث يأخذ كل منا ما يشتهيه من الأطعمة المعروضة ثم يعود للجلوس فى مكانه على المائدة الصغيرة.

وأثناء اقترابى من البوفيه لمحت السفير جورج وانيان مدير البروتوكول بالرئاسة وأحد الشخصيات القوية فى قمة السلطة، وكانت تربطنى به صداقة توثقت للغاية، فاسرعت أشرح له المأزق الذى أعانيه، وعامل الزمن الذى يضغط على أعصابى نظرا لسفر الرئيسين بعد الغداء، وخوفى من تعذر قيام الخارجية بتسليم الرسالة فى الوقت المناسب لنا، فاستمهلنى عدة دقائق، وعاد الى حيث يجلس الرئيس هوفويت ثم حضر لمائدتى ليبلغنى أنه بعد انتهاء الغداء بنصف ساعة سيقابلنى الرئيس هوفويت فى القصر الجمهورى قبل السفر مباشرة، فشكرته من أعماق قلبى واستأذنت زملائى على المائدة فى الانصراف، ورجوت سفير البرازيل وحرمه وكانوا على نفس المائدة وهم من أصدقائنا أن يصطحبا زوجتى للمنزل فى سيارتهم، وانسحبت بطريقة غير محسوسة من الحفل متجها الى السفارة، وتمكنا من إنهاء الخطابين وإعدادهما، وسارعت فى الوقت المحدد ومعى الرسالتان الى القصر الجمهورى، حيث استقبلنى الرئيس مرحبا، وشرحت له الموقف وموجزا لما جاء بالرسالتين، ورجوته أن يضم صوته لنا للحصول على تأييد الرئيس الفرنسى لما يطلبه الرئيس السادات. فوعدنى خيرا، وطلب منى أن أبلغ الرئيس السادات أنه سيصدر التعليمات فورا ليصوت مندوبهم فى مجلس الأمن مؤيدا لمصر، وسيبذل أقصى جهده للحصول على موافقة الرئيس الفرنسى وذلك مع رسالة شفوية رقيقة طلب منى إبلاغها للرئيس السادات، شكرت الرئيس، واصطحبنى السفير جورج وانيان لتوصيلى للسيارة وهنا فقط تذكرت موعدى بعد ساعة مع وزير الخارجية لنفس المهمة التى انتهت الآن بالتوفيق والحمد لله، فأفضيت للسفير «وانيان» بالحرج الذى استشعره بالنسبة لوزير الخارجية الذى كان رقيقا ومجاملا للغاية وهو يحدد لى هذا الموعد السريع رغم ضغوط العمل بمناسبة وجود الرئيس الفرنسى فطلب منى السفير «وانيان» أن أنسى الموضوع تماما، وأنه سيقوم بحله بالاتصال بنفسه بوزير الخارجية وإبلاغه أن الرئيس هو الذى استدعانى (وليس بناء على طلبى)، فشكرته مرة أخرى على هذا التعاون الصادق،

ووصلت منزلى سعيدا، ثم اتصلت بمكتب وزير الخارجية للاعتذار عن موعدى الذى يحين بعد ساعة، فعلمت أن مدير بروتوكول الرئاسة قد اتصل بالوزير وتم حل المشكلة.

ولعل موقف الرئيس هوفويت ورعايته لسفارة مصر تعطينا نموذجا للتقدير الذى يحمله الأفارقة لمصر ودورها الرائد. وفى اليوم التالى اكتملت سعادتى وأنا أقرأ نبأ تأييد فرنسا وكوت دى إيفوار للموقف المصرى.

وواقعة أخرى أتذكرها، فقد صدر قرار نقلى من كوت دى إيفوار بعد خمس سنوات من عملى كسفير بها، وكنت قبلها فى أجازة بالقاهرة، وطلبت نقلى باعتبار أن خمس سنوات عمل فى هذه المنطقة الاستوائية – رغم جمال العاصمة أبيدجان وسهولة المعيشة بها – هذه المدة الطويلة مع الحرارة المرتفعة والرطوبة الخانقة (٩٠٪)، وتأثر صحتى وصحة زوجتى ذلك بالاضافة للأعراض الجانبية لتناول أقراص مقاومة الملاريا يوميا على مدى خمس سنوات، كل ذلك جعل من العودة للقاهرة مطلبا ملحا. وهكذا رجعت الى كوت دى إيفوار وأنا أعلم بنقلى للقاهرة بعد شهرين وبدأت فى تسريب الخبر مقدما لحين وصول قرار النقل.

وفى إحدى المقابلات مع الرئيس هو فويت أبلغنى أنه علم باحتمال نقلى للقاهرة، ولذلك سيتصل بصديقه الرئيس السادات طالبا استمرارى فى موقعى، وشكرته لعواطفه الرقيقة وأبلغته أن ظروفا عائلية وصحية هى التى تدعو لعودتى للقاهرة، وبعد الحاح مشبع بالتقدير والشكر منى تنازل عن هذه المحاولة، وكنت واثقا أنه لو اتصل لتم تحقيق رغبته دون استشارة السفير أو حتى معرفة رأيه، ومما يجعل موضوع البقاء فى نفس الموقع سهلا أنه لم يكن هناك عندئذ أى قيود زمنية على فترة بقاء السفير فى البلد الذى يمثل مصر فيه، ثم صدر قرار عودتى للقاهرة وأخطرت به وزارة الخارجية والرئاسة رسميا، وتحدد لى موعد للتشرف بمقابلة الرئيس لتوديعه قبل سفرى، ومن المعتاد أن تكون هذه الزيارة البروتوكولية لمدة ربع ساعة على الأكثر نتبادل فيها عبارات المجاملة، وأتقدم خلالها بالشكر لكل المعاونات التى قدمت لى أثناء عملى، ومنوها بالتقدم الذى تحقق على مستوى العلاقات الثنائية، والإعراب عن أملى فى إزدياد هذا التقدم، وفى العادة يقوم الرئيس بإبلاغ تحياته الى رئيس جمهورية بلدى مثنيا على العلاقات الثنائية ومشيدا بمجهودات السفير. وبدأت المقابلة البداية التقليدية، ثم تحول الحديث للسياسات الدولية، وبدأ الرئيس هوفويت يقدم عرضا وتحليلا للسياسة العالمية. تحليل رائع ومنطقى ومتكامل يعرضه فى سلاسة وفهم عميق للمتغيرات الدولية ويحلل مشكلة الشرق الاوسط، ويعرض توقعاته، كل ذلك فى ترتيب ونظام وبدون تلعثم أو تردد أو شرود ذهن أو هروب فكرة من أفكاره، واستمر العرض السياسى لمدة ساعة ونصف تقريبا وأنا كالتلميذ يصغى الى أستاذ متمكن مسيطر تماما على أفكاره المرتبة فى ذهنه المتوقد الذى لم تؤثر فيه سنوات العمر التى قاربت على الثمانين. ولم تفلح محاولات أمين القصر الذى يدخل الى الصالون فى هدوء لتذكير رئيسه وتذكيرى بأن الوقت المحدد للزيارة قد انتهى، وأنا أفهم هذه الاشارة جيدا، وأدرك معناها ولكننى لاأستطيع

التحرك، بل أركز ذهنى لمتابعة هذا السيل المتدفق من الحديث الدسم، والسلس الممتع، وتتكرر مرات دخول أمين القصر الجمهورى، والرئيس هوفويت لا يلتفت إليه، حتى انتهى حديثه الممتع، وشكرته على هذا العرض السياسى الرائع، الملئ بالمعلومات الهامة.

وأراد الرئيس أن يزيد من تكريمى، فأبلغنى أنه عند سفرى سأجد فى استراحة كبار الزوار هدية شخصية منه، هى مجموعة أقفاص من الفاكهة الأناناس، والبابايا والمانجو وقد زرعها بنفسه فى حقوله «بياما سوكرو» — قريته — ورعاها بيديه مذكرا إياى بأن أحب الألقاب — التى يناديه بها الشعب — لنفسه هو لقب «الفلاح الأول»، وشكرته لهذه اللفتة الشخصية الكريمة، وغادرته مودعا، وأنا منفعل لكل هذه الرعاية التى لقيتها كممثل لبلدى، وبعد يومين توجهنا للمطار، وفى قاعة كبار الزوار وجدت أحد أمناء الرئاسة وقدم لى هدية الرئيس ثمانية صناديق كرتون كبيرة تحوى الفاكهة، ونظراً لضخامة الكمية فقد بدأت التفكير فى كيفية التصرف فيها، وأمامنا أولا مشكلة نقلها على طائرة مصر للطيران، ومدير مكتب مصر للطيران بأبيدجان قد وصل العاصمة الأفريقية أخيرا وكان تعيينه فى هذا الموقع على غير رغبته، مما انعكس على تصرفاته العصبية مع الجميع ورغبته فى الاصطدام، ومشكلة أخرى توقعتها وهى مشكلة الحجر الصحى بمطار القاهرة وهم ينفذون تعليمات المحافظة على الفاكهة المصرية من أى آفات، ومشكلة أخرى رغم بساطتها وهى أن سيارات الأهل التى تنتظرنا لن نجد بها مكانا يسع كل هذه الفاكهة، وتداولنا دراسة المشكلة مع المودعين من الأصدقاء المصريين، وكان أحد الحلول أن تعود الصناديق فى سيارة السفارة لتوزع على الزملاء والأحباب بالهناء والشفاء. وكان هذا هو المخرج من هذه المشكلة إلا أننى سرعان ماتذكرت الرئيس «الفلاح الأول» وهو يبلغنى بهديته وأنه زارعها وراعيها، وهنا كان القرار انها ستشحن معى مهما حملتنى من تكاليف مالية لمصر للطيران — فعتها راضيا — أما المشاكل الأخرى فسأدع حلها كل فى حينه.

وفى مصر كنت أتناول ثمرات هذه الهدية وأحس بحلاوة مذاقها وأحس فى الوقت نفسه برسالة حب وتقدير ووفاء تصدر من أعماقى لهذا اليد الجميل ولرئيسه الإنسان.

ولأزال أبتسم حتى اليوم (نوفمبر ١٩٩٣) وأنا أشاهد فى التليفزيون الرئيس هوفويت فى أحد الاحتفالات وقد تقدم به السن، وأتذكر ذهنه المتّقد الذى لم تعبث به السنوات، وأدعو له بالصحة ولبلده بالرخاء والرفاهية.



الرئيس العاجى فى حفل فرقة رضا

اليابـــــــان

جلالة الامبراطور – ولى العهد

وسارت بنا الأيام، وعدت من أجازة الصيف التى قضيتها فى مرسى مطروح لأعرف أنه قد تم اختيارى سفيرا لمصر فى اليابان ولذلك التعيين قصة. فقد كانت حركة السفراء تعد فى الوزارة وكان الوزير وقتئذ هو المرحوم كمال حسن على، ولم تكن تربطنى به سوى علاقات العمل، وأقابله قليلا (على خلاف عادة بعض الزملاء) لعرض الموضوعات التى تستحق العرض، وكنت أعتمد فى عملى على المذكرات المكتوبة تعرض عليه، وأراعى فيها دائماً أن تكون واضحة وموجزة ومطالبى فى حدود الإمكانات المعقولة، وكان المسئول عن مكتبه هو السفير صلاح شعراوى بكفاءته وخلقه المتميز، وكان لاعبا على المستوى الدولى فى فريق مصر لكرة الماء فى عصره الذهبى، وكان دائما يبدى «عجبه» لأن مذكراتى تحظى دائما بالموافقة.

واجتمعت فى الوزارة المجموعة التى تختص باختيار مواقع السفراء، وكانت برئاسة الوزير وعضوية وزير الدولة (دكتور بطرس غالى)، والدكتور أسامة الباز وكيل أول الوزارة، ووكيل الوزارة، والسفير مدير شئون السلك الديبلوماسى، وعلمت أن توجيهات قد صدرت بحجز تعيين سفراء لمصر فى كل من اليابان وتركيا لتكون تحت تصرف جهات أخرى غير وزارة الخارجية لتشغلها شخصيات عامة مطلوب تواجدها بالخارج فى هذه الأوقات.

وبعد أيام صدرت توجيهات أخرى بأن تدخل تركيا ضمن الدول التى تقوم وزارة الخارجية بتعيين سفراء بها، وكانت تركيا تعتبر أملا طيبا للسفراء الذين حان موعد خدمتهم بالخارج. وعلمت من أحد الأصدقاء الموجود فى موقع يتيح له المعرفة وذلك بصفة شخصية وسرية بانه قد وقع علىّ الاختيار للعمل سفيرا فى أنقرة (تركيا) وهى أفضل سفارة فى هذه الحركة، وحمدت الله وسعدت للغاية بهذا التعيين، وأفضيت بالسر الى زوجتى مع تحذيرى من تسربه قبل صدور القرار الجمهورى.

وسافرنا لنقضى أجازتنا فى مرسى مطروح ونحن نرسم خريطة للمستقبل الذى سنعيشه فى تركيا، وأسلوب الحياة هناك ومشاكلها ومزاياها، وعدت للقاهرة بعد خمسة عشر يوما من الأجازة لأتلقى مكالمة تليفونية من أحد الأصدقاء القدامى الذى يشغل مركزا مرموقا يهنئنى بتعيينى سفيرا فى «بلاد الشمس المشرقة»، ولما كانت التعيينات لاتزال فى مرحلة السرية، ولأنه يتحدث بالرمز تجنبا لذكر اسم البلد صراحة، فضحكت قائلا «لا، إنها بلاد «التيركش دلايت» ٠أى الملبن» كناية عن تركيا، فضحك وقرر صراحة أن التعيين فى اليابان، فذكرت له أن معلوماتى المؤكدة أننى عينت فى تركيا وليس اليابان، إلا أنه أفهمنى أن القرار الجمهورى أمامه، وأنه تم توقيعه وأننى عينت سفيرا باليابان.

فشكرته ولكن سرحت بى الخواطر وهى تتوالى وتتعاقب بين تركيا واليابان، وأنا أشعر أن الانسان لا يختار طريقه فى الحياة، ولكنها خطوات كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها، وتأكد هذا الخبر بعد يومين احتفظت خلالهما بالسر لنفسى حتى أعلم علم اليقين، وأنتابتنى فرحة غامرة وشعور بالفخر بهذا الاختيار. وقد علمت فيما بعد من السيد الوزير كمال حسن على وهو يزور اليابان زيارة رسمية أننى رشحت أولا لتركيا، ولما ترك لوزارة الخارجية حق اختيار سفير مصر باليابان (بعد أن كان الموقع محجوزا لجهة غير الوزارة)، فقد اختارتنى اللجنة للسفر الى اليابان بدلا من الشخصية السياسية التى تم العدول عن تعيينها فى اليابان.

وكان تعيينى فى اليابان فى هذا الوقت بالذات يشكل تحديا كبيرا لقدرات السفير، وإمكاناته لدفع العلاقات الثنائية لما فيه مصلحة مصر. وسرعان ما ذهبت فرحة الحصول على منصب ممتاز والمعيشة وسط حضارة قديمة ذات تراث تاريخى رائع، وبدأت تتوالى المشاكل التى عادة ما يواجهها كل ديبلوماسى مسافر للخارج. بدأنا ندرس الموقف الدراسى لأبنائنا وكان أكبرهم قد التحق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والثانى مازال فى مرحلة الدراسة الثانوية، وأصر الإبن الأكبر على أن يستكمل تعليمه فى القاهرة، رغم أننا شرحنا له كل إغراءات الجامعات اليابانية التى من الممكن أن يواصل نفس دراسته بها، إلا أنه كان عنيدا فى موقفه وأصر على البقاء فى القاهرة، وهنا تذكرنا أنه صاحب الحكمة التى طالما رددناها لأنفسنا كنموذج لآلام أبناء الديبلوماسيين فقد فاجأنا وهو مازال صغيرا، حين فوجىء بقرب عودتنا للقاهرة بعد انتهاء عملى كسفير بساحل العاج بأن قال مقولته الشهيرة التى أوجعت قلوبنا «لماذا نترك البلد دائما بعدما أنجح فى تكوين صداقات وأصدقاء لأتركهم وأبدأ من جديد فى البحث عن غيرهم؟».

وهنا قرر الابن الثانى انه ليس أقل من أخيه فى التعبير عن حقه فى الاختيار، ولذلك قرر هو أيضا البقاء فى القاهرة، ووجدنا أنه من الناحية التربوية فإن بقاءهما معا هو أنسب الحلول الموجودة، وكان علينا كأسرة أن ندفع الثمن، تشتتنا فى الأسرة – رغم أحاطتهم بالحب الخالص من الجد والجدة – وتعثرا فى التعليم لأحدهم ونحن بعيدون عنه، ثم وضع ميزانية خاصة لمواجهة ثمن تذاكر مصر للطيران لاستقبال الأبناء القادمين من القاهرة فى الاجازات وعودتهم، وكانت تذكرة الطائرة تشكل عبئا نظرا لبعد المسافة بين العاصمتين.

وبعد معاناة نفسية، حيث كانت أول مرة تتفرق فيها الأسرة، توكلنا على الله وبدأنا نعد أنفسنا لمواجهة الواقع وأعباء المركز الجديد مرددين «أن الخيرة فيما اختاره الله»، ركبنا طائرة مصر للطيران، وهى تطير مباشرة من القاهرة الى طوكيو وتتوقف حوالى الساعة فى كل من بانجوك عاصمة تايلاند، ومانيللا عاصمة الفيلبين، وتبلغ مدة إجمالى الرحلة المستمرة حوالى أربعا وعشرين ساعة، نقضي معظمها في الطائرة المغلقة، وأزيز المحركات الذي لا ينقطع يصم الآذان ويخترقها ويأبي أن يغادرها، وأما النوم فهو بعيد عن التحقيق، ولا يملك الإنسان إلا أن يجرب جميع الأوضاع لإراحة عضلاته المجهدة،

ولا يفلح الطعام الفاخر الذي يقدم لنا في مواجهة كل هذا الكم الكبير من الإجهاد والملل والقلق.

ونصل الي طوكيو في ١٩٨١/١/٥ بعد رحلة شاقة سبقتها فترة نفسية قاسية عند وداع الأسرة وأبنائنا في القاهرة. ويستقبلنا الزملاء بمطار «ناريتا» قرب منتصف الليل بتوقيت طوكيو الذي يتقدم عن توقيت القاهرة بحوالي ثمان ساعات وبدأنا نشعر منذ اللحظة الأولي أننا في اليابان، قاعة المطار وممراته آية في النظافة وجمال الهندسة، كل شئ يسير بترتيب ونظام وهدوء، لا فوضي ولا إزدحام ولا تصايح، ويقابلنا في المطار مدير البروتوكول بالخارجية يرحب بنا ويتمني لنا إقامة سعيدة في طوكيو، وتنتهي الاجراءات خلال دقائق نسعد خلالها بصحبة الزملاء أعضاء السفارة، ثم نركب السيارات متجهين الي دار السكن، ونفاجأ بأن المطار تحرسه قوات مدججة بالأسلحة والمدرعات وأجهزة اللاسلكي، ونعرف أن السبب هو معارضة سكان المنطقة وجيرانها لبناء مطار «ناريتا» في هذا المكان بين الأراضي الزراعية الهادئة، وكانوا يرون في وجود هذا المطار في هذا الموقع خطرا علي مزروعاتهم وحيواناتهم ومجتمعهم وأسلوب معيشتهم. ولذلك استمروا في القيام بالمظاهرات، واحتلال مواقع العمل ومقاومة الشرطة قبل إنشاء المطار وأثناء بنائه، ولاتزال مقاومتهم مستمرة حتي اليوم، ويدخل في ذلك إلقاء المفرقعات والاعتداء علي الحراسات، وتنظيم مظاهرات المقاطعة واحتلال الطرق الرئيسية، ومازالت العناصر المعارضة حتي اليوم بعد انقضاء عشرات من السنين علي بناء المطار تشكل خطرا علي أمن المطار مما يدعو الي تشديد الحراسة.

والسيارة تمضي فوق طرق فسيحة مضاءة جيدا، وفي التقاطع نجد الكباري الأسمنتية العلوية وهي تتقاطع فوق بعضها مشكلة أربعة أدوار تساعد علي إنسياب المرور رغم العدد الضخم من السيارات، ويطول الطريق الي ما لانهاية، ونعلم أن المسافة بين مطار «ناريتا» وطوكيو تبلغ الستين كيلومترا تقطعها السيارة عادة في ساعة ونصف الساعة نظرا لضخامة عدد السيارات التي تسير في الطرق.

ونصل الي دار السكن أخيرا، ونحن نحمد الله علي سلامة الوصول بعد كل هذه المشقة، ونشكر الزملاء، ثم نفرغ لمواجهة حياتنا الجديدة. وأتذكر فور وصولي أن وزير خارجية اليابان «مستر أيتو» قد حضر في الشهر السابق علي وصولي طوكيو الي القاهرة ليشهد افتتاح تفريعة قناة السويس والتي قامت بشقها شركة يابانية بقرض ياباني لمصر، وقد كان لي شرف مصاحبة الوزير الياباني في زيارته.

وأثناء مصاحبته في طائرة هليوكبتر مرت بنا علي قناة السويس من بورسعيد للاسماعيلية، كان المضيف هو الوزير كمال حسن علي، وبسرعة تولدت العلاقة الإنسانية التي تقرب بين الأشخاص بين الوزيرين، كأنما تعارفا منذ سنوات، وقد إكتشفا أنهما يشتركان في كثير من الطباع بل يشكوان من مرض مشترك هو «الروماتويد» اللعين، وصارا يتبادلان المعلومات الطبية وطرق العلاج، وانتهت الزيارة

وقد شعر الوزير الياباني أنه قد أحيط بكل مودة صادقة وتكريم حقيقي، ويبدو أنه أراد أن يعبر عن إمتنانه فطلب مني أن اتصل به فور وصولي لطوكيو لأنه سيسافر الي نيويورك لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة وأنه يسعده أن يستقبلني قبل سفره الي نيويورك.

ولم أضع هذه الفرصة التي تكرم ومنحني إياها، ففي اليوم التالي لوصولي اتصلت سكرتيرة السفارة بمكتب وزير الخارجية تبلغهم بوصولي، وأنني أتصل بناء علي طلب الوزير عند وجوده بالقاهرة، ووفقا لقواعد البروتوكول طلبنا موعدا مع مدير البروتوكول بالخارجية لمقابلته وهي الخطوة الأولي التي يقوم بها أي سفير، ولابد أن تتم هذه المقابلة أولا ثم يتلوها بعد ذلك مقابلة كبار المسئولين وأولهم وزير الخارجية.

وفوجئت السفارة بمكتب وزير الخارجية يحدد لي موعدا لمقابلته صباح اليوم التالي، ووقعنا في ورطة بروتوكولية، كيف لي أن أزور وزير الخارجية قبل زيارتي لمدير البروتوكول؟. واتصلت بالسفير مدير البروتوكول تليفونيا وأبلغته بالمأزق الذي أواجهه، فأجابني ضاحكا أن مكتب الوزير أبلغه بالموعد، وقد فهم ملابساته، وأنه سيكون في استقبالي بالوزارة ويحضر المقابلة، وسيعتبر حضوره مقابلتي للوزير بمثابة زيارة مني له هو الآخر فشكرته علي هذه اللفتة الرقيقة.

وقابلت الوزير، وأعرب عن تقديره لمصر ولما لقيه من تكريم وخاصة من زميله المرحوم كمال حسن علي، وأن كل ذلك دفعه لتخطي كل قواعد البروتوكول ومقابلتي بسرعة قبل سفره للخارج كمظهر من مظاهر رد الجميل لمصر والمسئولين بها.

ونبدأ زوجتي وأنا في مواجهة الحضارة اليابانية التي تختلف تماما عن كل ما تعلمناه سواء في مصر أو في دول العالم الغربي التي عملت بها، وأحسسنا أن هناك الكثير مما يحتاج الي الفهم والدراسة حتي نستطيع معايشة هذا المجتمع والاستمتاع به والقيام بواجباتنا، وبدأنا نلتهم الكتب التي تتحدث عن الحضارة اليابانية وتاريخها وتطورها، والعادات والتقاليد اليابانية، وأسلوب التعامل مع اليابانيين، وقرأنا الكثير عن تجارب الأمريكيين في اليابان والمآزق التي وقعوا فيها وأسبابها وطرق تجنبها، وما يجب علي الأجنبي فهمه ليجيد التعامل مع هذا الشعب الذي يتميز بهدوء وابتسامة دائمة لاتمكنك من فهمه جيدا.

ثم وصلنا الي قمة لقاءاتنا حيث تحدد لنا الموعد الذي كنا نترقبه بقلق وتوتر، لأتشرف بمقابلة الامبراطور هيروهيتو ولتقابل زوجتي الامبراطورة زوجته. ويسرح بي الخيال لأتذكر مادرسناه ونحن في التعليم الابتدائي عن امبراطور اليابان «الميكادو» – وهو نفس الامبراطور الحالي – وكيف أنه سليل الآلهة، وأن نسبه يرجع الي آلهة الشمس المشرقة وكيف أن الشعب الياباني يقدسه ويضعه في مصاف الآلهة.

وخطيئة كبري كانت أن ينظر إليه أحد الرعايا، وهي خطيئة لايغسلها الا الانتحار بطريقة الهاراكاري أي قطع البطن بالسيف حتي الموت، وأتذكر الحرب العالمية الثانية وكيف قام الطيارون اليابانيون بهجمات انتحارية يوجهون فيها طائراتهم وهم بداخلها الي داخل مدخنة البوارج الأمريكية لنسفها وذلك فداء للامبراطور وأملا في رضائه وبركته. واتذكر نهاية الحرب العالمية الثانية وقد أجمع المؤرخون الأمريكيون أنه رغم القنابل الذرية التي ألقيت علي «هيروشيما» و«نجازاكي» فقد كان من الممكن أن يطول أمد الحرب، وألا يتوقف الجنود اليابانيون عن القتال لولا أن نزل الامبراطور من عرشه الأسطوري ليقوم لأول مرة في تاريخ الامبراطورية بالحديث بصوته عبر الاذاعة اليابانية ليوجه حديثه الي جنود اليابان طالبا منهم قبول مالايمكن قبوله (التسليم) To accept the unacceptable.

ويندهش المؤرخون كيف أن هذا الحديث الإذاعي قد نتج عنه فعلا توقف الجيش الياباني وفورا عن القتال رغم مخالفة ذلك لطبيعتهم، لكنها أوامر الإله التي لاتردد في إطاعة تعاليمه ونواهيه. كل هذا التقديس والتبجيل أتذكره وأنا مقبل علي مقابلة الامبراطور.

ويحضر رئيس البروتوكول من وزارة الخارجية الي مقر السفير، ونتوجه بالسيارات الي فندق «باسيفك» وهو مبني قريب من القصر الامبراطوري وفي مواجهته، فقد كان المتبع تحرك الركاب رسميا من صالون الفندق حتي القصر الامبراطوري، ولهذا الفندق قصة أرى قطع سياق الحديث لسردها. يقع هذا الفندق في الشارع الرئيسي أمام مدخل القصر الامبراطوري الذي تحوطه الحدائق الواسعة بعيدا عن الطريق العام، وداخل اسوار مرتفعة يحيط بها مجري مائي عميق وعريض.وعقب نهاية الحرب العالمية الثانية واستسلام القوات اليابانية بناء علي أمر امبراطوري مقدس تولي الجنرال الأمريكي «ماك آرثر» سلطة الحكم في اليابان المحتلة، وفوض في إحداث التغييرات التي تكفل عدم تكرار العدوان الياباني. وظهرت نظريتان للتعامل مع اليابانيين: الأولي تنادي بالانتقام وهدم كل المعتقدات التي ساعدت علي تكوين الشخصية اليابانية العدوانية، وكان أهم هدف للتغيير هو شخص الامبراطور المقدس الذي يشكل رمزا دينيا سلطويا، يلي ذلك الدين الرسمي الياباني أي ديانة «الشنتو» التى علي قواعدها يقوم هيكل السيطرة في الدولة، ويؤدي الي أن تتسم أخلاقيات الشعب بحب الامبراطور والوطن، والتضحية بالحياة في سبيلهما، وهو الدين الذي يعلم الأفراد أن العمل مهما صغر فهو عبادة، وأن الإتقان هو سمة الفرد المخلص لبلده. أما النظرية الأخري فكان يحكمها الخوف من المد الشيوعي سواء من الشمال حيث روسيا الشيوعية رغم تحالفها مع الغرب خلال الحرب، أو الرعب من التنين الصيني القابع غرب الجزيرة اليابانية بشعبه الصيني وتعداده المخيف، وكانت النظرية الأخيرة تنادي بأن الأمل في المستقبل هو في تنمية وتقوية اليابان بعد السيطرة عليها تحت المظلة الأمريكية، لتكون هي خط الدفاع الأول عسكرياً واقتصادياً ضد الدب الروسي والتنين الصيني – وانتصرت النظرية الثانية، وكان من نتيجة ذلك أن اتبع الجنرال ماك آرثر سياسة معقولة في التعامل مع الامبراطور دون التمادي في الإهانة أو الإذلال، واكتفي بحضور الامبراطور شخصيا لتوقيع وثيقة الاستسلام.

واختار «ماك آرثر» مقر الفندق «باسفك» المواجه للقصر الامبراطوري ليكون مقرا للقيادة العسكرية العليا، وكانت هذه إشارة واضحة تعني انتقال السلطة ومركز القوة من القصر الامبراطوري الي المبني العسكري المواجه الذي يصدر التعليمات ويحكم البلاد فعليا، وأما الامبراطور هذا الآله المقدس فكان عليه أن يخرج من القصر في سيارة متوجها في لحظة تاريخية عاطفية حاسمة لاينسي ذلها الشعب الياباني حتي اليوم ليصل الي مقر قيادة الحكم العسكري، ويقوم بنفسه بتوقيع وثيقة الاستسلام في خضوع وأدب مع تواضع وكرامة جليلين.

ونعود ثانية لهذا الفندق الذي يحمل لليابانيين ذكريات غير سعيدة محملة بذل الانكسار، وبطغيان القوة ومرارة الهزيمة رغم رحيل القيادة العسكرية، وعودته مرة أخري فندقا سياحيا جميلا. وعندما يحين الوقت المناسب يتقدمنا رئيس البروتوكول لنركب من الباب الرئيسي للفندق عربات امبراطورية فخمة تجرها الخيول وتسبقها الموسيقي العسكرية وتتبع العربة الأولي التي بها سفير مصر والسفير مدير البروتوكول عربات أخري مشابهة بها أعضاء السفارة، ثم يتبع ذلك مجموعات من راكبي الخيول، ويتهادي هذا الركب في طريق محدد يتزاحم حوله المواطنون وجموع السياح من هواة التصوير لتسجيل هذا المنظر المبهر، ونصل الي بداية القصر لتعزف الموسيقي تحية للقادمين، ونسير وسط الحدائق الرائعة الجمال داخل القصر لنصل الي مقر إقامة الامبراطور، وهو نموذج مكبر ورائع للمنزل الياباني بفلسفة بنائه، فهو إتساع في هدوء، وأثاث وألوان تتسم بالبساطة والجمال غير المحدود، ويحيط بنا الهدوء، وكبار المسئولين حولنا يتحركون ويتحدثون في همس، بحيث تشعر بالرهبة وتتخيل أنك في مكان غير دنيوي، مكان تكاد تتخيل أنه ملىء بأطياف الملائكة هدوءا وجمالا ورهبة.

ثم نفترق زوجتي وأنا كل في طريق، هي لمقابلة الامبراطورة، والسفير المصري للتشرف بمقابلة الامبراطور.

ويجلس الي مدير البروتوكول في الصالون لنعاود مراجعة خطوات البروتوكول، كم خطوة سأسيرها عند المدخل وكيف سأقف علي حافة السجادة علي مسافة حوالي عشرة أمتار من الامبراطور، ثم أتقدم مسافة معينة لأحيي بانحناءة من الرأس. لأتقدم مرة أخري مسلما يدأ بيد علي الامبراطور، وحوله رجال القصر، ثم أرجع للخلف عدة خطوات ووجهي متجه للامبراطور، ثم أبدأ في إلقاء خطاب تقديم أوراق الاعتماد باللغة العربية، ويقوم المترجم الذي يقف خلف الامبراطور بترجمته الي اليابانية، ويتكرم الامبراطور بالرد علي خطابي باليابانية التي تترجم لي الي العربية مرحبا بحضوري لليابان كسفير لمصر، ومحييا رئيس جمهوريتي متمنيا لي التوفيق في عملي. ثم آخذ عدة خطوات للخلف ووجهي للامبرطور ثم أحني الرأس تحية وتبجيلا وأغادر القاعة يصاحبني رئيس البروتوكول في نفس الموكب الفخم عائدين الي الفندق حيث تعد السفارة حفلا صغيرا للحاضرين، ثم تعود بنا السيارات الي مقر السفارة وقد أصبحت ممثلا رسميا لحكومتي لدي حكومة اليابان.

وهكذا انقضت هذه اللحظات المثيرة التي كنت أنتظرها بقلق وتوتر متطلعا الي مقابلة الامبراطور، هذا الإله الأسطوري في هذا الزمان المادي النزعة، واسترجع لحظات المقابلة وابتسامة الامبراطور الوديعة، وكلماته الرقيقة وصوته الهادئ المتهدج لكبر السن، ويسرح بي الخاطر لأتذكر أنه كان من المحرمات سماع صوته أو أن تقع عليه العين وأهمس لنفسي «أن لا دوام إلا لله سبحانه».

وتتكرر مقابلاتي مع الامبراطور علي مدي أربع سنوات عملت خلالها سفيرا لمصر في اليابان، وفي كل مرة أزداد احتراما ومحبة لهذا الإنسان العظيم البسيط كالراهب، الرمز الذي يمثل الحضارة اليابانية العريقة.

أما مقابلتي مع الامبراطور التي لا تنسي، والتي اعتبرها من أسعد لحظات عمري وأكثرها ثراء وشفافية، فقد تمت بناء علي قواعد البروتوكول الامبراطوري، فان السفير الذي يمضي أكثر من عامين سفيرا في اليابان، فله أن يتشرف هو وزوجته بتناول الغداء مع الامبراطور.

وكان يدعي لكل حفل يقام ثلاثة من السفراء مع زوجاتهم وثلاثة من الجانب الياباني من كبار الأسرة ورجال القصر.

وقد حالفنا الحظ، زوجتي وأنا، فكنت أقدم السفراء الثلاثة وبذلك جلست زوجتي علي يمين الامبراطور وجلست في مواجهته علي يمين الأمير شقيق الامبراطور

وكان السفيران الآخران بدون زوجات، لأن أحدهما أعزب لم يتزوج، والآخر لم تستطع زوجته تحمل التزاماتها في اليابان، وآثرت البقاء مع أولادها في وطنهم، وبذلك أصبح عدد الحضور محدودا للغاية والمائدة صغيرة والكراسي متقاربة. وكان البروتوكول يقضي بأن يكون لكل سفير عشر دقائق للحديث مع الامبراطور قبل الغداء، ثم خمس دقائق بعد الغداء، أما علي المائدة فالحديث متروك لظروف الحفل، وأتذكر أن الحديث قبل الطعام بين الامبراطور وبيني كانت تسوده روح الود والمجاملة الي أقصي درجة، بحيث أحسست أن هناك علاقة مابين أكبر رمز للحضارة اليابانية وبين ممثل الحضارة المصرية العريقة في طوكيو، ودار الحديث سهلا ممتعا بعيدا عن السياسة ووجدت أن الامبراطور رغم سنه المتقدم قد استوعب جيدا ما قدم له من معلومات عن مصر وعن السفير المصري مما جعل الحديث بناء ومستمرا، أما روعة الانفعال وثراء النفس فقد كان أثناء الغداء، وطبعا لا أتذكر ما تناولته من طعام، فلم يكن الأكل هو مرادي، بل كان تركيزي علي إستيعاب كل لحظة من هذه اللحظات النادرة في عمر الانسان، بدأ الامبراطور حديثة مع زوجتي وهما يتناولان ما قدم لهما من أرز مسلوق علي الطريقة اليابانية بسؤال عن انتاج مصر من الأرز، وهل هو طبق شعبي، والفرق بينه وبين الأرز الياباني، وإذا بالامبراطور يستطرد في الأسئلة التفصيلية التي جعلت الحديث يمتد حتي وصل الي أرز السمك، والأرز بالخلطة، وبرام الأرز والأرز باللبن وكل مايتعلق بطبيخ الأرز وتقديمه في مصر.

والامبراطور يضحك في مودة من أعماقه ولا يكف عن التساؤل. وذكرت لي زوجتي بعد الحفل أن ما آثار إعجابها أن الامبراطور كان ينشغل بحديث مع شخص آخر، ولكنه يعود يتحدث إليها بعد فترة مستأنفا الحديث من نفس النقطة التي توقف عندها الحديث، وهو شئ نادر بالنسبة لكبار السن أن تكون ذاكرتهم حاضرة ودقيقة الي هذا الحد، أما حديث الامبراطور معي وقد كنت أجلس في مواجهته وعلي مسافة متر واحد فكان عن الحضارة المصرية القديمة، والشباب المصرى الحالي، وعن العلاقات الثنائية بصفة عامة، وبدأ هو يمتدح مجهوداتي لتقوية هذه العلاقات، ثم سألني برقته وابتسامته الطيبة عن مشاكلي في اليابان، وشجعتني بساطته غير المتكلفة وجو الحفل المليء بالمودة أن أقول له أن عندي في عملي مشكلة خطيرة، ولعل الامبراطور قد أعتقد أنني سأجره الي بحر السياسة المليء بالمحظورات وهو ما لا قبل له به، فإن الدستور الياباني الذي فرضه الأمريكيون بعد انتصارهم يمنع الامبراطور من التدخل في السياسة أو الحديث فيها حيث أعتبر رمزا لا شأن له بالحكم، ونظر اليّ الامبراطور مستفهما، لأجيبه أن مشكلتي تكمن في الطلاب المصريين الذين توفدهم مصر علي منح يابانية لدراسة الدكتوراه في اليابان، وما أن يصل الواحد منهم حتي يقع صريع الهوي مع اليابانيات، ولا يلبث أن يتزوج فتاة يابانية ويعتذر عن العودة لوطنه، وهكذا فإن اليابانيات بأدبهن وجمالهن ورقتهن يؤثرن علي جميع الخطط المصرية للاستفادة من التكنولوجيا اليابانية المتقدمة.

ويضحك الامبراطور ويتساءل عما يمكن عمله لتفادي هذه المشكلة، فأرد بأنها مشكلة صعبة لأنها تقوم علي الحب الذي لا يمكن مقاومته، ويضحك الامبراطور من قلبه لهذا الحديث، ثم ينتقل الحديث الي الحضارة المصرية القديمة ودياناتها، وأجده مطلعا مثقفا، ويستمر الامبراطور في مجاذبتنا الحديث في رقة ساحرة ويشعرنا كما لو كنا نجلس الي جدنا الموقر، تحوطه المحبة والمهابة مع نسمات من التقديس تغلف الجو العام، ويتلو الغداء حديث آخر علي انفراد مع الامبراطور، ثم نحييه قبل المغادرة، ونترك زوجتي وأنا القصر الامبراطوري، ونحن نحلق في جو أسطوري معبق بنسمات من الحضارة اليابانية بكل ما فيها من رموز مقدسة.

ولايمكن أن نترك الحديث عن القصر الامبراطوري وتقاليده دون أن نتحدث عن حفل عيد ميلاد الامبراطور الذي يقام كل عام في القصر، ويدعي إليه السفراء وزوجاتهم.

ونذهب في الموعد المحدد، السفير يرتدي الفراك وهو قمة الأزياء الرسمية، بذلة سوداء، الجاكته قصيرة ولها شكل معين، والقميص أبيض وله ياقة مرتفعة وصديري أبيض، وبيبون أبيض، مع بنطلون أسود، ويضع كل سفير علي الجانب الأيسر من السترة النياشين التي حصل عليها، وتلبس الأنواط بما معها من وشاح ملون بالكتف الأيمن حتي يصل الي ما تحت اليد اليسري، وينتهي بميدالية النوط، أما حرم السفير فترتدي رداء طويلا يتفق مع المناسبة الرسمية.

أما البعض من السفراء الذين لهم ملابس قومية فإنهم يرتدونها، ولهذا نجد هذا التجمع مبهرا

بالملابس الرسمية ثم الملابس القومية الأفريقية بألوانها المزركشة والملابس الأسيوية الجميلة بغرابتها ورقتها، كل هذا التجمع يصلح كلقطة رائعة لفيلم تاريخي. وقد ركزت الحديث علي الملابس الرسمية والقومية في هذا الحفل لسبب سيرد فيما بعد.

نصل القصر، ويدخل كل سفير وزوجته في دورهما وفقا لأقدمية تقديم أوراق الاعتماد في اليابان الي الصالون الامبراطوري، وفي خطوات بروتوكولية مدروسة ومحفوظة، وبتوجيهات مساعدة من المسئولين عن المراسم بالقصر الجمهوري، نقف علي مسافة عدة أمتار من الامبراطور والامبراطورة، ثم نحييهما معا بانحناءة من الرأس، ونتقدم خطوات أخري ثم نسلم باليد، ثم ننسحب ووجوهنا في اتجاه الامبراطور لعدة خطوات ثم ننصرف متجهين لليمين، ثم نغادر القاعة ويتبع ذلك حفل غداء امبراطوري مذهل، كل سفير وزوجته يقفان علي المائدة الكبيرة في المكان المحدد لهما ببطاقة عليها اسم السفير وبلده، ويخدم كل سفير وزوجته «ساقي» بملابسه الرسمية وهو مخصص لخدمتهما فقط، ويجد كل منا أمامه علبة خشبية تمثل جمال الصناعة اليابانية من حيث نوع الخشب المصنوعة منه مع جمال النقوش والألوان التي تزخرفها.

ونفتح العلبة لنجدها مقسمة الي عدة أقسام تحتوي علي قطع من السمك المصنوع علي الطريقة اليابانية (نيء تماما)، ثم بعض البقول المطبوخة علي الأسلوب الياباني (مسلوقة)، ثم كرات من الأرز المسلوق بالماء وعليها خاتم القصر الامبراطوري وشعاره، ثم مجموعة من المخللات اليابانية يمتزج فيها الملح بالسكر، وبالعلبة مكان شاغر لوضع قدح (كأس) المشروب الياباني «الساكيه»، وعلي القدح نقش الشعار الامبراطوري. وبعد فترة من تبادل الأحاديث الجانبية مع الزملاء وكبار المسئولين بالدولة، يتناول الساقي المخصص لنا الكأس - حتي ولو لم نشرب منه - ويجففه بعناية مفرطة، بفوطة متناهية النظافة، ويضعه في المكان المخصص له في العلبة، ثم يغلقها بما فيها من مأكولات بحركات بروتوكولية مدروسة وتم التدريب عليها فيبدو وكأنه يؤدي طقوسا للعبادة، ويضع في العلبة، علبة سجائر هدية، وهي تحوي عشرين سيجارة وعلي كل سيجارة مطبوع الشعار الامبراطوري.

وقد استمر تقليد أهداء علبة السجائر حتي قرأت أخيرا (١٩٩٣) أنه ألغي مشاركة في محاربة عادة التدخين، ولعلنا لا ننسي أن هذه العلبة، وأي قطعة أو سيجارة من محتوياتها ينظر إليها الشخص الياباني بتقديس وتبجيل، ويعتبر الحصول علي بعضها فخراً لا يدانيه فخر، ولذلك كنا نتخير الأصدقاء اليابانيين الذين سنهدي إليهم بعضها. وأعود الي السابق النشيط فنجده قد وضع العلبة الخشبية بمحتوياتها في قطعة مربعة من القماش تتميز برقة ألوانها، ويربطها بأسلوب معين بحيث يسهل حملها بما فيها، ولعلها تذكرنا بما نعرفه في مصر ونطلق عليه «بؤجة» وقطعة القماش هذه هي وسيلة السيدة اليابانية مهما كان مركزها الاجتماعي لحمل مشترواتها، وتختلف نوعية القماش وألوانه وفقا للمستوي الاجتماعي، وتتباري السيدات في إقتناء الأنواع القيمة والألوان الجميلة.

وينتهي الحفل الذي من تقاليده أن يأخذ كل ضيف وضيفة «البؤجة» المخصصة له، ويسير سعادة السفير بلباسه الرسمي (الفراك) وهو يحمل في يده (البؤجة) الخاصة به بألوانها الزهية وكذلك زوجته، ونظرا لغرابة هذا التقليد فقد كنا نحن السفراء حريصين علي تسجيل هذا المنظر الغريب.

وقبل أن ننهي الحديث عن امبراطور اليابان، فإنه لاستكمال هذا الجو الأسطوري، فإنني أحب أن أسجل بعض ملاحظات عن مقابلاتي مع ولي العهد في عهد الامبراطور هيروهيتو، فقد كان لي شرف مقابلته مرات عديدة قبل أن يصبح إمبراطورا.

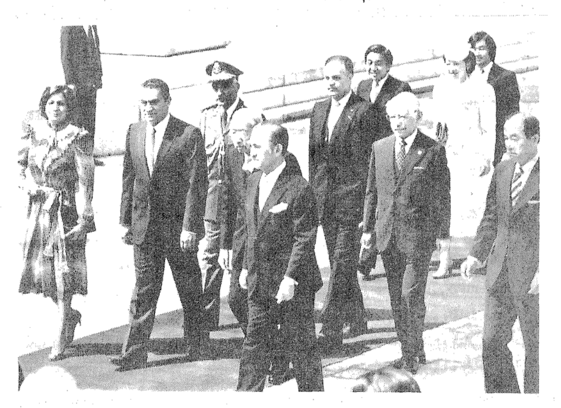
وكان يتميز بالدماثة الشديدة والأدب الياباني، ولكنه دائما يرحب بضيفه بطريقة تجاوز ماهو مقرر في البروتوكول، وكان ولي العهد، أو الامبراطور الحالي، قد تزوج من زوجته الحالية (الامبراطورة الآن) بطريقة خرجت عن القواعد اليابانية، والتقاليد تحتم أن يتزوج ولي العهد من الأسرة الحاكمة، أما ولي العهد – الامبراطور الآن – فقد وقع في غرام إبنة أحد أفراد الشعب العاديين (من كبار رجال الصناعة) تعرف عليها الأمير في ملعب التنس – هوايته الرئيسية – وأصر علي الزواج منها رغم معارضة القصر الامبراطوري وكهنته، ودخلت إبنة الشعب الي القصر الامبراطوري كزوجة لولي العهد، ثم أصبحت الآن امبراطورة، وأمّا لولي العهد الجديد. وكانت هذه الزوجه ومازالت رقيقة للغاية، وابتسامتها الحلوة تسبق حديثها، وتتعمد إنشاء علاقة شخصية مع من تحادثه ، وتجيد الحديث بالانجليزية مما يسهل مهمة التفاهم والتقارب معها. وفي إحدي المقابلات التي أجريتها ومعي زوجتي لولي العهد – حينئذ – وزوجته، دهشنا لأننا وجدنا الأميرة تتذكر من مقابلة سابقة مع زوجتي تفاصيل مشاكل أبنائنا، وبدأنا الحديث عن الأولاد ومشاكلهم الخاصة بالسن الحرجة، واغترابهم عن الأسرة – إبنهم ولي العهد الحالي كان يتعلم في انجلترا – والصعوبات التي تواجههم في الدراسة، ولاحظت أنها تتكلم كأم تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها زوجتي، وأحسسنا أن اختيارها من عامة الشعب جعلها تستمر في إحساسها بالمعاناة الطبيعية، وتفضل الاقتراب من حياة أبنائها وتوجيههم وعدم تركهم لرعاية المربيات أو المشرفين.

ومن الصور الفوتغرافية التي أعتز بها للغاية، صورة ألتقطت للسيد الرئيس حسني مبارك والامبراطور يرحب به ويسيران معا، وخلفهما السفير المصري وحرمه (وفقا للبروتوكول الياباني) ثم – وياللهول – ولي العهد الياباني والأميرة زوجته (الامبراطور الحالي والامبراطورة).

ولعل هذه الصورة ومثيلاتها التي تسجل لحظات عاشها السفير هي الجزاء الأوفي للسفير وحرمه كلما استعادا هذه الذكريات الحلوة.



تقديم أوراق الاعتماد فى طوكيو



الرئيس وقرينته والامبراطور ثم السفير المصرى
وولى العهد وقرينته (الامبراطور والامبراطورة الآن)

المانيـــــــا
رئيس الجمهورية - مستشار المانيا

عملت سفيرا لمصر في اليابان لمدة أربع سنوات ثم عدت للقاهرة لأعمل كمساعد لوزير الخارجية الدكتور عصمت عبد المجيد لمدة سنتين ونصف، وعندما حان موعد تعييني سفيرا بالخارج ونظرا لأقدميتي وخبرتي، فقد كان من المتوقع أن أعين في أحد البلاد التالية وهي التي خلا بها منصب السفير، وهي وفقا لأهميتها بالنسبة لوزارة الخارجية تبدأ بالمانيا ثم إيطاليا ثم هولندا يليها مجموعة أخري من البلاد، ورجوت الدكتور عصمت، والدكتور أسامة الباز وكيل الوزارة ورئيس مجلس السلك الديبلوماسي أن يكون تعييني في إيطاليا رغم أن المانيا أهم منها، وذلك نظرا لوجود جامعة أمريكية في روما يمكن أن يتابع فيها ابني الطالب بالجامعة الأمريكية في القاهرة دراسته، وكان الرد أن هذا الطلب معقول ومقبول وله مبرراته، ويكفي أنني لم أطلب التعيين في ألمانيا وهي الأهم.

وبعد أيام فوجئت بالدكتور عصمت عبد المجيد يهنئني وهو يبتسم ابتسامته الودودة المليئة بالفلسفة مهنئا بتعييني سفيرا في ألمانيا، وهو يؤكد لي أن ألمانيا تفوق إيطاليا أهمية ولما ذكرته بطلبي بالنسبة لايطاليا ومبرراته الخاصة بظروف ابني الدراسية، أجابني بنفس إبتسامته الهادئة المستريحة أن الكشف الذي خرج من الوزارة، كان مدرجا به أمام إسمي إيطاليا، ولكن التعيين تغير الي ألمانيا لأنه رؤي أن «شبانه السفير السابق في طوكيو هو الذي يعين في بون عاصمة ألمانيا».

وكان لا مفر من الرضاء بما قدره الله والسفر لألمانيا حيث لاتوجد دراسة لابني الذي تركته بالقاهرة وعاني الكثير في دراسته، ولعل هذا هو جزء من الثمن الذي تدفعه أسرة الديبلوماسي، في الوقت الذي يحسدها فيه الكثيرون لمظاهر السلطة والفخامة التي تحيط بها، والتي هي جزء من الوسائل التي تستخدم لخدمة اهداف الوطن. وينسون ما تعانيه الأسرة من تمزق، وما يمر به الأبناء من مشاكل تعليمية، ولايقيهم من الفشل والانحراف إلا إرادة الله ودعوات الوالدين.

وأعددت حقائبي في طريقي لألمانيا، والكل يغبطني لأنني عملت في اليابان حيث توجد قمة الحضارة بالشرق، وسأعمل الآن في ألمانيا قمة الحضارة في أوربا. وكنت ابتسم وأنا أتذكر المعاناة ودقة التعامل مع اليابانيين وحساسيتهم، وحضارتهم الغريبة التي تحتاج لدراسة عميقة ومستمرة حتي يمكننا فهم تصرفاتهم وحسن التفاهم معهم، واتذكر المقولة بأن «اليابان هي ألمانيا الشرق وأن ألمانيا هي يابان الغرب»، وأعلم عن يقين وتجربة سابقة أن أمامي عملا جادا مرهقا لأصل الي فهم وتفاهم مع العقلية الألمانية المنظمة والمنضبطة، وأتذكر الحكمة القديمة أنني «كراكب الأسد، يحسده الناس وهو أدري منهم بموقعه منه»، واعتمد علي الله وأشد الرحال لألمانيا فأصلها في ١٩٨٧/٩/١٨، وأبادر في اليوم التالي لوصولي بمقابلة السفير مدير المراسم بوزارة الخارجية، وكانت مقابلة ناجحة للغاية، وأحسسنا

سويا وبسرعة أن التعاون بيننا سيسير هينا وفي إطار من التعاون والمودة، وتكرم السفير فأعطاني رقم تليفونه الخاص بالمكتب وبالمنزل، وفي التاسعة مساء نفس اليوم تلقيت مكالمة تليفونية من الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية – وقتئذ – ليخطرني بأن السيد الرئيس قد استقبل وفدا ألمانيا، وأن الوفد كرر طلب الافراج عن رجل الصناعة الألماني المحبوس علي ذمة قضية تقديم رشوة في مناقصة عالمية تتعلق بإنشاء مصنع «قوص» للورق، ونظرا لأن المستشار الألماني قد سبق له أن أرسل للرئيس مبارك رسالة يرجو فيها الإفراج عن هذا السجين (المسجون في مستشفي السلام تحت الحراسة للعلاج)، فإن الرئيس يطلب أن يعلم المستشار الليلة بأنه وافق علي الإفراج عن رجل الصناعة، وأن الأمر سينفذ فورا، وذلك حتي لا يقرأ المستشار الألماني الخبر في وسائل الإعلام في الصباح. وضحك الدكتور بطرس وهو ينقل اليّ هذه التعليمات المختصرة جدا وهو يتساءل عما إذا كنت أعرف تفاصيل الموضوع ، واطمأن حين أكدت له أنني درست كل تفاصيله وأنا موجود بالقاهرة لأن الألمان بكل وفودهم وقوي الضغط الاقتصادية قد جعلوا من الإفراج عن رجل الصناعة الهام مشكلتهم الأولي في العلاقة الثنائية، وأنني أحمد الله لأنني بهذا الحل تخلصت من أحد الألغام الخطرة التي زرعت في حقل العلاقة الثنائية بين البلدين، «وراحت السكرة وجاءت الفكرة» كما يقولون، وبدأت أفكر في وسيلة إبلاغ هذه الرسالة للمستشار الألماني الليلة.

واتصلت بأعضاء السفارة الذين يتحدثون الألمانية فلم أجدهم بمنازلهم، واتصلت بالسكرتيرة الألمانية لتكليفها بإيصالي بأحد المسئولين، وتبين أنها خارج المنزل، وهنا ظهرت فائدة العلاقات الشخصية الطيبة، فقد تذكرت أن السفير مدير ادارة المراسم قد أعطاني فى الصباح أرقام تليفوناته، و،سارعت بالاتصال به في منزله، وشرحت له المشكلة، فقبل مشكورا أن يقوم بنقلها الي كبار المسئولين في المستشارية، مؤكدا له ضرورة وصول الرسالة للمستشار شخصيا الليلة.

وبعد نصف ساعة تكرم السفير واتصل بي في المنزل مؤكدا وصول الرسالة، وحمدت الله وعرفت أن بداية عملي في ألمانيا ستكون هادئة بعد أن نزعنا أهم لغم فيها.

ويقضي نظام الحكم في ألمانيا أن يرأس البلاد رئيس للجمهورية، وهو لا يحكم بل يختص فقط بالأمور المراسمية، وتسلم أوراق اعتماد السفراء وبعض الاختصاصات الأخري التي لا تتدخل في سياسة البلاد، ثم يليه المستشار وهو الذي يرأس الوزارة الاتحادية ويمثل الحكومة ويضع وزراؤه تحت رقابة البرلمان الفيدرالي سياسة الحكومة، ومدة الرئاسة خمس سنوات بالانتخاب ويجوز تجديدها لمدة واحدة فقط.

ونبدأ بالحديث عن رئيس الجمهورية الألمانية البروفسور «ريتشارد فايسكر» الذي كان أستاذا بالجامعة ويحمل دكتوراه في القانون، وقد ترافع عن والده الذي حوكم أمام المحاكم العسكرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وتولي الرئاسة منذ عام ١٩٨٤ حتي الآن.

ويتميز بدماثة الطبع، وبنوع من الهدوء النفسي والرضاء عن الذات والتواضع الذي ينعكس علي الشخص أمامه شعورا بالهدوء والطمأنينة، وبعد وصولي «بون» عاصمة ألمانيا الغربية (سابقا)، وبعد أيام وفي الموعد المحدد لتقديم أوراق اعتمادي لرئيس الجمهورية، حضر لمقر السفير رتل من سيارات الرئاسة، ومجموعة من راكبي الموتسيكلات، وركبنا السيارات ومعي السادة أعضاء السفارة وقد إرتدينا الملابس الرسمية (البونجور)، وهي مكونة من بنطلون رمادي بخطوط رفيعة، وجاكت أسود بذيل طويل مفتوح من الخلف، والكرافتة رمادية اللون أو فضية، ونظرا لارتفاع ثمن هذه البذلة فقد قام بعض الزملاء باستئجارها من أحد المحلات المتخصصة، وحمدت الله أن وزني لم يتغير وبذلك تسنى لي استخدام البذلة السابق تفصيلها عند تعييني سفيرا بساحل العاج.

عند وصولنا لمقر رئاسة الجمهورية ينزل السفير من سيارته ويستعرض حرس الشرف مع عزف الموسيقات العسكرية، ثم دخلنا الي الصالون، حيث قمت ومعي أعضاء السفارة بقيد أسمائنا في دفتر التشريفات، ثم انتظر الزملاء في الصالون، وتقدمني مدير البروتوكول الي صالون آخر حيث وجدت رئيس الجمهورية واقفا وخلفه مجموعة صغيرة من كبار العاملين بالقصر الجمهوري، وتقدمت فسلمت عليه وحده، ثم وقفت في المكان المحدد لي وأخرجت خطاب تقديم أوراق الاعتماد، وقبل أن أبدأ في تلاوته، تطلعت الي رئيس الجمهورية وفوجئت خلفه مباشرة بوجه أعرفه وسبق أن تعاملت معه، وهو يبتسم ابتسامة أعرفها جيدا، واكتشف فجأة وبسرعة أنه السفير «بلخ Belech» زميلي السابق كسفير لألمانيا في اليابان في نفس الفترة التي عملت فيها سفيرا لمصر في اليابان، وكنا علي صداقة عائلية وثيقة، وبذلت جهدا فائقا لأعود الي تركيزي علي الموقف الذي اواجهه، وتلوت خطابي ورد رئيس الجمهورية ثم تبادلنا السلام مرة أخري، ودعاني الرئيس الي صالون آخر واصطحب معه عددا محدودا من رجاله وهنا رحب بي السفير «بلخ» الذي تبين أنه يعمل حاليا مديرا لمكتب الرئيس (وقد نقل بعد ذلك سفيرا لألمانيا في الاتحاد السوفيتي).

وبدأ رئيس الجمهورية حديثه بأنه يعلم أنني ضمن «المجموعة اليابانية» في بون، وأن هذه المجموعة التي عملت في اليابان ومن أفرادها السفير مدير مكتبه لا يكفون عن الحديث عن حضارة اليابان وتقدمها، وشعرت من الحديث أن زميلي السابق قد حكي عني وعن أسرتي الكثير مما يعلمه خلال فترة عملنا سويا في اليابان، وساعدت هذه المعلومات مع طبيعة الرئيس البسيطة الودودة علي تدفق الحديث في يسر وسهولة عن الحضارات والأديان وتقدم الشعوب وتطور العلاقات التاريخية بين البلاد، حديث لا يطرح إلا في حضور انسان مثقف كالرئيس «فايسكر» يدير دفة الحديث الموضوعي الجاد بثقة وكفاءة وعلم، ويعطي محدثه الانطباع بأنه مستمع جيد، ومثقف يريد أن يتعلم من تجارب الآخرين، وانتهي الحديث الممتع ليخرج معي الرئيس لالتقاط صور تذكارية معه لي ولأعضاء السفارة، ثم نسلم مودعين، وأتبادل المداعبات – وقد دخل الرئيس للصالون – مع زميلي السابق ونتذكر سويا بعضا من مفارقات الحياة الدبلوماسية التي مرت بنا في طوكيو. ويصطحبني السفير مدير المراسم ومعي

أعضاء السفارة لنقف أعلي السلم، والعلم المصري الجميل يعلو تدريجيا فوق الساري، وفي الوقت نفسه تعزف الفرقة الموسيقية السلام الوطني المصري، ويرفرف القلب وترتجف الأحاسيس، ونحن نتطلع بكل الحب لعلمنا المصري الرائع وهو يرتفع في شموخ، في الوقت الذي تهز الموسيقي أعماقنا بنغمات السلام الوطني، ولا نملك إلا أن ندعو لمصر بالتقدم والرخاء.

وتتكرر مقابلاتي مع الرئيس سواء في المناسبات المراسمية المعتادة مع زملائي السفراء، أو بصحبة الرئيس مبارك عندما يزور ألمانيا (خمس مرات)، وفي كل مرة يزداد إعجابي بهذا النموذج الرائع للرجل المثقف المتواضع الذي لم ينسه منصبه في أي مرة أتشرف بمقابلته أن يبدأ مناقشة جادة أو توجيه سؤال هام أو طلب معلومة عن اليابان من واقع تجربتي بطريقة تشعرني بالقرب الإنساني من شخصيته.

ومضت الأيام ثم تقرر نقل السفير «بلخ» مدير مكتب الرئيس للعمل سفيرا لألمانيا في موسكو، وتسلمت بطاقة الدعوة لحفل استقبال تكريما له، وأقيم الحفل في قاعة بإحدي القلاع القديمة التي تقع علي جبل صغير وذهبت ومعي زوجتي، وعند مدخل القلعة وعلي الطريق الرئيسي أبلغنا رجال المرور أن السيارات ممنوعة من الصعود لضيق الطريق، وعلينا الصعود علي الأقدام، ونفذنا التعليمات، واستمتعنا بحضور الحفل، وودعنا الصديق، لنسرع لأداء التزام دبلوماسي آخر، ونزلنا علي الأقدام لنفاجأ وسط الطريق بالسيد رئيس جمهورية ألمانيا وقد نفذ نفس التعليمات التي صدرت لنا، ويصعد علي قدميه للوصول الي الحفل، ومن فرط رقته فإنه توقف ليتبادل معنا حديثا رقيقاً لمدة معقولة في بساطة وعدم تكلف أشعرتنا أن لنا مودة خاصة عند هذا الإنسان الرائع. ثم تتتابع الأيام حتي يتحدد موعد انتهاء عملي كسفير لمصر في ألمانيا (١٩٨٩/٨/٣١)، واستأذن في مقابلة رئيس الجمهورية لأودعه وفقا للبروتوكول، وأقابله علي انفراد، وفي ذهني أن المقابلة البروتوكولية لن تستغرق كالمعتاد سوي عشر دقائق، ولكن شخصيته الآسرة – وهو المتحكم في تحديد مدة المقابلة – تسيطر علي الحديث، وهو يفتح الموضوعات الإنسانية الهامة، ثم يسألني في النهاية عن العمل الذي سأمارسه بعد إحالتي للمعاش، فأتردد لحظات ثم أقول له مبتسما أنني أخجل أن أرد عليه بنفس الاجابة التي أقدمها للآخرين، فيصر علي معرفة الرد، فأقول له أنني أنوي أن أعمل «لاشئ» "Nothing"، فيفكر قليلا ليطلب مني تفسير هذا «اللاشئ» فأشرح له باختصار أنني وقد عملت لمدة تكاد تبلغ الأربعين عاما بالأعمال الحكومية، وأن المقادير شاءت أن أشغل منذ حياتي المبكرة مواقع حساسة ودقيقة وذات مسئوليات ضخمة، وفي وزارة الخارجية كان لي شرف العمل سفيرا في ساحل العاج ثم اليابان وألمانيا وهي بلاد تحتاج الي مجهود مضاعف، وأحس أنه قد آن لي الآن أن أتحرر من كل هذه المسئوليات، وأعيش في بساطة بعيدا عن القيود، استمتع بالحياة البسيطة في غير تكلف أو اصطناع، وأقضي وقتي في ممارسة الهوايات التي أحبها، وأقرأ الكتب التي جمعتها من أنحاء العالم ولم تسمح ظروف عملي بقراءتها القراءة المتأنية التي تجعلني أتذوق ما بها من أفكار، أو استمتع باللعب بألوان الزيت علي

اللوحات كما أعتدت أن أسمي هوايتي للرسم بالزيت، أو أجلس في استرخاء أمام البحر لا أعمل شيئا، وسادت فترة من الصمت قطعها السيد الرئيس قائلا إن هذه كلها أنشطة إيجابية وليست «لاشئ» وأضاف أن هذا الأسلوب في الحياة هو ما يتوق إليه هو الآخر ولو أنه لم يستطع تنفيذه حتي الآن، وشرح لي أنه يفهم تماما كلماتي، بل ويشعر بكل أحاسيسي، وتمني لي حظا موفقا في تحقيق هذا الأمل، وانتهت المقابلة وأنا أشعر أنني سأترك في بون إنسانا أحبه واحترمه وأحمل له كل تقدير وإجلال.

مستشار ألمانيا

ونترك رئيس الجمهورية لنتحدث عن المستشار الألماني «هلمونت كول»، وأذكر أنه في خلال مقابلاتي الرسمية له كان حديثه مباشرا ودقيقا ولا يحتاج لأسلوب «المرونة» الديبلوماسي الذي لا يقترب من المطلوب مباشرة، والمستشار يتميز بالطول والحجم الكبير ويبلغ وزنه كما قرأت أخيرا حوالي ١٢٠ كجم، وكان التقاط صور لنا بجواره يظهرنا قمة في الرشاقة وقد تولي الحكم مرتين من عام ١٩٨٢ حتي ١٩٨٣ ثم منذ عام ١٩٨٣ حتي الآن.

ولعل أقوي ذكري احتفظ بها وكان المستشار الألماني هو بطلها أنه في الزيارة الرسمية للرئيس حسني مبارك لألمانيا، قدم لنا المسئولون الألمان مشروع الخطابات التي سيلقيها كل من رئيس الجمهورية والمستشار في كل مناسبات التكريم، وكان علينا أن نرسل بها للقاهرة ونطلب صورا من الخطب المصرية التي ستلقي ردا علي هذه الخطب، وأرسلت مشروعات الخطب الألمانية للقاهرة في الوقت المناسب، وتوالت استعجالات الجانب الألماني، وضاعت عبثا كل جهودي في الحصول علي النصوص المصرية قبل وصول الوفد المصري. ووصلت طائرة السيد الرئيس في الساعة الخامسة مساء، وكانت الخطب ستلقي ابتداء من اليوم التالي مباشرة، وسألت الدكتور أسامة الباز عن النصوص المصرية وتبين أنه سيقوم بكتابتها فور الوصول الي قصر الضيافة، وكان لابد مما ليس منه بد، واصطحبت الدكتور أسامة للغرفة المخصصة له، وبدأ في الكتابة وذكرت له بعض النقاط التي تصلح لتضمينها في الخطب، وتحسبا لهذا الموقف كنت قد أعددت كل طاقم السفارة في حالة الطوارئ للتواجد بالسفارة، مع قيامي باستئجار فتاتين تحترفان الكتابة علي الآلة الكاتبة الانجليزية بإتقان وسرعة، بحيث يتواجدان بعد وصول الطائرة بساعة واحدة وذلك اختصارا للنفقات نظرا لارتفاع أجر العمل الذي سيحسب بالساعات، وبدأنا ماراثون الذهاب للسفارة والعودة بالسيارة وكان قصر الضيافة يبعد حوالي الساعة عن السفارة، وكلما انتهي الدكتور اسامة من إحدي الخطب ترسل بسرعة للسفارة لكتابتها علي الآلة الكاتبة العربية والانجليزية، واستمرت حالة الطوارئ ورحلة الذهاب والعودة بعدة سيارات حتي انتهينا عند منتصف الليل من جميع الخطب.

ووصلتنا كل الخطب بالعربية والانجليزية في قصر الضيافة واطمأننا علي حسن الأداء وسلمناها

للجانب الألماني الذي أعد غرفة عمليات بالقصر ليبدأ دورهم في الترجمة والكتابة.

وأبدي الدكتور اسامة إعجابة بتنظيم العمل وسرعة الانتهاء من مشكلة الخطب بفضل عمل أعضاء السفارة كفريق واحد متعاون، وهي شهادة صادقة في الواقع، والفضل في ذلك للزملاء الذين يتوافر فيهم إحساس متدفق بالمسئولية والرغبة في حسن أداء الواجب. ولكن الدكتور أسامة أردف قائلا ببساطة إنه يبقي الآن كتابة الخطب العربية علي آلة كاتبة مقاسها يسمح بكتابة الحروف بحجم كبير، ولما كانت السفارة لا تمتلك هذا النوع من الآلات الكاتبة، فقد واجهنا مشكلة جديدة، ولكن مستشار السفارة السيد / سليمان عواد الذي كان يحضر الحديث قد أسعفته كفاءته في ابتكار الحل، وهو استخدام وسيلة التكبير بالتصوير لتكبير الكلمات، ثم اكتشفنا أنه لابد من اعادة كتابة كل الخطب من جديد بطريقة تناسب التصوير الكبير، بحيث تنتهي أي فقرة في نفس الصفحة دون استكمالها في الصفحة التالية. وشكرته علي فكرته التي أخرجتنا من هذا «المطب». ووعد بتنفيذها مع زملائه بالسفارة بإشراف الوزير المفوض (السفير أنيس نعمة الله سفير مصر بالمكسيك الآن)، أما الزميل المستشار محمد الضرغامي «حلال المشاكل» فقد ودعته وقد كاد الصبح أن يقبل ليستمر في حل المشاكل التي لاتنتهي بصفته ضابط الاتصال بين الوفد المصري والسلطات الألمانية، ويتواجد خلال الزيارة في قصر الضيافة.

وكان الجانب الألماني، والسفارة المصرية يوزعان نسخا من الخطب التي ستلقي في الحفل المقام (غداء/عشاء/أو استقبال) مترجمة الي الألمانية للألمان والي العربية للمصريين. وفي حفل الغداء الذي أقامه المستشار تكريما للسيد الرئيس، ووزعت الترجمات وفوجئنا بأن المستشار بعد أن أنهي خطابه الرسمي قد استطرد وقال إن المكانة الممتازة وتقديره الشخصي للرئيس مبارك يجعله يضيف الي النص الرسمي بعض أفكاره، واستكمل خطابه غير المكتوب، وكان المستشار رقيقا في عواطفه وهو يعبر عن تقديره لدور مصر وجهود الرئيس مبارك لمواجهة مشاكل وتعقيدات السياسات العالمية. وفي اليوم التالي، وفي حفل عشاء أقامه المستشار أيضاً، وزعنا بمعرفتنا علي الحضور الترجمة الألمانية السابق إعدادها لخطاب الرئيس مبارك، وبدأ الرئيس في إلقاء خطابه بالعربية، ولاحظنا جميعا طول الخطاب ووجود موضوعات وعبارات غير واردة لا في النص العربي ولا في الترجمة الألمانية التي أمامنا.وكان من الممكن أن تمر هذه الملاحظة مر الكرام، فالمضمون واحد إلا أن كثيرا من الألمان الموجودين الذين يتقنون العربية — التي ألقي الخطاب بها— وكذلك بعض المصريين الموجودين في ألمانيا ويتقنون الألمانية قد وجدوا في هذا الموضوع ما يثبت مواهبهم فى الترجمة ودراسة اللغات، وبعد الحفل تجمعت حولي الحلقات وقد ظنوا أن خطأ ما قد حدث من السفارة بحيث خرجت الترجمة قاصرة، وأراد كل منهم أن يشارك في هذه «الندوة»، وكنت شخصيا أتعجب مما حدث وأتساءل عن كيفية وقوعه رغم إجراءات السفارة، ولم أعرف السبب حتي شرحه لي الدكتور أسامة الباز، حيث لاحظ أن خطاب المستشار في الحفل السابق، وخاصة في الجزء الذي أرتجله كان مليئا بالتقدير وبه جانب شخصي ملئ

بالود، فرأي الدكتور أسامة أن يقابل الترحيب بالترحيب، وزيادة الود بالتعبير الودي وأعاد صياغة الخطبة التي سيلقها السيد الرئيس من جديد، ويعتبر مضمونها الشامل ردا علي مجاملات الأمس، ولم يشأ الدكتور أسامة أن يجهد السفارة بإعادة كتابة الخطاب وإعادة ترجمته كاملا للألمانية، وهكذا وزعت السفارة علي الحاضرين النسخ السابق إعدادها والتي تختلف عن الخطاب الذي ألقي أمامهم، ومن الطبيعي أن تلصق التهمة بالسفارة حيث لا مجال لشرح ماحدث لكل هؤلاء الجهابذة.

وتمر السفارة علي هذه الواقعة مر الكرام لنسرع جميعا الي الخطوة التالية في برنامج الزيارة. فالمهم عندنا هو نجاح الزيارة، ولا مجال للتوقف أمام العثرات الصغيرة.



زيارة الرئيس لألمانيا



رئيس جمهورية ألمانيا

الجزء الثاني

مآزق ديبلوماسية

مقدمة

كان لى شرف العمل الديبلوماسى فى سان فرانسسكو وأسبانيا، كوت دى إيفوار، اليابان ثم ألمانيا، وعشنا حياة مليئة بالأحداث، رأيت أن أسجل فيها بعض المآزق الحقيقية التى واجهناها، وليس تسجيل الأحداث أو البحث الأكاديمى هو هدفى هنا؛ بل لذلك مجالات ومناسبات أخرى، وإنما أرجو أن يجد القارئ أو القارئة موقفا يدعو الى الابتسام، أو معلومة جديدة يضيفها الى حصيلته، أو حكاية تستوقف تفكيره وتأملاته.

وهذا هو أقصى ما أرجوه.

سان فرانسسكو

(١) الطبيب سائق التاكسي:

الزمان عام ١٩٦٦ وفي اليوم التالي لوصولنا – حيث عينت قنصلا عاما لمصر – كان علينا أن نلبي دعوة قنصل عام هولندا احتفالا بالعيد القومي لبلده، ونظرا لقصر المدة منذ وصولنا، وجهلنا بالعناوين مع عدم وجود سيارة بالقنصلية، فقد اتبعنا الطريقة الأمريكية العملية، واتصلنا تليفونيا بالمركز الرئيسي لسيارات الأجرة، وطلبنا إرسال سيارة علي عنواننا، وركبنا السيارة وأعطيت السائق وهو يسير عنوان قنصلية هولندا المدون علي الدعوة، فدار حول منزلنا وسار لمسافة مائتي متر، ثم توقف ليخبرنا باسما، أن هذا هو العنوان المطلوب، ثم أردف متسائلا أما نستطيع سير هذه المسافة علي الأقدام؟ ولما شرحنا له أننا قادمون جدد للمدينة، أخبرنا أنه نيوزلندي حضر لدراسة الطب، وباق له شهور علي التخرج ويتكسب من عمله كقائد للسيارة لسداد مصروفاته. وتبادلنا الأمنيات بإقامة طيبة في سان فرانسسكو.

(٢) الممثل الفاشل:

بعد وصولنا سان فرانسسكو بحوالي الشهر تلقينا دعوة القنصل العام عميد السلك القنصلي بالمدينة للغداء تكريما لخمسة من الواصلين الجدد ومنهم قنصل عام مصر.

وتبين أن القاعدة التي اتفق عليها هو تجميع وتكريم من يحضر خلال ثلاثة أشهر للاحتفال بهم وتقديمهم للزملاء مرة واحدة، ولم يكن هناك مفر من قبول الدعوة فنحن من الذين سيجري تكريمهم. وفي الموعد المحدد وصلنا الي قاعة الفندق، وبدأت الخطب التقليدية مرحبة بالزملاء الجدد، وقدم لنا الطعام والشراب، وكان يجاورني قنصل عام الباكستان ونحن نتبادل الحديث المعتاد، وعند تقديم الطبق الأخير «طبق الحلو» التفت إليّ الزميل فجأة كأنه اكتشف شيئا، وسألني بأدب عما اذا

كنت مسلما، فأجبته بالإيجاب، فانتقل الي سؤال آخر عما إذا كنت صائما، وكان الرد أيضا بالإيجاب، فأخبرني باكتشافه الهام، وهو أنه لاحظ أنني أحرك الطعام في طبقي، وأقوم بكل حركات الآكلين، ولكنني لا أذوق الطعام أو الشراب، وفجأة تذكر أننا في شهر رمضان، وأنني قد أكون صائما، وهمست له أن هذه هي الحقيقة، وأنني وزوجتي قد خجلنا من الاعتذار عن الحفل الذي أقيم في رمضان لأننا من بين الذين أقيم هذا الحفل لتكريمهم، ومن يومها تقاربت النفوس، وأصبحت الأسرة الباكستانية من أقرب أصدقائنا، ولو أنني أحسست بالفشل لأن زميلي قد أثبت باكتشافه أنني لا أصلح كممثل ناجح لأنني لم أقم بأداء الدور المطلوب بكفاءة مقنعة.

(٣) الإرهاب في الشارع :

بدأنا نحب سان فرانسسكو بشوارعها الممتدة ونظافتها، وشاطئها المطل علي المحيط الهادئ المليئ بمراكب النزاهة والمطاعم الجميلة والأنشطة السياحية. وتتمتع سان فرانسسكو بجو ربيعي طوال العام تقريبا، وقد شجعني ذلك علي إتباع نصيحة الأطباء في القاهرة بضرورة ممارسة رياضة المشي وكانت كل ظروف المدينة تشجع علي هذه الرياضة المفيدة، وبدأنا زوجتي وأنا المشي يوميا لمدة ساعة، نستمتع خلالها بالمناظر الجميلة والمناخ المعتدل، ثم فوجئنا بقراءة مقال في مجلة أمريكية وأكرر أمريكية تحذر من المشي في أي شارع بسان فرانسسكو بعد الغروب، وبررت ذلك بأن المجتمع في هذه الحقبة كان يمتلئ «بالهيبيز» ومدمني المخدرات. وذكرت المجلة أن هؤلاء الأشخاص قد اعتادوا علي الانتشار في كل أحياء المدينة بما فيها الأحياء الراقية للحصول علي المال بأي وسيلة لضمان حصولهم علي المخدر المطلوب في الوقت المحدد. ونصحت المجلة كل من يمشي في سان فرانسسكو – رجلا أو امرأة – أن يتحرك في الشوارع ومعه لا أكثر ولا أقل من خمسة وعشرين دولارا، وكان تحديد هذا المبلغ هو مثار استغرابنا، حتي قرأت باقي المقال، وإذا به يشرح أن هذا القدر يؤمن للمدمن القدر المطلوب من المخدر، بحيث أن المدمن إذا حصل علي هذا المبلغ منك بأي وسيلة (الطلب. أو التهديد أو العنف) فإنه سيأخذه وينصرف، وهو آمن نظرا لضآلة المبلغ الذي لايشجع علي إخطار الشرطة، أما إذا وجد معك أقل من هذا المبلغ فإنه سيقوم بالاعتداء عليك بحثا عن نقود أخري تخفيها. أما وإذا حدث العكس ووجد معك مبلغا أكبر من المبلغ المحدد، فإنه سيأخذه ولكنه في الوقت نفسه سيعتدي عليك بعنف يعرضك للخطورة لأنه يخشي نظرا لضخامة المبلغ أن تبلغ عنه الشرطة.

وفي اليوم التالي أتبعت النصيحة، ونزلت زوجتي معي بأبسط الملابس وبدون مجوهرات، ومعنا المبلغ الذي اقترحته المجلة وبدأنا نسير – إتباعا لنصيحة الأطباء – ونحن نشتبه في كل قادم من الأمام، وندرس خطواته من بعيد، وهل تنبئ بالشر أم هو مثلنا عابر سبيل، أما الخطوات التي نسمعها آتية من خلفنا فتعني لنا الرعب المجسم، وتخيلات عن الخطر القادم المحدق بنا، ونلتفت للخلف خلسة حتي نعمل الخطة الدفاعية ثم ينكشف الأمر عن شخص برئ يسير في الشارع، وهكذا انقلبت متعة رياضة المشي الي مجموعة من أحاسيس التوجس والتوتر، وخاصة بعد ما أكد لنا الزملاء صحة المعلومات

الواردة بالمجلة.

(٤) مخالفة للسير ببطء :

ومضت الأيام، وعدينا الي حفل عيد ميلاد طفل مصري صديق لإبننا وفي نفس عمره، وتلقينا الدعوة تليفونيا وقبلناها شاكرين، وفوجئت وأنا استخرج من الخريطة طريق الوصول لمنزل الدعوة أن الموقع يبعد عن سان فرانسسكو حوالي مائة وخمسين ميلا، ويحتاج الي دقة كبيرة في تغيير الاتجاهات علي الطريق لنصل للمنزل، وكنت استخدم سيارتي الخاصة وأقودها بنفسي واعتمدنا علي الله وأخذنا إبننا وهديتنا معنا، وتوليت القيادة، وأمسكت زوجتي بخريطة الطرق ونجحنا والحمد لله في الوصول ولكن بعد معاناة شديدة.

واستمتعنا بالحفل وحان موعد العودة، وأصطحبنا معنا في السيارة أسرة مصرية، وركب الزوج بجواري وانفردت السيدات بالمقعد الخلفي، وتركت وحيدا أمام عجلة القيادة وليس هناك من يرشدني ويتابع الطريق علي الخريطة، وانهمكت السيدتان – كالمعتاد – في حديث يبدو أنه شيق حيث استغرقهما بالكامل، واضطررت الي التركيز علي معالم الطريق والاعتماد علي ذاكرتي فقط، وسرت بالسيارة بحذر خوفا من اللوحة اللعينة التي كثيرا ما خضعت لأحكامها مضطرا، وهي تقرر أن من يسير في الحارة اليمني عليه أن يتجه لليمين جبرا، وتكون النتيجة أن يضيع منا حوالي نصف الساعة ونحن نحاول أن نعود لنفس الطريق الذي غادرناه، وسعدت للغاية أثناء الطريق وأنا ألاحظ أنني أسير بنجاح في الاتجاه الصحيح، ولكن يبدو أن الحذر لايمنع القدر، ففي لحظة معينة تصاعدت سارينة الشرطة، وشاهدت في مرآة سيارتي الإشارات الضوئية الحمراء التي تعني أمرا بالتوقف. ولما كنت أسير بهدوء وأشعر أنني لم أكسر أي قاعدة مرورية فقد نظرت حولي بحثا عن المخالف المقصود بهذه الإشارة، فلم أجد الا سيارتي تتقدم سيارة الشرطة مباشرة، وهنا ظهرت كفاءة رجال المرور، فقد أعطي لي الاشارة بالتوقف في وقت هو يعلم جيدا أنني سأجد أمامي في لحظتها في هذا الجزء من الطريق مكانا محددا يسمح للسيارات بالتوقف دون إعاقة السيارات القادمة.

توقفت مطيعا – رغم عدم معرفتي بالسبب – ونزل ضابط المرور من سيارته متقدما نحوي. وتقضي التعليمات بأنه يحظر علي قائد السيارة النزول من سيارته، بل عليه أن يبقي بها، وذلك تجنبا لما كان يحدث قبل هذه التعليمات، حيث ينزل المجرم من سيارته إستجابة لإشارة الشرطة، ولكنه يطلق النار عليهم في نفس اللحظة ويهرب، كما تقضي التعليمات أيضا بأنه عندما يطلب رجل الشرطة رخص السيارة والقيادة فلا يجوز أن يقدمها صاحبها وهي داخل المحفظة، بل عليه إخراجها وحدها وتقديمها وبذلك أمكن تفادي بعض الاتهامات لرجال المرور باختلاس مبالغ نقدية كانت بالمحفظة. وتكررت الإجراءات، وتقدم الشرطي ليسألني بأدب عن رخصتي، فاستخرجتها وقدمتها له، قرأ فيها وظيفتي، ثم سألني السؤال الذي كنت أنتظره بفارغ صبر عن سبب سيري بسرعة أبطأ مما هو مقرر

لمعدل السرعة في هذا الطريق السريع، وطبعا إذا عرف السبب بطل العجب، وأدركت خطئي حيث منعني التركيز علي الطريق من قراءة لافتة الحد الأدني للسرعة، واعتذرت للشرطي بأنني حديث عهد بقيادة السيارة علي الطرق الأمريكية – وكان هذا واضحا – وسمح لي باستئناف السير مع رجاء الوصول بسرعة السيارة للحد الأدني، وقلت لنفسي مخالفة للسرعة هناك، ومخالفة للإبطاء هنا.

(٥) المرحوم السادات مدينا :

تلقيت بعد وصولي بشهر خطابا رقيقا للغاية من مكتب إدارة المراسم بولاية كاليفورنيا، تخطرني فيه بأنها تعتذر عن إزعاجي، لكن سبق لهم أن أرسلوا للقنصلية خطابين، والادارة تعتقد أنهما لم يصلا لنا، ولذلك ترسل هذا الخطاب الثالث لترجوني سداد مبلغ تسعة وتسعين دولارا هي قيمة استئجار سيارة إضافية استأجرتها ادارة المراسم لتنضم للسيارة المخصصة من المراسم لاستخدام نائب رئيس الجمهورية السيد أنور السادات مدة زيارته الرسمية لولاية كاليفورنيا، ولما كان الموضوع جديدا بالنسبة لي، فقد سألت زميلي، فذكر أن القنصلية قامت فعلا في حينه بكتابة خطاب للمراسم تطلب استئجار سيارة علي نفقة البعثة، وذلك بناء علي تعليمات الضيف الزائر، وأن الخطابين المرسلين من المراسم قد وصلا فعلا منذ شهور، وأنه قام بإرسالهما للسفارة في واشنطن «لعمل اللازم» ولم يتابع تصرف السفارة. وقمت بالاتصال بالسفارة مستفسرا وعلمت من كبار المسئولين بها أنهم يتركون لي حرية التصرف، وإحساسا مني بمدي الحرج الذي يلحق باسم نائب الرئيس، وبسمعة مصر كدولة متحضرة تتخلف عن سداد دين ثابت غير منازع فيه، فقد أرسلت للمراسم خطاب اعتذار رقيق مرفق به شيك «شخصي» بالمبلغ، وأرسلت خطابا بما حدث مرفقا به إيصال السداد الي السيد / فوزي عبد الحافظ مدير مكتب المرحوم السادات، وبعد فترة بسيطة وصلني المبلغ مع خطاب شكر رقيق، وحمدت الله أنني سارعت بسداد المبلغ، دون أن أرسل خطاب المراسم للسفارة في واشنطن لاتخاذ اللازم.

(٦) الذكاء الأبله :

وتمضي بنا الأيام في سان فرانسسكو، ونفاجأ يوما في الساعة الثالثة فجرا بانفجار قوي يهز مقر القنصلية الذي نقيم به، ويكسر الكثير من زجاج النوافذ، وانتابنا الفزع، وهرعت للخارج لأعرف أن إنفجار ضخما قد حدث لقنصلية يوغسلافيا والتي تقع في مواجهتنا تماما، وقد حدث بها تدمير وخسائر كبيرة، ويبدو أن بعض المعارضين لحكم الرئيس تيتو في هذا الوقت هم الذين قاموا بتدبير الإنفجار، وأسرعت الي موقع الحادث عربات المطافئ ورجال الشرطة، وتوالت الأحداث بسرعة، وبعد أن إطمأننت من حارس قنصلية يوغسلافيا أن جميع الأفراد الذين كانوا بالداخل لم يمسسهم ضرر، قمت بالاتصال بالقنصل العام اليوغسلافي الذين يسكن بالضواحي، وأبلغته بما حدث، وأن أفراد القنصلية كلهم بخير، فشكرني وأبلغني أنه سيحضر فورا ورجاني أن أكون بجواره. وحضر هو ومساعده وبدأ رجال الشرطة – في الشارع – في سؤالهم عن المشتبه فيهم، وبعد فترة حضر لي القنصل

اليوغسلافي وطلب مني مصاحبته للحديث مع كبار رجال الشرطة لأكون شاهدا عليهم، وأبلغهم أن مساعده الذي حضر معه قد اختفي، وأنه يتهم رجال الشرطة باختطافه ويعتبرهم مسئولين عنه، وبعد دقائق من هذه المواجهة ظهر مساعد القنصل، وأبلغنا أن رجال المباحث الفدرالية قد اصطحبوه الي سيارة في الشارع المجاور حيث إنهالت عليه الاسئلة التي تعمدوا أن تكون في مكان بعيد عن رئيسه لعلهم يصلون الي خلافات داخل القنصلية يكون لها علاقة بالانفجار.

وقمنا من جانبنا بإخطار شركة التأمين، وقام رجالها بالمعاينة، وخلال أربع وعشرين ساعة أصلحوا كل ما تلف دون مناقشة أو محاولة تهرب أو «شطارة».

وأرسل لي القنصل العام اليوغسلافي خطابا رسميا يعبر عن تقديره للدور الذي قمنا به نحوه ونحو زملائه وأن ذلك يعتبر امتدادا لما بين بلدينا ورئيسينا – تيتو وناصر – من تعاون وصداقة.

وظننا أننا قد انتهينا – من جانبنا – من هذه الحادثة، ولكن يبدو أننا خرجنا من حفرة لنقع – أو نكاد – في ورطة أكبر. فبعد يومين من الحادث طلب مقابلتي مفتش من المباحث الجنائية الفيدرالية، وحضر ومعه زميل له. وبمقابلتهما استأذنا في عرض صور بعض المشتبه فيهم علي العاملين بالقنصلية لعل أحدا منهم قد لاحظ تردد بعض أصحاب الصور علي منطقة القنصلية. وكان طلبا معقولا ولا مبرر لرفضه. وأخطرت الأخ القنصل (كمال عبد الرحمن) بالمطلوب، وبدأنا جميعا كل بدوره بالاطلاع علي الصور، ولم يشتبه أحد منا في شئ حتي جاء الدور أخيرا وآخرا علي معاون الخدمة «جمال»، وكان «جمال» نموذجا لسوء اختيار العاملين بالبعثات الديبلوماسية بالخارج. كان إنسانا طيبا بل متناهي الطيبة الي درجة السذاجة، يرتدي نظارات سميكة للغاية، ولا يكاد يري حتي مع النظارة، وباختصار وحتي لانسئ إليه، فقد كان محتاجا في كل أموره الي من يأخذ بيده، مع صعوبة وصفه بأية صفة تقترب من الذكاء أو سرعة الفهم. ولكن الأخ جمال رعاه الله. وقد كان الأخير في طابور التعرف علي الصور أبي إلا أن يثبت ذاته وأهميته، وقد سبق للزميل كمال عبد الرحمن أن أفهمه المهمة المطلوبة منه عند عرض الصور عليه، ونظر جمال الي الصور التي قدمها له المفتش، ونحن بجواره، ودقق النظر في أول صورة لفترة غير قصيرة، ثم ابتسم ابتسامة واسعة، وانفرجت أساريره وهو يقول باللغة العربية «دا صاحبي»، ولم يتأخر الزميل كمال عبد الرحمن في نقل الترجمة السريعة للسيد المفتش، وهي أن جمال يقرر أنه لم يسبق له مشاهدة صاحب الصورة، ومع نظرة حاسمة من السيد القنصل، استمرت الترجمة بغض النظر عن الاجابات البلهاء التي ينطقها الاخ جمال. وبعد خروج المفتش، وسلامتنا من هذا «المطب»، سألنا جمال بدقة عن معلوماته، وإذا به يهذي بمجموعة من السفاهات البلهاء التي لا أساس ولا رابط بينها والتي كان من الممكن أن تحدث لنا كثيرا من الحرج مع رجال المباحث دون داع.

(٧) الرحيل خلال ثمان وأربعين ساعة :

وقع العدوان [redacted] الإسرائيلي [redacted] علي مصر عام ١٩٦٧ ، وعشنا في سان فرانسسكو محاصرين بانتاج حوالي أربع وعشرين محطة تليفزيونية، وجميع محطات الاذاعة المسموعة والصحف والمجلات، وكل وسائل الإعلام، كل هذه الوسائل لا هم لها إلا مهاجمة مصر بشراسة وشماته، وتتابعت المكالمات التليفونية ليلا ونهارا تحمل إلينا التهديدات بالقتل والحريق، وتلقيت اتصالا هاتفيا من رئيس الشرطة بالمدينة – وكنت قد زرته مجاملة عند وصولي لسان فرانسسكو – يبلغني فيه أنهم قد وافقوا علي طلب قدم لهم للسماح بقيام مظاهرة حول مبني القنصلية المصرية باكر، وأنها ستكون مظاهرة سلمية، ثم أضاف في أدب أنه قد يكون من الأوفق والأسلم أن أترك وأسرتي وموظفو القنصلية المبني لمدة ساعات حتي تنتهي المظاهرات ثم نعود إليه، فشكرته علي نصيحته وأبلغته أننا لن نترك المبني، وعلي المسئولين معالجة الموضوع وفق ما يتراءي لهم مع تحميلهم المسئولية كاملة في حالة حدوث أضرار.

وفي اليوم التالي حمدنا الله أن لم تحدث مسيرات حول المبني، ويبدو أن المسئولين تخوفوا من إمكانية عدم السيطرة علي المتظاهرين خاصة لو إندس – كما هو مؤكد – بينهم بعض غلاة اليهود المتعصبين لاسرائيل.

وفي صباح يوم الجمعة التالي للعدوان، وصلتنا برقية من القاهرة بأنه تم إخطار السفارة الأمريكية بالقاهرة والقنصليات التابعة لها بإغلاقها ومغادرة البلاد قبل نهاية يوم الاثنين القادم، وأن علينا في سان فرانسسكو أن نغادر أمريكا قبل نهاية يوم الاثنين وفقا لمبدأ المعاملة بالمثل وأن نسلم القنصلية للقنصل العام الهندي حيث ستقوم الهند برعاية مصالحنا في أمريكا، وكان علينا أن ننفذ هذه المهمة خلال الساعات الباقية. ومن حسن الحظ أنني والزميل كمال عبد الرحمن ومعنا السيد / محسن طلبة المسئول عن الشئون المالية والادارية (رئيس الادارة المركزية بالوزارة الآن) قد سبق لنا دراسة الموقف، وتخلصنا من كل ما ليس له حاجة ملحة، وأحرقنا أغلب البرقيات والأوراق، وقسمنا الجزء الباقي للتخلص من أهمها عند حدوث أي طارئ، وكنا قد أعددنا كشفا بعهدة القنصلية، بل وأسماء السكرتيرات المحليات وعناوينهن وأرقام تليفوناتهن وعناوين وتليفونات الفنيين الذين يصلحون لنا الكهرباء والغاز وأعمال السباكة وذلك للاستعانة بهم إذا دعت الحاجة. وفور تلقي البرقية المذكورة أحرقنا باقي الأوراق الموجودة واحتفظنا بالطوابع ذات القيمة وبأختام القنصلية، وسوينا الحسابات مع البنوك، وتمت الترتيبات ليتمكن القنصل الهندي من مواجهة المسئوليات المالية الواجب علينا سدادها، وأخيرا وبعد هذا كله بدأنا في جمع متعلقاتنا الشخصية وما أقلها. وكانت الطائرة التي تغادر سان فرانسسكو الي روما دون توقف في مدن أمريكية أخري هي طائرة شركة لوفتهانزا، وتغادر صباح الاثنين، وأرسلت مع مندوب القنصلية خطابا كالمعتاد لحجز التذاكر خصما علي حساب شركة مصر للطيران – بعد الاتفاق مع مديرها بواشنطن – وعاد الي المندوب ليبلغني أن مكتب لوفتهانزا قد رفض تسليمه التذاكر أو الاتصال بمصر للطيران في واشنطن قائلا أنه لا وجود لشركة مصر للطيران الآن

بعد توقف رحلاتها، واتصلت بمدير مصر للطيران في واشنطن، وأبلغته بما حدث فرد علي بأنه سيحاول مرة أخري، ولكنني شعرت من إجابته أن الضغوط والاحتياجات المطلوبة منه في هذا الوقت الحرج تضغط علي أعصابه بشدة.

وحصلت علي رقم تليفون أحد كبار المسئولين في شركة لوفتهانزا بالمركز الرئيسي، وحادثته تليفونيا، وطلبت منه بكل أدب مساعدتي في الحصول علي التذاكر من مكتبهم بسان فرانسسكو، وأن الرفض ليس له مايبرره اقتصاديا أو فنيا أو سياسيا – الشركة ألمانية – وشرحت له أننا في مصر نحترم شركتهم ومستواها في التعامل، ولا أريد أن يكون تصرف موظف صغير أرعن سببا في مشكلة إذا حدثت فلن تمر بسهولة، بل قد تؤدي الي إغلاق مكاتب الشركة بالقاهرة وهذا ما لاأرضاه. وبعد نصف ساعة اتصل بنا مكتب الشركة في سان فرانسسكو يرجو إرسال مندوب بالخطاب لتسلم التذاكر فورا.

وهكذا قدر لنا أن نغادر سان فرانسسكو في اللحظة الأخيرة ونودعها والقلوب مليئة بالحزن والأسي ونحن نتطلع الي وطننا وندعو له بالسلامة.

(٨) مشاكل الموت في الغربة :

ذات صباح اتصل بي بالقنصلية مصري وأبلغني أنه يعمل مستشارا بالقضاء، ووصل سان فرانسسكو بالأمس وسيغادر الي لوس انجيلوس – التي تتبعنا – لإجراء عملية جراحية خطيرة في الأذن الوسطي، وأسرني أسلوبه المهذب في الحديث، وإحساسي بمرضه ومعاناته في الغربة، فاقترحت أن أمر عليه في المساء لأقدم له التحية ولأصحبه في جولة بالمدينة. وتقابلنا ومعه السيدة حرمه، وشرح لي حالته المرضية الجسيمة، وأحسست أنه رغم المشاكل الصحية إلا أنه كان هادئ الفؤاد مسلما أمره لله، وسعدا بالجولة السياحية في المدينة مما أنساهما بعضا من الهموم التي تحيط بهما.

وفي اليوم التالي مررت عليهما محييا ثم أعطيتهما أرقام تليفوناتي بالمكتب والمنزل، وطلبت من الزوجة أن تطمئنني، وسعدت عندما أحسست أن شعورهما بالوحدة قد حل محله شعور بالاطمئنان بأن معهما من يرعاهما ويتابع حالتهما بالكثير من الاهتمام والتقدير. ورجوت أحد الأطباء المصريين المقيمين في المدينة أن يستقبلهم ويرعاهم بالنيابة عني، وتابعت العملية الجراحية وقد تمت بنجاح، وفي نهاية الأسبوع علمت من الصديق بأن الحالة تدهورت فجأة، وأن المستشار قد توفاه الله. وحادثت الزوجة بهدوء ورجوتها أن تتماسك لتساعدني في إتمام الاجراءات، وأن تضغط علي أحزانها حتي تصل للقاهرة، وهناك تطلق لمشاعرها العنان، وقامت القنصلية باستخدام التليفون والتلكس، وتكليف المصريين الأصدقاء حتي انتهت كل الاجراءات الخاصة بالمستشفي، وإعداد الجثمان وإعداد الصندوق الذي سيشحن فيه الجثمان، وتم سداد كل الالتزامات المالية، ووجدنا أن أسرع وسيلة للانتقال للقاهرة دون تغيير الطائرات مرات متعددة هي القيام مباشرة من لوس إنجليوس الي نيويورك ومنها لروما ثم

القاهرة، أما المرور بمطار سان فرانسسكو فسيحتاج الي برنامج معقد ويستغرق أياما أكثر، وتنقلات بين عدة طائرات ومطارات. وكان لابد من أختام توضع، وشهادات توقع، واتصلت بزميلي القنصل العام في نيويورك محمد سعيد السيد (السفير برومانيا فيما بعد) ورويت له موجزا للمشكلة، والسبب الذي من أجله فضلنا خط الطيران المقترح عن طريق نيويورك، فلم يكتف بإبداء استعداده فقط، بل وعد بالذهاب الي المطار بنفسه ومعه مساعده وكل الأختام والخطابات المطلوبة ليقدم عزاءه ومواساته للسيدة الفاضلة.

وأعدت الاتصال بالسيدة الكريمة مودعا ومعزيا وأخطرنا الأهل في القاهرة بتفاصيل الرحلة الجوية. وانتهت المشكلة بالنسبة للقنصلية، ولكن آثارها لم تنته بالنسبة لي، فقد سرحت بي الخواطر عن حكمة هذه الدنيا، وكيف أن معرفتي السطحية بهذه الأسرة، ثم صدمة الوفاة قد أشعرتني أنني فقدت إنسانا عزيزا علي النفس، وتساءلت عن القدر وأحكامه، وفكرت في الموت وآثاره، والموت في الغربة وتعقيداته، وشريكة العمر، وقد سارا سويا علي درب الحياة بحيوية وإقبال، وفجأة تعود مرافقة لجثمان قد تسربت منه الحياة وأغلق عليه صندوق خشبي.

واستعذت بالله من نفثات الشيطان وأخذت أردد من الأعماق «أن البقاء لله وحده».

(٩) رجال الإطفاء وأسطورة الزيارات الثلاث :

وقع زلزال عنيف في منطقة سان فرانسسكو في أواخر العشرينات وتسبب في إحداث حرائق سوت مباني سان فرانسسكو بالأرض، وكانت الخسائر شاملة ومدمرة. وتبين أن العامل الأكبر في كل هذه الخسائر هو النار التي اشتعلت في المباني نتيجة تطاير الشرر من الاسلاك الكهربائية وساعدت الرياح علي انتشار النيران. وكان درسا قاسيا للمسئولين عن المدينة ولذلك قاموا بتخطيطها من جديد تخطيطا جيدا الي شوارع طولية وعرضية، وفي كل مساحة مربع معين توجد محطة للمطافئ بها سيارة واحدة للإطفاء، تصل الي أي موقع في حدود اختصاصها خلال ثلاث دقائق، وكل مجموعة من هذه المربعات تتبع محطة إطفاء بها تجهيزات وإمكانات أكبر ثم محطة مركزية للمدينة بها أحدث وسائل الإطفاء والإنقاذ.

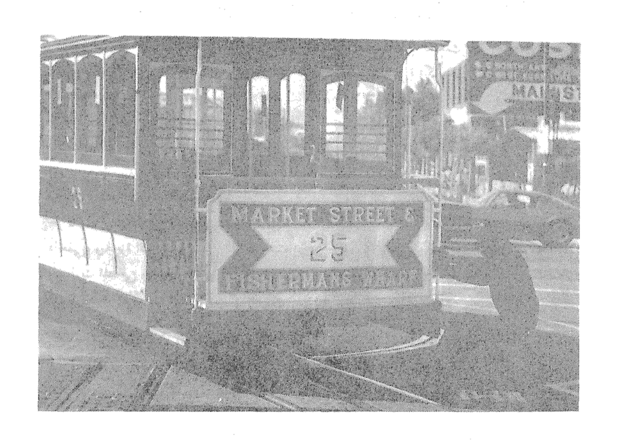
وتعتبر إدارة الإطفاء في سان فرانسسكو بنظامها الدقيق والسريع الفعالية نموذجا لما يجب أن تكون عليه أجهزة مقاومة الحريق، وعند وصولي للقنصلية قمنا بتجديد وسائل الإطفاء المستخدمة، وبناء علي طلبنا أوفدت الادارة للقنصلية أحد الضباط كبار السن لتدريب كل العاملين بالقنصلية، وتبين أن من مهام الادارة إرسال مدربين لكل الجهات التي يتجمع بها أفراد لتقديم دورات تدريبية، وهكذا بدأت علاقتنا — الوثيقة — مع رجال الإطفاء.

وحدث أن الطاهية المصرية كانت تقوم «بقلي» بعض المأكولات في زيت يغلي، وسقط الزيت

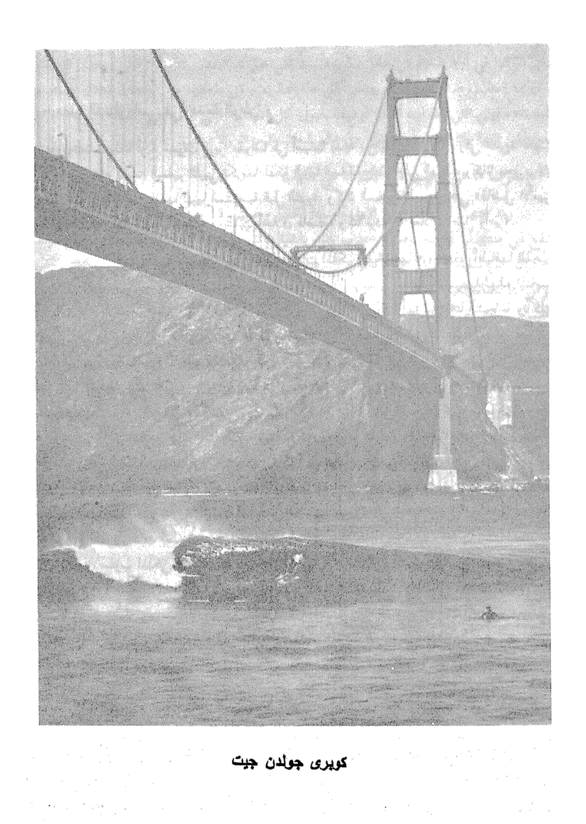
علي النار المشتعلة وانتشرت النيران بالمطبخ، وتم إطفاؤها بالوسائل اليدوية، ولكن رجال الإطفاء حضروا ليعاينوا الموقع وليتأكدوا من سلامة المكان والأجهزة، وانصرفوا مشكورين. وبعد هذا الحادث بحوالي الأسبوعين كانت القنصلية المصرية مشتركة في سوق خيري يقام في قاعة واسعة، وتعرض كل قنصلية منتجاتها، وحصيلة البيع تجمع لأعمال خيرية، وتفننت سيدات القنصلية ومنهن حرم الزميل القنصل كمال عبد الرحمن (السفير الآن) في تقديم الأطباق المصرية من الكعك والغريّبة وورق العنب والطعمية، بالاضافة لما أحضرناه من مصر من منتجات خان الخليلي، وكان من الطبيعي أن تصحب كل أسرة أولادها لحضور هذا المهرجان. واشترك الجميع في شراء الهدايا، وتذوق مأكولات القنصليات الأخري التي تباع بأسعار معقولة، وعاد كل منا لمنزله بعد أن أدينا واجبنا وساهمنا في العمل الخيري بالاضافة الي الوقت الممتع الذي أمضيناه في هذا المهرجان. وفي صباح اليوم التالي شعرت زوجتي بوجود دخان بالمسكن، وبسرعة تبينت أن مصدره غرفة نوم الأولاد. وكان سن أكبرهم خمس سنوات والثاني سنتين، وعند دخولها الغرفة وجدت الطفلين وقد التصقا بالحائط، وفي حالة رعب شل حركتهما وينظران الي النار التي تتصاعد منْ وسط مرتبة سرير أحدهما وكانت الغرفة تطل علي حوش داخلي، وبغريزة الأم وبإلهام من الله أسرعت زوجتي بحمل المرتبة وإلقائها من الشرفة الي الحوش، وأخطرت المطافئ وحضر رجالها بعد دقائق معدودة ليكملوا مهمتهم، والحمد لله انحصرت الخسائر في المرتبة المشتعلة.

وتبين أن الأولاد وقد حضروا مهرجان الأمس، قد تنقلوا بين معروضات القنصليات، وكان من بين ما تلقوه كدعاية علبة من الكبريت احتفظوا بها لأنفسهم، وجربوها في غرفة نومهم، واشتعلت المرتبة وأصابهم الرعب فلم يستطيعوا الصراخ أو الهرب خارج الغرفة حتي أنقذتهم عناية الله، وغريزة الأمومة. ومرة أخري شكرنا لرجال الإطفاء همتهم وكفاءتهم.

وبدأ بعض الأصدقاء الأمريكيين يعلقون علي الحادثتين بأن عندهم في كاليفورنيا مثلا قديما يقول بأن رجال الإطفاء إذا زاروا مكانا مرتين، فلابد أن يزوروه للمرة الثالثة. ومضت أيام ونسينا هذا المثل، ولكن ابني الصغير «حسين» ذو السنتين دخل ذات مساء الي غرفة الصالون، وأغلق الباب ثم عبث من الداخل «بالترباس» فأغلقه. وتنبهنا علي بكائه عندما اكتشف تعذر خروجه أو فتح «الترباس» ، وتبينا أن الباب مصنوع من خشب البلوط السميك وأن الباب المغلق هو المدخل الوحيد من داخل الشقة وفي الوقت نفسه يتعذر كسره. أما من الخارج فقد كان الشباك مفتوحا ولكنه مرتفع عن الأرض بمسافة كبيرة. وكان همنا ألا يصاب الإبن بالذعر حتي يصل رجال الإطفاء المنقذ الوحيد من هذه الورطة وبسرة تستحق الإعجاب وصلوا ونصبوا سلمهم ودخلوا من النافذة ليحتضنوا الطفل ويطمئنوه، وحمدنا الله أن تحقق المثل القائل بضرورة حضور رجال الإطفالء ثلاث مرات، وكانت المرات الثلاث برهانا علي لطف الله في قضائه



الترام التقليدى لسان فرانسسكو



كوبرى جولدن جيت

أســـبانيـــــا

١- معدة الديبلوماسي في خدمة الوطن :

عملت لمدة أربع سنوات وزيرا مفوضا في أسبانيا بداية من يوليو ١٩٦٨، وفي مدريد دعيت الي حفل عشاء يقيمه السفير الليبي تكريما لملكة البانيا السابقة وابنها ولي العرش، وكانا محل رعاية وعطف الدول الملكية ومنها ليبيا السنوسية قبل الثورة. وكان السفير الليبي يدعي «فاضل الأمير» ويعرف عنه أنه رجل مهذب، مثقف ويتميز بأخلاق فاضلة، وكنا نردد أنه فعلا «فاضل وأمير».

حضرنا حفل العشاء، وكان نموذجا للحفلات الملكية بفخامتها وروعتها، بأطباقها الذهبية (فعلا) والشمعدانات الثمينة الفضية، والورود النادرة، وقد أحضر السفير خصيصا لهذه المناسبة مأكولات بحرية (محار) من فرنسا. وكنا نعرفها – زوجتي وأنا – ولكننا أبدا لم تواتنا الشجاعة ونأكلها رغم أن أهل السواحل في مصر يقبلون عليها. وقدم لنا «المحار» علي الطبق الذهبي، لكل منا أربع، ويبدو أنه نظرا لخصوصية المناسبة فقد أكرمنا السفير بأن اختار المحار من النوع الضخم كبير الحجم. ولعل القارئ «غير السواحلي» يهمه أن يعرف أن هذا الكائن البحري موجود بين صدفتين مغلقتين، وتفتح الصدفات عند التقديم للأكل، لنجد في إحداهما هذا الكائن البحري الهلامي الكيان، وهو حي يحرك أجزاءه بهدوء ولكن بحيوية، وعلينا أن نعصر عليه الليمونة الموجودة بجواره ليموت ثم نأكله بالهناء والشفاء، وننعم بمذاقه الجميل (كما يقولون)، بالإضافة للكمية الوافرة من الفسفور الذي يحويه، ونظرت الي طبقي، والتحركات غير الظريفة التي تحدث فيه، وتلقيت من معدتي إنذارا حاسما، فلم أجسر علي تناول الليمون لعصره، واحسست أنه ابدا لن أتمكن من النجاح في محاولة التهام هذا المحار، وبدأت أنظر الي باقي المدعوين حولي، وإذا بالملكة السابقة وابنها يستمتعان بما يأكلان، وبالأسلوب الملكي الراقي أبدت الملكة إعجابها بالمحار الطازج وشكرت السفير لحسن اختياره لهذا النوع الرائع. ونظرت الي يميني حيث تجلس حرم السفير الأردني، وهي سيدة رائعة بمعني الكلمة وتتميز بالرقة والدماثة والمودة، فوجدتها تلتهم المحار باستمتاع، وبهدوء ديبلوماسي سبقته نظرة تفاهم، وبحركات لم يلحظها أحد، تحول المحار واحدة تلو الأخري من طبقي الي الطبق المجاور، وتحركت الأصداف الفارغة الي طبقي.

أما زوجتي فقد حكت لي ما واجهته، فقد كانت تجلس بجوار السفير اللبناني، وهي مترددة في كيفية التعامل مع أربع مشاكل (محارات). والتفت إليها السفير اللبناني ووجهه يحمل كل العلامات التي لا تبشر بخير قائلا، إنه قام بعصر الليمونة كلها علي المحارات، ولكنها مازالت تحرك أطرافها، وأنه يستحيل عليه أن يضعها في فمه أو يبتلعها وهي مازالت «تلعب في صدفتها»، وليذهب البروتوكول الي الجحيم، فأكلها أمر فوق طاقته، وهكذا وجدت زوجتي المخرج وتركت الطبق بما فيه

حتي رفع من المائدة. وهنا تذكرت القصة الديبلوماسية التي يعيش أحداثها كل واحد منا، فقد وقف سفير انجلترا في أحد البلاد في حفل تكريمه ليرد علي عبارات التقدير والاحترام التي وجهت اليه والي مجهوده العظيم، فقال إنه يود أن يهدي كل هذا التكريم وكل ماحققه من نجاحات خلال عمله الي «معدته» ، فهي التي تحملت أعباء الوظيفة بقبول كل الأطعمة التي أجبر علي بلعها، ولم تخذله أبدا وهو يلقي إليها بكل غريب ومجهول من عالم البحار والحيوان والأعشاب.

٢- إصرف ما في الجيب لا يأتيك ما في الغيب :

بعد انتهاء العام الدراسي الأول لأبنائنا أحمد وحسين في مدرسة «الليسيه فرانسيه» بمدريد وتقع في منتصف المدينة، وصلنا خطاب يفيد بانتقال المدرسة الي ضاحية بعيدة، وتحدد مبلغ مرتفع لاشتراك كل تلميذ في ركوب الأتوبيس المدرسي، وبكل كفاءة السيدات في المعاملات المالية، وتحقيق الوفورات لصالح ميزانية المنزل، فقد أمسكت زوجتي بالقلم والورقة، وجمعت وطرحت وقسمت، وأمسكت التليفون وقامت بعدة اتصالات، ثم قدمت خطة «دراسة جدوي» لمشروع شراء سيارة فولكس صغيرة «بيتل» بدون أي كماليات لتستخدمها في توصيل الأولاد وإحضارهم من المدرسة. ووفقا للأرقام التي قدمتها فإنه في نهاية العام الدراسي سيكون مادفعناه في ثمن السيارة أرخص مما كنا سندفعه كاشتراك للولدين في الأتوبيس. وتطوعت بالقيام بعملية التوصيل والإحضار، وهو مجهود لو تعلمون عظيم. كان الاقتراح مغريا ومدروسا جيدا ومعززا بالأرقام (التي لا تكذب)، وأمسكنا بالقلم والورقة لنجد أن كل ما نملكه في ميزانيتنا ومدخراتنا يكفي بالكاد لشراء السيارة دون أي كماليات، ورغم إغراءات المشروع إلا أن مجرد معيشتنا في الغربة دون أي رصيد لمواجهة أي ظرف طارئ جعلنا نؤجله مؤقتا.

وبعد أيام تلقيت مكالمة من زميل تجمعنا سويا صداقة العمر يبلغني أنه سيحضر لمدريد بعد أيام، ثم يضيف - متطوعا - أنه سيحضر معه المبلغ الذي لي في ذمته، فهو خير من يعرف الغلاء المرتفع في مدريد.

وكان حضوره ومعه النقود هدية من السماء، وأعددنا للضيف القادم كل ما من شأنه أن يجعله يستمتع معنا بإقامته. وثقة منا فيما قاله، فقد تعاقدنا فعلا علي شراء السيارة وسددنا ثمنها مرددين لأنفسنا ألا ضرر من العيش عدة أيام بدون احتياطي نقدي. ووصل الضيف الأخ العزيز - وهو يمتاز بخفة الدم وعمق الصداقة مع رجولة وكرم زائد - وقابلته بكل ترحاب وفي الطريق الي المنزل ضحك وهو يقول لي أنه يحمل لي مفاجأة، فقد احتفظ بالمبلغ ليحضره معه إلا أنه اضطر الي إنفاقه، وإن شاء الله سيرسله قريبا.

وبكل ديبلوماسية وهدوء رددت عليه بكلمات مناسبة، حتي لا أعبر عن رأيي بالنسبة لأخذه كل المسائل ببساطة متناهية قد تضر الغير رغم أخوته ورجولته وأمانته.

وتغلبنا علي هذه المفاجأة «غير الظريفة»، وقمنا بواجب الصداقة كما يجب أن يكون، حتي غادرنا مودعا، ثم عدنا الي القلم والورقة لنضع خطة كلها تقشف في نطاق ما بقي من ميزانية لنا وتذكرنا ساعتها فقط خطأ المثل القائل «إصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب».

٣- العقل زينـــة :

المكان سفارة مصر بمدريد عاصمة أسبانيا، وقد انتشرت في مصر أقاويل تؤكد كثرة فرص العمل في أسبانيا.

وبدأت مجموعات كثيرة من الشباب تصل باحثة عن عمل، ووفق عدد قليل منهم للعمل في أعمال شاقة منها أعمال النظافة وغسيل الأطباق، وفشلت الأغلبية وعادت للبلاد. أما من تضيق كل السبل أمامه فعادة ما يحضر للسفارة طالبا ترحيله للقاهرة. وكانت التعليمات أن نتصل بأهله لضمان ثمن العودة وكانت تشمل تذاكر القطار لباريس ثم تذكرة رحلة مصر للطيران للقاهرة.

وكانت سفارة مصر تضم مجموعة متميزة من الديبلوماسيين عملا وخلقا رأوا أن يضعوا قاعدة لتجنيب هؤلاء الشباب متاعب المعيشة التي يواجهونها حتي رحيلهم، فاتفقوا علي جمع مبلغ معين - لكل حالة ترحيل - من أموالهم الخاصة وتسليمها للمرحل للانفاق منها، وخلال الفترة بين وصوله للسفارة وموعد ترحيله للقطار يترك له الحرية كاملة في قضاء وقته كما يشاء. وسارت الأمور هينة وأعضاء السفارة راضون بهذه المساهمة، ومواطنونا العائدون يشعرون بأن أفراد السفارة يحاولون مساعدتهم علي تخطي هذه العقبة في هدوء وكرامة، ثم حدث ما جعلنا نتندر علي أنفسنا، وبالهدف الذي قصدنا إليه من مساهمتنا المالية، فقد حضر للسفارة أحد الشبان وطلب ترحيله، واتخذت السفارة معه كل الاجراءات المعتادة بما فيها تسليمه مبلغ المساهمة، ثم خرج من السفارة ليقضي بعضا من الوقت حتي يحين موعد القطار. وبرزت المشكلة لأن فراش السفارة ذهب «للمقهي» المواجه للسفارة ليجد صاحبنا وقد أحاط نفسه بآنستين ضاحكتين وأمامهما ما لذ وطاب، فأسرع بإبلاغ السفارة وعلمنا أن حساب المقهي وما قدم للآنستين قد استغرق مبلغ «المنحة»، وحضر الأخ المرحل للسفارة متوسلا أن نمنحه مساعدة أخري تغطي احتياجاته الضرورية، فحددنا إقامته أولا بالسفارة لايغادرها، ثم منحناه ما أراد، وقد تم ذلك بناء علي مناقشة جدية ضاحكة بيننا اكتشفنا خلالها أنه لم يعمل سوي ما تقوم به الدول النامية حين تصرف ما تحصل عليه من قروض ومنح علي مشروعات تتسم بالسفه والبلاهة، ثم تعاود التقدم للمؤسسات العالمية والدول الكبري بطلبات للحصول علي قروض أخري.

٤- ما طار طائر وارتفع، إلا كما طار وقع :

إرتفعت أسعار اللحوم في مصر خلال الستينات، وأشارت الدراسات بضرورة الاعتماد علي الأسماك كمصدر للبروتين ولتخفيف الضغط علي استهلاك اللحوم، وقامت إحدي الشركات ومقرها

الاسكندرية بشراء وتشغيل أربع سفن للصيد في المياه الدولية القريبة من أسبانيا والمغرب، وهي فكرة ممتازة ومربحة لكل الشركات التي تمارسها إلا هذه الشركة المصرية. وللأسف الشديد كانت السفارة بناء علي ترتيبات سابقة تشرف علي مجمل حسابات الشركة في البنك الأسباني، وكان المتبع أن تصلنا برقية تحدد مبالغ معينة للصرف لغرض ما، ويكون عمل السفارة مجرد إصدار الشيك وفقا للتعليمات، وكنا نشعر بالأسي عندما تصلنا همسات عن بعض التصرفات المريبة التي تحدث بمراكب الشركة، فقيل أن كل مركب عبارة عن مجموعة من مناطق النفوذ، ولكل منطقة مستفيد يحتكرها فهناك من يستفيد من اصلاحات مزعومة لغرفة الآلات، وآخر يستفيد من غازات التبريد التي تحتاجها ثلاجات المركب، وثالث يستفيد من تموين الباخرة سواء بالوقود أو بالأغذية، أما شحنات السمك التي تم صيدها والمفروض وصولها الي ميناء الاسكندرية للاستهلاك المحلي ففي أحوال كثيرة تخطر المركب رئاستها بالاسكندرية باللاسلكي بأن شحنة السمك التي تم صيدها قد فسدت نتيجة عطل في الثلاجات، وأنه تم التخلص منها بإلقائها في البحر، في الوقت الذي تكون قد بيعت وقبض الثمن.

وأخطرنا رئاسة الشركة بموجز لما وصل لعلمنا وتركنا لجهات التحقيق بها دراسة صحة هذه المعلومات.

وفي إحدي الرحلات التفتيشية لرئاسة الشركة الي مدريد جاءنا الرد بأن ما نسمعه هو شائعات تدور بين الأفراد من المشتغلين علي المراكب نتيجة خلافات بينهم. وكانت السفارة موقنة بصحة هذه الاتهامات ولكن يعوزنا الدليل الذي اعتقدنا أن المسئولين كفيلون بالعثور عليه عند المتابعة. وفي يوم قائظ الحرارة تبينت أصواتا مرتفعة، وهياجا عصبيا صادرا من أحد الأشخاص، وأسرعت لأجد موظف السفارة المسئول عن حسابات الشركة، وأمامه أربعة أشخاص يتحدث أحدهم بهذا الصوت الجهوري الغاضب. وانقاذا للموقف اصطحبتهم لمكتبي حيث تبين أن السيد رئيس المجموعة يريد صرف بدل سفر له ولمرافقيه وحدد مبلغا لكل منهم. ولما كانت تعليمات الشركة ألا نصرف إلا وفقا للتعليمات التفصيلية التي تصلنا، فقد أفهمنا السيد الموظف الكبير ذلك، واقترحت أن نبعث ببرقية لرئاسته طالبين التوجيهات بالنسبة لطلباته، ولكنه عبر عن رأيه في البيروقراطية والجمود من جانب شركته، ثم قرر لي أنه يدخل في اختصاصه سلطة الأمر بصرف بدل سفر، وأحسست أنه غير صادق، ورأيت أن أضعه في موقف حرج ليتحمل هو مسئوليته.

فطلبت منه إذا شاء أن يكتب طلبا للسفارة ويذكر في مقدمته أن من سلطته في الشركة أن يأمر بصرف بدلات سفر بالخارج، وعليه فهو يطلب من السفارة صرف المبالغ المطلوبة، وبكل الحماس واستمرارا في إدعاء العظمة كتب الصيغة التي أمليتها عليه ووقع علي الخطاب وصرفنا له كل ما أمر به.

وأخطرنا رئاسته بتمام الصرف، وإذا ببرقية تصل بعد أيام طالبة من البعثة العودة فورا

للاسكندرية، ثم علمنا أن تحقيقا قد أجري فيما ادعاه السيد المذكور لنفسه من اختصاص لا يملكه، وإصداره أمرا خاطئا بصرف ما لا يستحقه.

وحاول أن يحمل السفارة مسئولية هذا الخطأ إلا أن الخطاب الذي كتبه ووقع عليه – واحتفظت به السفارة – قد فضح إدعاءه وناله مايستحقه.

٥- مخاطر اجتماعات السفراء العرب :

من المعتاد أن يعقد السفراء العرب في عواصم العالم اجتماعا دوريا كل شهر، يناقشون فيه مشاكل سفاراتهم مع الدولة المضيفة، وينفذون سويا توجيهات الجامعة العربية، ويحاولون تقريب مواقفهم بالنسبة لبعض المشاكل.

وعقد الاجتماع المعتاد في منزل سفير السعودية بمدريد، وكان إنسانا بالغ الرقة، مهذبا للغاية، ويشكو من ضعف صحته، وحضرت الاجتماع باعتباري قائما بأعمال سفارة مصر، وشارك في الاجتماع اللواء ابراهيم الداوود سفير العراق، وله قصة نتوقف قليلا عن متابعة الاجتماع لنحكيها.

بعد وفاة الرئيس العراقي عبد السلام عارف تتابعت الأحداث السياسية والانقلابات، ونجح أحد الانقلابات البعثية في الاستيلاء علي الحكم، وكان الفضل في النجاح يرجع الي المشاركة الفعالة للواء ابراهيم الداوود قائد الحرس الجمهوري. وكان إنسانا طيبا، وعديم الخبرة السياسية، يتميز ببساطة أهل البدو – عشيرته – وله قلب طفل صغير رغم ضخامة جسمه وصوته الجهوري. وقامت سلطات الانقلاب بتعيينه وزيرا للحربية وأوفدته بعد فترة قصيرة بطائرة حربية للتفتيش علي القوات العراقية المرابطة في الأردن، وقام بمهمته علي خير وجه، وركب الطائرة عائدا لبلاده، وإذا بالطائرة تأخذ مسارا آخر، ويتلقي رسالة من حكومته بأنه متوجه الي مدريد حيث عين سفيرا للعراق هناك، ويفهم جيدا أن زوجته وأولاده الاثني عشر سيمكثون في العراق ضمانا لطاعته والتزامه بالتعليمات وعدم عودته. وهكذا وصل مدريد بردائه الرسمي، وكانت مشكلة السفارة العراقية هي إيجاد ملابس مدنية له تتفق وحجمه الكبير. ثم وصلتنا معلومات بأن الوزير المفوض بالسفارة (البعثي) يجلس علي المكتب وفي متناول يده قضيب الحديد الذي يستخدم لتحريك الفحم في المدفأة تحسبا لأي عدوان يقع من السفير. أما سعادة السفير فقد كان مسدسه الضخم يظهر بوضوح من سترة البذلة، ولا يغادر مكانه في أي مناسبة.

ونعود لاجتماع السفراء العرب، وقد بدأت المناقشات، وكان المتحدث هو السفير اللبناني الذي كان يشرح وجهه نظرة للسفير العراقي، ويبدو أن السفير اللبناني استخدم ببراءة تعبيرا لبنانيا يعتبر في العراق قذفا وسبا، وفوجئنا بالسفير العراقي ينتفض واقفا ويده تقترب من سلاحه مهددا متوعدا، منكرا أن توجه له مثل هذه الكلمة – التي لم تلفت أنظارنا جميعا – وأسرعت مع السفير الأردني باحتضان العراقي وإخراجه من القاعة، وعبثا حاولنا تهدئته وإفهامه أن اللبناني لم يقصد أي إساءة، وربما كانت

المشكلة تكمن في المعني المزدوج للكلمة في العراق وفي لبنان، وأخيرا هدأ قليلا ولكنه أصر علي الانصراف، ودخلنا لنجد السفير اللبناني يرتجف خوفا ويتعجب مما حدث ولا يجد له مبررا ويصيح «اللهم إحمني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم».

وبمناسبة الحديث عن اللواء إبراهيم الداوود، أذكر أنه بعد فترة من وصوله مدريد هدأت ثورته، وفي نفس الوقت تمكنت الحكومة الجديدة من إحكام قبضتها علي السلطة والجيش، وسمحت لأسرة اللواء الداوود بالحضور لمدريد. وفي إحدي المقابلات طلب مني السفير العراقي السماح لأربعة من أولاده بأداء الامتحانات وفقا للنظام المصري بالمكتب الثقافي التابع للسفارة، وكانوا جميعا في سنوات النقل، والمشكلة أنهم لم يحضروا معهم أوراقا تثبت المستوي الدراسي الذي وصلوا إليه وقد أصبح الوقت متأخرا واقترب موعد الامتحان. واتصلت بالمستشار الثقافي الفنان المصور عز الدين حموده، فأجاب بأن التعليمات تحتم وجود الشهادات الدراسية، فضحكت وأنا أخبره بأن السفير العراقي سيحضر حفل السفارة المصرية اليوم، وأنني سأقدمه له، ولعله يلاحظ المسدس الضخم تحت الجاكته، وبعدها فله أن يتخذ القرار الذي يراه، وحضر الأستاذ حمودة للحفل، وقدمته للسفير العراقي مضيفا أنه المسئول الأول عن حل مشكلة أولاده، ونظر إليه الجنرال نظرة عسكرية مع كلمات مجاملة قصيرة، وانصرف الأستاذ حموده لأقابله بعد ذلك، وهو يرتعد خوفا وهو يقول لي أن السفير يحمل فعلا مسدسا ضخما وأنه اعتقد أنني كنت أداعبه عندما ذكرت له ذلك، فحكيت له حكاية السفير في اجتماع السفراء العرب وأن المسدس كان قاب قوسين من الاستخدام، وهنا أنهي الأستاذ حمودة الحديث بأسلوبه الفكه الساخر قائلا إنه يوافق علي امتحان الأولاد في أي سنة يختارونها، وأما الأوراق الرسمية فلا داعي لها مطلقا، ثم أردف قائلا «يادار ما دخلك شر»، وحصلنا من السفير علي إقرار بالسنوات التي يدرس بها الأولاد ويتعهد باحضار الأوراق. أما الأستاذ حمودة فقد تفادي صداما مسلحا لا قبل له به وحمد الله علي نجاته.

ولا أنهي حديثي قبل أذكر أن اللواء الداوود قد اختفي فجأة من مدريد ومعه أسرته لنعلم بعد ذلك أنه قد التجأ الي المملكة العربية السعودية.

٦- الحيطة من حسن الفطن :

بعد العدوان [redacted] علي مصر عام ١٩٦٧ استغرق الأمر عدة سنوات حتي استعاد المسئولون توازنهم وسيطروا علي أعصابهم، وبدأ الجيش المصري تدريبات جادة، وأخذ المبادرة في حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ بمهاجمة مواقع العدو علي الضفة الشرقية لقناة السويس، وإحداث الكثير من الخسائر في الأرواح والمعدات مما آثار القلق، وأثر علي الروح المعنوية للعسكرية الاسرائيلية التي وجدت الحل في توسيع نطاق المواجهة بتوجيه ضربات في العمق تجبر الجيش المصري علي نشر قواته، وبذلك يخف عنهم ضغط حرب الاستنزاف. وقامت مجموعة صغيرة ومدربة من الجيش الاسرائيلي بعبور

البحر الأحمر خفية والاحتماء بالجبال، ثم هاجموا محطة للرادار في الطريق الي الغردقة، واستولوا عليها وحملوها في طائرة صغيرة الي قواعدهم، واستغلت اسرائيل هذا الحادث إعلاميا الي أقصي درجة هادفة الي إثبات نظرية اليد الطويلة للجيش الاسرائيلي. أما وسائل الإعلام المصرية فقد أعلنت عن نزول القوة الاسرائيلية واستيلائها علي محطة مدنية للاتصالات اللاسلكية التابعة لوزارة المواصلات، وأن الجيش المصري قرر أن يمد خطوط دفاعه لحماية كل خط المواجهة. وتلقينا هذا الخبر في مدريد بكل الأسي، وعلمنا تفصيلاته الحقيقية من وسائل الإعلام الأجنبية، ودعونا لجيش مصر أن يوفقه الله في مهمته الصعبة أمام عدو غادر و ذكي.

وفي اليوم التالي للحادث، وكافة وسائل الاعلام العالمية لاتزال تتحدث عن الواقعة من وجهة نظر إسرائيل وتضخم من روعة الأداء ودقة التخطيط والتنفيذ، وصل أحد السادة الوزراء المصريين الي العاصمة مدريد بناء علي برنامج معد مسبقا، وكنت قائما بأعمال السفارة فاستقبلت الوزير بالمطار، وعقب نزوله من سلم الطائرة أخبرته بوجود زميله الأسباني بانتظاره في صالون الاستقبال الذي أعد فيه مؤتمر صحفي سيذاع علي الهواء مباشرة، وأبلغته أنني أعتقد أن أهم الأسئلة التي ستوجه له هو السؤال الذي يشغل وكالات الأنباء العالمية حاليا حول الهجوم الاسرائيلي واختطاف جهاز الرادار. وفاجأني الوزير بأنه قضي اليومين الأخيرين في روما بعيدا عن مصادر الأخبار أو الجرائد، وأنه لا يعلم شيئا عن هذا الحادث، فشرحت له بسرعة حقيقة ما حدث، ثم الرواية المصرية عن الحادث، وسألته هل يفضل الحديث بالعربية، ويقوم مترجم السفارة «الأستاذ كمال» بترجمة الحديث للأسبانية التي يجيدها، أم يتحدث مباشرة بالانجليزية وسيقوم المترجم الأسباني بترجمتها مباشرة علي الهواء للاسبانية. فنظر الي بثقة مقررا أنه يفضل الحديث مباشرة بالانجليزية، ورحب بنا الوزير الأسباني وصعد ثلاثتنا – الوزير المصري والأسباني وأنا – الي المنصة علي الكراسي المخصصة لنا، واقترب مني مترجم السفارة متسائلا عن واجباته، وهنا ارتكبت غلطة العمر التي أحكيها لزملائي الشباب حتي لايكرروها فقد شكرت المترجم وأبلغته أن الحديث سيكون بالانجليزية ولن نحتاج لخدماته.

ورحب الوزير الاسباني بضيفه وترك له الكلمة، وأمسك وزيرنا بالميكروفون وبدأ كلمته بالانجليزية «الغليظة» وآلات التصوير تعمل، وصورن تظهر علي الشاشة المعلقة أمامنا في القاعة، ويعرب الوزير عن شكره للزميل لدعوته الكريمة لزيارة أسبانيا العظيمة ثم.... تتوه الكلمات منه، وبسرعة خاطر عجيبة وجرأة نادرة يلتفت الي قائلا باللغة العربية، «أرجوك أن تقول للسيد الوزير أنني أعرب له عن........»، وهنا أسرعت بعيني باحثا عن الأستاذ كمال مترجم السفارة ليتولي الترجمة، ولكنه – وعنده كل الحق – «كان فص ملح وذاب». فقد انصرف من القاعة بعد أن سألني. ووجدت نفسي غارقا الي أذني في هذا المطب الوزاري، فلم أملك إلا أن أقوم بترجمة فورية أنقل فيها كلمات الوزير الي الانجليزية، وبعد الانتهاء حمدت الله علي هذا المطب، فقد تمكنت من إختصار الكثير من الذي قيل باللغة العربية ويتعذر فهمه بالنسبة للشخص الأجنبي، كما أنني مارست حريتي في ترجمة الردود

علي أسئلة الصحفيين الي إجابات ديبلوماسية، وتعلمت درسا لاينسي وهو أن يكون الجميع حاضرين ومستعدين حتي لو اعتقدنا أننا لن نحتاج لبعض خدماتهم، فالمفاجآت تقف دائما بالمرصاد للديبلوماسي.

٧- العناد يورث الكفر :

صدق من قال أن الفنان عبارة عن مجموعة من الأعصاب المشدودة وأنه يؤدي عمله ويعيش حياته بانفعالات وأحاسيس مرهفة تدفعه لعملية الخلق الفني.

وقد كان لي حظ العمل في مدريد مع الفنان الأستاذ عز الدين حمودة الذين عين مستشارا ثقافيا في مدريد. وكان سلفه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس قد جاهد حتي أنشأ معهد الدراسات الاسلامية وجعل منه إشعاعا للثقافة العربية والاسلامية في أسبانيا.

واقترب عيد الفطر المبارك، وكانت مسئوليتي الشخصية أن أبعث كالمعتاد بمذكرات للسفارات الاسلامية نهنئها بالعيد المبارك ثم نرحب بأفرادها لصلاة العيد في مقر مركز الدراسات الاسلامية – مقر المستشار الثقافي في نفس الوقت – وكان اتساع القاعات يسمح لهذا الجمع الاسلامي بالصلاة سويا. وتصادف أن حضر لمكتبي بالسفارة الأستاذ حمودة، فأبلغته بما تم واتفقنا أن يسير كل شئ كما اعتدنا منذ سنوات طويلة ونزل الأستاذ حمودة من عندي ليقابل السفير لعرض بعض الموضوعات ثم عاد الي مكتبه.

وفي الصباح التالي، تلقيت خطابا رسميا موجها للسفير من المستشار الثقافي حمله لي أحد مساعديه، ومضمونه أنه لن تقام صلاة العيد هذا العام في مقر المعهد – التابع له – نظرا لاعتزامه القيام بأجازة خارج مدريد، وهو لا يأمن لنشاط يقام وهو غير متواجد في الموقع. واتصلت بالأستاذ حمودة تليفونيا متسائلا عما جاء في خطابه، فأجابني الفنان حمودة بالايجاب وأيد كل كلمة فيه وهو في قمة التوتر والعصبية.

ولم تفلح كلماتي التي تشرح ضرورة عدم التفريط في هذا المكسب الأدبي للسفارة بين الأوساط الاسلامية في مدريد، وكيف أن الدعوات قد وجهت فعلا، ولكن الفنان الثائر أفهمني أنه ثار خلاف بينه وبين السفير بالأمس، ولذلك قام بهذا الاجراء ليضع السفارة في موقف حرج.

وطلب مني باسم الصداقة التي بيننا أن أبتعد عن هذا الموضوع، ورفضت هذا الأسلوب وطلبت منه أن يفكر بأسلوب موضوعي يراعي المصلحة العامة فقط، وودعته علي وعد باتصال تليفوني باكر لعله يكون أهدأ حالا. واتصلت به صباح اليوم التالي فوجدته قد تقمص شخصية دون كيشوت – الأسبانية – ويشعر بحسه الفني المرهف أنه يقاتل معركة عليه أن يستخدم فيها كل الأسلحة. وأصر علي موقفه الرافض، وأضاف أنه سيغلق الباب الخارجي بجنزير وقفل، ويمنح كل العاملين معه أجازة

إجبارية. ناقشت المشكلة مع السيد السفير وتبين أن سبب غضب المستشار الثقافي لايبرر كل رد الفعل العنيف المثير الذي يتخذه. وأرسل السفير برقية لوزارة التعليم العالي – التي يتبعها المستشار الثقافي – يعرض موجزا للمشكلة ويطلب توجيه المستشار الثقافي لعدم الاعتراض علي إقامة صلاة العيد. ولم يتغير الموقف. وجمعت كل معاوني الخدمة ورجال أمن السفارة وأبلغتهم انني قد احتاجهم صباح يوم العيد مبكرا للدخول عنوة الي مقر المعهد تحت اشرافي ومسئوليتي – لأن المعهد بمبانيه وموظفيه يتبع السفارة وهي التي تتحمل كافة مسئولياتهم – وأن صلاة العيد إن شاء الله ستقام في المقر المعتاد وفي موعدها تماما، وأنني مازلت أدعو الله أن يهدي أخانا الأستاذ حمودة بحيث يمر العيد الكريم بدون مشاكل. وكانت هذه رسالة أعرف أنها ستصله بعد فترة، ودعوت الله فعلا أن يهديه ويفهم ما في الرسالة من جدية وما فيها أيضا من دعوة له للتصرف بعقلانية هادئة.

وفي اليوم التالي أبلغني السفير أنه قد حل المشكلة تماما، حيث رأي أن اقتراب العيد المبارك وأيامه المليئة بالصفاء تشجع علي تصفية الخلافات وتنقية النفوس، فأخذ المبادرة واتصل بالمستشار الثقافي مهنئا بالعيد الذي اقترب، ولم يملك الفنان ذو الحس المرهف إلا أن يتبادل التهنئة ويعلن سحب كل ما جاء في خطابه، وأنه يرحب بصلاة العيد في المقر، بل سيزيد هذا العام عن التقليد المتبع ويقيم حفل استقبال بعد الصلاة للجميع لتبادل التهنئة بالعيد المبارك.

وأسرع الأخ عز الدين حمودة يبلغني بقراراته التي أسعدتني، وأحسست أن الله قد استجاب الي دعائي، وتعلمت درسا من مرونة السيد السفير وبعد نظره، وخبرته التي اكتسبها مع سنوات العمر.

٨– هروب دبلوماسي :

تشتهر أسبانيا برقص «الفلامنكو»، وما يصاحبه من غناء شجي، ويتميز هذا الرقص سواء بالنسبة للراقصة أو الراقص بأن الحركات تؤدي بمرونة ولكن بجدية فائقة، وبأسلوب يعبر عن العزة والكبرياء في الحب، والمرأة تتمنع وهي ترقص، والفتي يبثها أشواق قلبه في أنفة وكبرياء، ويزيد من روعة هذا الفن جمال الملابس الأسبانية وألوانها الرائعة، ودقات الأقدام علي المسرح التي تشكل وحدها وبدون موسيقي نغما قويا رائعاً. وكانت الوفود المصرية وأصدقاؤنا يبدون رغبتهم – فور الوصول – لمشاهدة هذا الرقص الأسباني الجميل، واكتشفنا أن أفضل مكان في مدريد هو المسرح الذي ترقص عليه راقصة أسبانيا الأولي «لوثيروتينا». ومن المعتاد تقديم العشاء في الساعة العاشرة مساء ويبدأ البرنامج من منتصف الليل حتي الرابعة صباحا.

ويكفي للدلالة علي تفوق «لوثيروتينا» وجمال رقصها غير المبتذل أن حكومة أسبانيا قد أوفدتها لمصر بناء علي اتفاقية ثقافية بين البلدين لترقص علي مسرح دار الأوبرا قبل احتراقها. ونعود لمدريد حيث تعودت اصطحاب من ادعوهم لهذا المكان لأنه فعلا الأفضل. ويسعد الضيوف ويستمتعون بكل فقرات البرنامج في الوقت الذي أعاني فيه من الإرهاق وأتمني أن أغمض عيني وأنام في هدوء.

واهتديت الي فكرة ترفع عني هذا الحرج، فمع كل دعوة كنت أصحب معي - بالتناوب - زميلا من شباب السفارة يحضر معنا السهرة من أولها، وبعد تناول العشاء وانتظارا لبداية البرنامج انسحب وفقا للخطة المتفق عليها في هدوء، وأقوم بدفع الحساب، وأتركهم في رعاية الزميل، وأتوجه الي منزلي وأنا أردد في سعادة أن «النوم سلطان».

٩- رحم الله رجلا عرف قدر نفسه :

قامت الثورة في ليبيا، وعاد السفير الليبي الي بلده، وأرسلت حكومة الثورة نقيبا بالجيش عين مستشارا بوزارة الخارجية وأرسل الي مدريد. وكان يمثل الثورة الليبية في أيامها الأولي، مليئا بالأمل تواقا للعمل لما فيه نصرة قضية العرب وإعلاء شأنهم، ولكن للأسف كان ينقصه الحس الديبلوماسي والمرونة. وبعد فترة قصيرة من وصوله طلبت الحكومة الليبية تعيين نفس هذا المستشار سفيرا لها في نفس السفارة - مدريد - وكان هذا إجراء يخالف الأعراف الديبلوماسية. وكان من الأوفق استدعاؤه الي بلده لفترة ثم عودته سفيرا إذا شاءت حكومته. وأغمضت الحكومة الأسبانية عيونها بشأن قواعد البروتوكول وقبلته سفيرا لديها وهكذا أصبح المستشار سعادة السفير وهو لم يبلغ بعد الثلاثين عاما.

واحتفلنا بشهر رمضان المبارك، وكان من عادة السفراء العرب أن يقيم كل منهم حفلا يدعو إليه زملاءه، وبعض أعضاء السفارات الإسلامية. وصلتنا دعوة السفير الليبي الشاب، وكان من ضيوف الحفل سفير مصر الذي يمثل مصر بكل ثقلها وحضارتها، ويمثل سوريا السفير الدكتور سامي الدروبي وهو من كبار المثقفين العرب وواحد من أوائل المنظرين والداعين للقومية العربية قبل أن تنادي بها الثورة المصرية. وهو السفير الذي اختارته سوريا ليكون أول سفير لها بمصر عند عودة العلاقات السياسية عقب كارثة الانفصال وما تخلل هذه الفترة من مهاترات وصدامات سياسية، وكانت الحاجة تدعو سوريا لاختيار أفضل رجالها ليمثلها في مصر.

وحضرت الحفل بصفتي الوزير المصري المفوض الذي كان يلجأ إليه الأخ المستشار الليبي سابقا - السفير حاليا - ليشرح له مشاكل السياسة والديبلوماسية وأصول البروتوكول - وذلك في سرية تامة - عن اقتناع بأن كل مكسب عربي هو مكسب لمصر. وكان أغلب السفراء العرب يزيد سنهم علي الخمسين ولهم تجاربهم الطويلة العملية في حقل السياسة العربية والدولية. ونعود لهذا الافطار مرة أخري حيث استمعنا قبل المغرب للقرآن الكريم، وأدينا صلاة المغرب ثم تناولنا الافطار - الشهي - وتبع ذلك الشاي الأخضر الممتاز، وسارت الأمور كأفضل ما يكون في هذا الشهر المبارك. وفجأة - وعلي غير المعتاد - وقف السفير الليبي ليلقي كلمة بدأها بالترحيب بالسفراء والدبلوماسيين العرب في مقر السفارة الليبية التي هي رمز للثورة الليبية، واستطرد في سرد فلسفة الثورة، والي هنا والخطبة لا غبار عليها، إلا أنه انتقل الي الحديث عن التضامن العربي والقومية العربية، وبدأ يلقي علي الحضور درسا في القومية العربية، ويبدو أنه لم يقرأ عنها أي كتاب، وإلا لكان قد عرف أن الدكتور

سامي الدروبي سفير سوريا هو أحد الداعين إليها في الوقت الذي كان فيه سعادة السفير يدرس في مدرسته الابتدائية، واستمر الخطاب علي هذا المنوال درسا طويلا في الوطنية والقومية والجهاد يلقي علي سفراء وزملاء كلهم أكبر منه سنا وأكثر علما وخبرة وثقافة.

وسكت القوم كأن علي رؤوسهم الطير وما كاد الخطاب ينتهي حتي بدأ الموجودون في الانصراف فورا بطريقة تعبر عن استيائهم واستهجانهم وتذكرني بالمثل القائل «لكل مقام مقال».

١٠- المطب الكبير :

أقامت سفارة عربية حفل عيدها القومي بأفخم فندق بمدينة مدريد، ولما كانت تعليمات وزارة خارجيتهم تحظر تقديم المشروبات الروحية بالحفل، وتجنبا للانصراف السريع من جانب الحضور الأجانب وما يتبعه من فشل الحفل في تحقيق الاتصالات والتعارفات المطلوبة، فقد أقيم «بوفيه» صغير في صالون مجاور منفصل لمن يشاء تناول مشروبه، ثم يعود للقاعة الرئيسية حيث تبادل المعلومات والمواقف السياسية. ووقفت مع سفير الهند في مدريد، وكان جنرالا بالجيش الهندي، وذا مظهر عسكري فخم واضح، ويمتاز بضخامة الجسم، ويزين الوجه شارب كثيف.

ودار الحديث حول بنجلاديش التي كانت تكافح للانفصال عن الباكستان وقتها، وامتاز عرضه بالمعلومات الجيدة والتحليل الرائع والمعرفة التامة بملابسات النزاع وموقعه الجغرافي، وفجأة قطع حدثينا سفير عربي في مدريد، ويبدو أنه عند اقترابه منا سمع كلمة «الباكستان» ونحن نتحدث عن النزاع، فوصل الي نتيجة منطقية أن المتحدث هو سفير الباكستان، وقام السفير العربي بتحية زميله، ولم يترك لي فرصة لتقديمه للسفير الآخر، بل قدم نفسه ودون أن يلتقط أنفاسه بدأ في الإشادة بالباكستان ودورها الهام في شبه القارة الهندية، ورعايتها للإسلام والمسلمين في مواجهة الهندوس والسيخ الكفرة، وما يجمعنا كعرب مع الباكستان من وحدة الدين والفكر والثقافة. وعبثا حاولت أن أقاطعه أو ألفت نظرة بطريقة ديبلوماسية، مما اضطرني خوفا من حدوث ما لا يحمد عقباه أن أتدخل في الحديث مقاطعا بطريقة فجة لأشرح له أنه يحادث سفير الهند وليس سفير الباكستان، وكانت ورطة شديدة إنسحب صاحبنا علي إثرها مهرولا، وكان علي أن أعالج الموقف مع السفير الهندي مرجعا السبب الي الجهل وضحالة الثقافة للبعض منا. وبعد قليل قابلت سفير الباكستان – الذي وصل حديثا– ولم أكن قد تعرفت إليه بعد، ووجدته هو الآخر جنرالا كبيرا وضخم الجثة وذا شارب مهيب، ولايكاد يفترق كثيرا عن زميله الهندي، فالتمست للسفير العربي العذر حين خلط بين الاثنين، ولكن في الديبلوماسية يعتبر هذا الخلط خطيئة لاتغتفر.

١١- وانتهي الحفل علي خير والحمد لله

كنت أمارس عملي كقائم بالأعمال بسفارة مصر بمدريد، وحضر – في زيارة رسمية – أحد

الوزراء الذين أحمل لهم كل تقدير ومودة، وأقمت علي شرفه حفل استقبال في دار السفارة حضره ومعه السيدة حرمه. ودعوت إليه زميله الأسباني ومعاونيه، مع كبار رجال السلك الديبلوماسي. وكان حفلا جميلا سار كل شئ فيه وفقا للترتيبات التي أعدت، ولكن حدثت مفارقتان جديرتان بالتسجيل، الأولي : أن زميلي بالسفارة السكرتير أول حسين الخازندار (السفير الآن) — وكان أعرفنا بالشخصيات الأسبانية المدعوة قد وقف يستقبل الزوار ثم تقديمهم لي بأسمائهم ووظائفهم وخاصة من لم يسبق لي التعرف عليه. وحضر أحد الضيوف وكان كبير السن ولا يكاد يري لضعف بصره، ويرتدي معطفا نظرا لبرودة الجو بالخارج، وعند دخوله حاول خلع المعطف ولكنه لم ينجح في محاولته، وأبت شهامة حسين الخازندار واحترامه لكبر السن إلا أن يتقدم ليساعده، وما أن تغلب الضيف علي مشكلة خلع المعطف حتي أسرع فوضع ورقة مالية في يد الأخ حسين الذي ارتبك للحظة كانت كافية لأنقل إليه بعيني رسالة ضاحكة ألا يحرج الرجل الكهل، وليدع المسألة تمر بأقل الخسائر التي حدثت فعلا احتراما لكبر السن.

أما المفارقة الثانية في هذا الحفل، فتتعلق أيضا بمعطف ولكنه «سوبر معطف». فقد كانت الترتيبات تقضي بأن يخلع الضيف معطفه ويسلمه لمعاون خدمة مخصص لتسلم المعاطف ويتسلم بطاقة عليها رقم المعطف. وسارت الأمور بدقة ونظام، وحضر الضيوف جميعا، وكان جو الحفل المرح يشعرنا بأن الكل يستمتع بوقته في هذا الجمع المثقف، وفي الوقت المناسب انصرف الضيوف تباعا، وبقيت المجموعة المصرية تتبادل الحديث مع الوزير حتي حان وقت العودة وخرجت وحرمي لنودع السيد الوزير وحرمه، وفي البهو قدمت حرم الوزير الورقة التي بها رقم معطفها، وعاد معاون الخدمة المخصص لهذه العملية وهو مضطرب ووجهه ممتقع ليبلغنا أنه لم يجد المعطف، ويقسم أنه لم يغادر موقعه إلا لدقائق قليلة وكان ذلك بعد خروج كل الضيوف. وفي براءة أخبرتنا حرم الوزير أن المعطف من نوع (—) وهنا انتقل الفزع إلينا وعرفنا أن المعطف يشكل هدفا حقيقياً يغري بالسرقة. وبسرعة يدور سؤال في الذهن، هل التبس الأمر علي سيدة أخري فأخذت هذا المعطف بدلا من معطفها؟ ولكن أين معطف السيدة الآن؟. وأتلفت حولي لأجد السيدة الفاضلة تحاول أن تزيل بعضا من التوتر الموجود حولنا بحديث هادئ باسم مع زوجتي، ولكن القلق بدأ يتزايد مع مرور الزمن. وازداد حرجنا أن يحدث ذلك داخل السفارة، وبعد دقائق مرت كالسنين وجدنا المعطف معلقا علي الشماعة الرئيسية بمدخل السفارة بعيدا عن الغرفة المخصصة لهذا الغرض، وتبين أن أحد «النابهين» وقد لاحظ أن الحفل كاد أن ينتهي وجد هذا المعطف وحيدا في الغرفة فهداه ذكاؤه أن يضعه في مكان الصدارة بالمدخل ليكون قريبا من صاحبته عند الخروج.

واستردنا أنفاسنا الضائعة، وحمدنا الله علي هذه النهاية الطيبة لحفل جميل أقيم تكريما لوزير مثقف جليل.

١٢– شهر عسل بلا نقود :

من المشاكل اللطيفة التي مرت عليّ في مدريد مشكلة عروسين مصريين، العريس يعمل بالكويت حيث استقبل عروسه ثم استقلا معا الطائرة الي مدريد ليبدآ سويا شهر العسل الحالم. وفي الصباح غادرا الفندق متجهين الي البنك لتحويل الدنانير الكويتية التي يحملانها، وواجهتهما مفاجأة غير سارة حيث علما أن بنوك أسبانيا لاتتعامل – وقتئذ – في الدينار الكويتي، ووقعا في ورطة محرجة، فكل ثروتهما الصغيرة مكونة من عملة كويتية ثقة من العريس في قوتها الاقتصادية، كما أنه لا يحمل كرتا دوليا يتيح له سحب نقود أو التعامل «علي الحساب». وهداه تفكيره السليم للالتجاء لسفارة وطنه بعد أن علم أنه لا توجد سفارة للكويت في أسبانيا، ودخلا لمقابلتي ووجدت عروسين في سن الشاب الغض، والسعادة ترفرف عليهما رغم ظلال مشكلتهما الأخيرة، وشعرت من الاستماع إليهما أنهما أبناء عائلات طيبة، وأسلوبهما يوحي بالثقة فيهما، ورجوتهما أن يعتبراني الأخ الأكبر، واتفقنا أن يأخذ ما يكفيه من نقود للضروريات، ويرسل لأخيه المتواجد في الكويت ليبعث له بحوالة قابلة للتحويل في أسبانيا، ورفضت رغم الإلحاح قبول أي أيصال يوقعه العريس بتسلمه المبلغ. وبعد أيام وصل التحويل وعادت البسمة للعروسين، وبدآ في استكمال شهر العسل بلا مشاكل.

١٣– منتهي الأناقة :

تحدد موعد لأحد كبار رجال الأعمال الأسبان لمقابلتي في دار السفارة، وحضر الرجل في موعده ولفت نظري أناقته المبالغ فيها، وكل شئ في ملابسه أو نظارته أو ساعته أو حقيبة اليد تنبئ بمستوي اقتصادي مرتفع، واهتمام غير عادي بالمظهر الخارجي.

ودارت المباحثات هادئة وإيجابية، وهو يستخدم قلم الحبر الثمين في الكتابة، ويكتب ملاحظاته في نوتة قيمة، والمنديل الحريري الجميل الذي يتلائم مع لون ربطة العنق يتدلي من جيب الجاكت العلوي وأخرج علبة التبغ الفاخرة عدة مرات ليدخن، وانتهت المقابلة وودعته حتي الباب حتي نلتقي بعد دراسة ما تم تبادله من معلومات. ومضت دقائق قليلة وإذا بالمسئول عن استقبال الزائرين بمدخل السفارة يتصل بي تليفونيا ليخطرني بأن الزائر الذي كان معي يرجوني – وهو خجل – أن أنظر للمائدة التي كانت أمامنا لعلي أجد ولاعته التي يفتقدها. فطلبت محادثة الزائر، وسألته في هدوء أن يبحث عن الولاعة القيمة في جيب الجاكت العلوي خلف المنديل الحريري، ومضت لحظة – طويلة – وإذا به يقول بانبهار أنه وجدها فعلا، واستأذنني أن يسألني كيف عرفت مكانها، فأجبت بأن كل شئ في ملبسه وسلوكه يوحي بدقة زائدة، وأنني تعجبت حين رأيته يضع الولاعة في مكان غير معتاد وهو الجيب العلوي، وظننت أنها «موضة جديدة» وسكت، ولكن يبدو أنه قام بذلك بطريقة تلقائية وفكر سارح فيما نتحدث عنه. وحمدت الله أن خرج «الزبون» من السفارة ومعه كافة متعلقاته.

١٤- ومرت سنوات :

وصلت برقية من القاهرة بإيفاد سبعة من صغار التلاميذ لحضور مخيم تعليمي يقام للمختارين من تلاميذ كافة الدول في بلد صغيرة قريبة من العاصمة مدريد.

واتصل المستشار الثقافي وأبلغنا أن وكيله سيكون في انتظار الأطفال بالمطار ومعه السيارة التي خصصتها ادارة المخيم لنقلهم للمعسكر، وأطمأننا الي كفاءة الترتيبات. وكان أولادنا قد سافروا للقاهرة لقضاء الأجازة المدرسية والاستمتاع بجو العائلة الدافئ مع التدريب الكافي علي اللغة العربية وحفظ بعض آيات القرآن الكريم علي يد الشيخ صلاح رحمه الله بقدر ما أفاد الأولاد طوال سنوات الدراسة. وفي المساء كنت وزوجتي في انتظار ضيوف من القاهرة حيث نقضي فترة في المنزل ثم نتوجه سويا الي أحد المطاعم الأسبانية لتناول العشاء. وقبل وصول الضيوف بساعتين تلقيت مكالمة تليفونية تبين أنها من المشرف الإداري علي بعثة الأطفال الذي أبلغني وهو في حالة تبعث علي الرثاء بأنه لم يجد أحدا في استقبال المجموعة في المطار، وأنه بعد أن طال انتظاره أخذ الصغار وركبوا الأتوبيس الذي يسير بين المطار وقلب المدينة، وأنه حاليا قد ترك الأطفال في الشارع مع الحقائب ويتحدث من مكتب استقبال فندق لا يعرف اسمه، وأنه من كفر الشيخ وهذه هي أول مرة يسافر للخارج ولايدري ماذا يفعل. فرجوته أن يعطي السماعة لأقرب موظف من الأوتيل ومنه عرفت اسم الفندق ورقم التليفون، ثم رجوت من المشرف أن ينتظر قريبا من التليفون حتي أجد له حلا.

اتصلت تليفونيا ولكنني للأسف لم أجد مسئولا بالمكتب الثقافي أو بمنازل الأعضاء والوقت يمر والليل يتقدم. وسألت زوجتي هل تستطيع أن تستغني عن مجموعة من البطاطين والأغطية والمخدات، وفي خاطري أن أطلب من المشرف ومن الأوتيل، أن يركبوا تاكسيات تقلهم للسفارة، ويقوم بعض العاملين باستقبالهم وسداد حساب السيارات ثم إعداد قاعة الصالون المتسعة مع الأغطية المناسبة من المنزل وتعليمات بشراء وتقديم كل مايحتاجونه من طعام وشراب. وفي الصباح نبحث عن الحل الأمثل. ونظرت الي زوجتي بعتاب متسائلة هل لو كان أولادنا في نفس الموقف كنا نسعد بهذا الحل؟ واقترحت أن نستضيفهم هذه الليلة في منزلنا، وأصبح لا مجال للتردد، فالضيوف في الطريق، واتصلت بالمشرف علي الرحلة، وطلبت منه تجميع البعثة أمام الباب الرئيسي للأوتيل، وأسرعت بسيارتي واستعنت بسيارة أجرة وأحضرت الجميع وتوجهنا للشقة التي أسكنها. وفوجئت زوجتي بالشنط أولا ثم بستة من الأولاد لا يتجاوز أكبرهم الثانية عشرة من عمره، ومعهم فتاة عمرها حوالي إحدي عشرة سنة، والسيد المشرف وعمره حوالي ستة وعشرون عاما، وكانت هذه أول مرة يغادر فيها محافظة كفر الشيخ.

وانتهت مهمتي وبدأت مهمة زوجتي التي استطاعت في لحظات تجنيد الكل لمساعدتها، وتم إعداد إحدي الغرف لنوم الأولاد مع المشرف، وغرفة أخري لنوم الفتاة وخرج كل مايصلح للنوم

والغطاء من الدواليب، وتسلم كل منهم فوطته، وانقلب المنزل فعلا الي معسكر صغير. واختارت زوجتي أكبر إناء بالمنزل وطهت لهم «مكرونة» باللحم المفروم، وأضافت كل المأكولات الموجودة بالثلاجة، وكان منظرا رائعاً وأنا ألاحظ أن الجميع يساهم بنشاط في حمل الأطباق والأكواب. وتناولوا طعامهم وهدأت أصواتهم، وأفهمتهم زوجتي بقرب وصول ضيوف لنا، وطلبت منهم عدم إحداث أصوات. واستقبلنا ضيوفنا وقبل مغادرة المنزل مررنا علي الغرف لنجد هؤلاء الأبناء وقد استغرقوا في نوم عميق.

وعدنا بعد العشاء من الخارج لننام، ونفاجأ في وقت مبكر للغاية في الصباح – ونحن الذين أرسلنا أولادنا للقاهرة – بأصوات أطفال يتحدثون في همس، ونتذكر ما حدث بالأمس، ونصحو ليبدأ المعسكر الصغير في إعداد الإفطار، ونتناوله سويا وهم لا يبخلون بجهدهم في المشاركة، وسعدنا بهذا الإفطار الممتع مع هذه المجموعة البريئة من الأطفال. وبدأنا في الحديث إليهم حتي يحين موعد بداية العمل بالسفارة، وكم دهشنا وتأكد لدينا ما سبق لنا معرفته من أن الدنيا صغيرة تماماً، فقد بدأ كل طفل يقدم نفسه، وتبين أن أحدهم من المنيا، ويجلس في الفصل مجاورا لابن عم زوجتي الذي يعمل أبوه – رحمه الله – طبيبا في المنيا، وهذا الطفل يعرف كل أفراد عائلة العم، وطفل آخر ذكر اسمه فعرفت والده وكان جد هذا الطفل هو الفنان الموسيقار المرحوم صفر علي صاحب نشيد بلادي. وتحدثت البنت وتبين أنها من الواحات، وهذه هي المرة الأولي التي تخرج فيها من الواحات، ونعرف أن مسابقة كبري أقيمت في مصر لاختيار النوابغ المتفوقين في الدراسة، بالاضافة الي هواية يتقنونها. وأبي كرم الصغار وقد شعروا بالأمان والاطمئنان إلا أن يردوا لنا الجميل فأنشد حفيد المرحوم الأستاذ صفر علي – وكان فنانا كجده – أغنية سيد درويش الخالدة «زوروني كل سنة مرة»، وكان رائع الأداء متمكنا من صوته الأوبرالي، وبدأ كل منهم يقدم ما أعده للمعسكر من العزف علي آلات موسيقية أو الغناء. وأمضينا ساعات مليئة بالسعادة والحب والشعور بالرضاء، وكنا نحس أن الله أرسل لنا هؤلاء الأبناء ليعوضوننا عن الشوق الذي بدأنا نحسه بالنسبة لأولادنا الموجودين بالقاهرة. وبعد فترة اتصلت بالمكتب الثقافي وتبين حدوث لبس ما، حيث لم يقابلهم السيد المختص رغم وجوده في المطار في الوقت المناسب، وحضر بعد فترة لمنزلي ومعه سيارة المعسكر، وودعانهم داعين لهم بالتوفيق.

وتمضي الأيام وتتعاقب السنوات، وأقضي مع زوجتي أياما في مرسي مطروح، واستقل الأوتوبيس العائد للقاهرة، وأفاجأ بالصديق كمال صفر علي في الأتوبيس، ويحكي عن مشاعر ابنه الجميلة عندما قابلنا– منذ سنوات طويلة – وهو طفل في أسبانيا مع مجموعة أطفال المعسكر. ويخبرنا بأن هذا الطفل قد تخرج الآن في كلية الطب، وأن الدكتور سيكون في انتظار والديه بمحطة الوصول.

وتنتهي الرحلة ونصل القاهرة، ويتقدم كمال لابنه يحادثه وهو يشير إلينا، ويترك الابن والديه ويهرع إلينا وكله فرحة بلقائنا ونحن سعداء بمشاهدة هذا الشاب اليافع، وكانت لحظة إنسانية رائعة اعتبرناها أكبر مكافأة لنا لما قدمناه –عن حب – لأبناء صغار يواجهون الغربة لأول مرة.

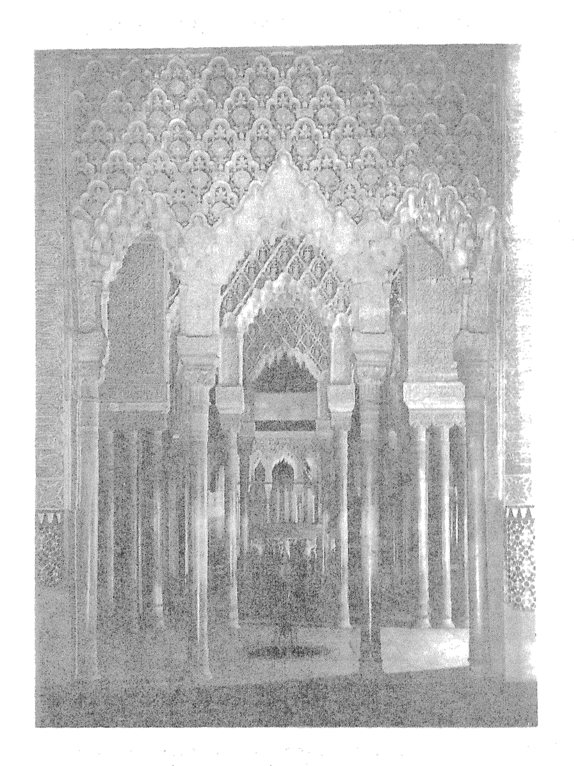


احتفال أسبانى

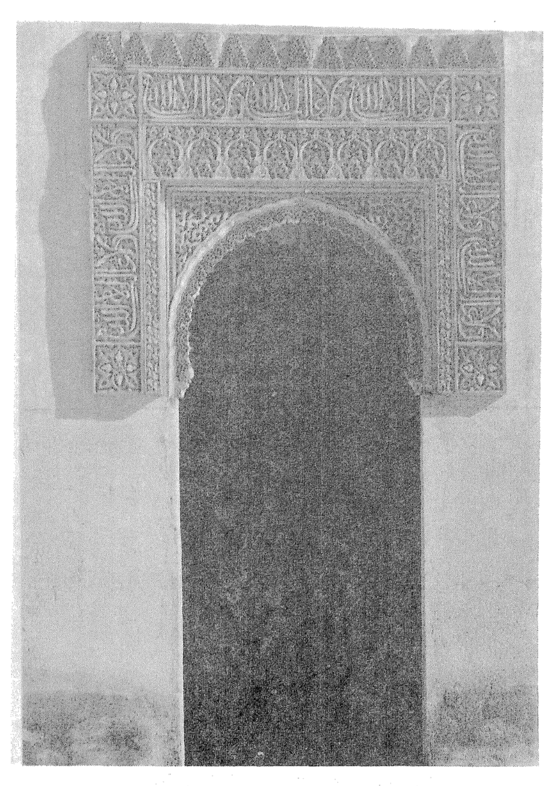




الجمال الأسبانى



قصر الحمراء – الحضارة الأسبانية الإسلامية



ولا غالب إلا الله - شعار بنى الأحمر بأسبانيا

«كوت دي إيڤوار»

١- مأزق الترحيب :

عينت سفيرا بساحل العاج - كوت دي إيفوار الآن - في المدة من ١٩٧٤/٣/١٧ حتي ١٩٧٨/٢/١ . وكنت أعلم أنه بلد يقع علي خط الاستواء، ومناخه شديد الحرارة ومرتفع الرطوبة، ولكنه في المقابل يعتبر جوهرة غرب أفريقيا بتقدمه المبهر، ومظاهر المدنية والرقي، والرخاء الذي تعمد الفرنسيون المستعمرون السابقون أن يوفروه لهذا البلد الذي احتفظ - بالصلة الحميمة جدا - بفرنسا الأم حتي بعد الاستقلال. ووصلنا العاصمة «ابيدجان»، ووجدناها كما سمعنا فعلا نموذجا جميلا للمدينة الصغيرة، مخططة تخطيطا جيدا والشوارع منسقة، والبحيرة يحوطها كورنيش جميل، وبها عدة فنادق علي المستوي العالمي، وكافة الاحتياجات التي تطلبها الأسرة متوافرة في الأسواق وبكثرة، وتصل أبيدجان من باريس يوميا في الصباح المبكر طائرتان للشحن يمتلآن بكل متطلبات الحياة، بل وأسباب الرفاهية، وكنا نشعر بالغيظ ونحن نشتري ما نحتاجه من «السوبر ماركت»، ونجد البضاعة المشتراة ملصق عليها بطاقة عليها سعر البيع للمستهلك الفرنسي بالفرنك الفرنسي، وبجوارها تماما دون محاولة إخفائها بطاقة أخري بالسعر المطلوب من المستهلك المحلي بالعملة المحلية، وبحسبة بسيطة نجد أن السعر قد تضاعف، وذلك إرضاء لجشع التجار الذي يحتمون باقتصاديات السوق الحر.

سعدنا أن وجدنا في أبيدجان عدة دور للسينما ذات مستوي مرتفع، مكيفة الهواء وتعرض أولا بأول أحدث الأفلام الفرنسية، بل كانوا يتعمدون - من باب الدعاية - عرض أفلام فرنسية هامة قبل عرضها في باريس، وكنا نفرح حين تصل أبيدجان كل فترة معقولة فرقة «الكوميدي فرانسيز» التي تقدم فنها الرائع، وتشعر الإنسان أنه مازال علي صلة بالعالم المثقف. ومن أجمل ما حبب أبيدجان لقلوبنا وجود مكتبتين كبيرتين بهما كل ما نأمله من الكتب الفرنسية والانجليزية بالاضافة للمجلات والدوريات العالمية. وكانت متعة كبري أن نجلس علي الكراسي المريحة في جو مكيف لنمارس هواية الاطلاع علي بعض الكتب، وتقليب صفحاتها ثم نخرج في النهاية وقد اشتري كل منا - زوجتي وأنا - عدة كتب تكون لنا خير رفيق في المنزل. لكل هذه المزايا عرفت أبيدجان بأنها «باريس الصغيرة».

هذا هو الجانب الجميل من أبيدجان، ولكن الأمر كله ليس بهذا الإشراق، فسرعان ما عرفنا أننا في أمان وسلام طالما كان الجو مكيفا، سواء بالسفارة أو المنزل أو السيارة، أما العيش في الجو الطبيعي فهو مواجهة للحرارة اللافحة التي تشد من أزرها رطوبة مرتفعة تشعرك أنه من العبث أن تتنفس، لأن مجهوداتك ستذهب سدي وأنت تحاول أن تمد رئتك المسكينة بقدر معقول من الاكسجين. وأذكر واقعة حدثت لنا، فقد توجهت ومعي زوجتي لأمر علي طبيب الاسنان، وكانت

عيادته في المركز التجاري للمدينة، ورأت زوجتي أن تقضي الفترة التي سيستغرقها العلاج في «الفرجة» علي النوافذ الزجاجية للمحلات بكل ما فيها من إغراءات آخر صيحات المودة الفرنسية. وبدأت الآلات الطبية تدور في فمي بصوتها الذي لا نحبه جميعا، وفجأة فتحت الممرضة باب الغرفة، ودخلت مندفعة ومعها زوجتي وهي في حالة إعياء تام، وارتمت علي الكرسي وأسرع الطبيب لإسعافها وتركني بفمي المفتوح والعمل لم ينته بعد. وتبين أن جمال المعروضات قد أغري زوجتي، فمكثت تنظر الي واجهات المحلات وهي غير منتبهة لأشعة الشمس المباشرة المسلطة عليها والتي تصحبها رطوبة مرتفعة، حتي شعرت فجأة ببوادر الإنهيار فأسرعت إلينا طلبا للعون.

ومأزق آخر كان علينا أن نتعايش معه، فنظرا لوجود «كوت دي إيفوار» علي خط الاستواء، فإنها تتميز بهطول الأمطار طوال العام، والأمطار هناك لا تسقط كرذاذ، أو حتي كالمطر الذي نعرفه، لا، بل هو ستارة حقيقية من المطر تشكل ما يشبه الشلال غير المحدود الذي يتساقط ماؤه في عنف وقوة واستمرارية هادرة. ونتيجة لهذا المطر تتواجد دائما بقايا المياه بكثرة في المدينة مما يساعد علي انتشار البعوض اللعين، ولو كان الأمر مقصورا علي قرصة الناموس أو حتي مجموعة كاملة من القرصات بما يتبعها من التهاب وألم لهان الأمر، ولقبلنا هذا البلاء، أما أن تكون الملاريا منتشرة وبحالة وبائية في البلد، ومن الصعب مقاومة البعوضة التي تنقل هذا المرض، فقد وجدنا أنفسنا أمام الحل الإجباري الذي نصحنا به كل الأطباء والأصدقاء، فلابد من تناول الحبوب التي تعطي المناعة ضد الملاريا بمعدل قرص واحد يوميا مع الافطار، وهذا مايتبعه كل الأجانب المقيمين، ورضينا «بالهم»، وبدأنا نتناول قرص الدواء يوميا، وما لبثنا بعد فترة أن تأكد لنا صدق مارده الأصحاب، من أن هذا الدواء «النيفاكين» له آثار جانبية تظهر بعد فترة، أهمها تأثر حاسة السمع سلبيا، وكانت فرصة ذهبية لنا لكي ننضم الي مجموعة المصابين بضعف السمع سواء حقيقية أو إدعاء وبذلك نهرب من أسئلة لا داعي لها، وللأسف فإن هذه الحيلة لا تصلح مع الزوجات، وخاصة عند حلول موسم «الأوكازيون».

أما ونحن نتحدث عن الملاريا، فلا يفوتني أن أتذكر وأنا ابتسم، زميلا لي بالسفارة يتمتع بجسم ضخم، ومعلومات طبية مشكوك في صحتها، ولكنه يعلم تماما بانتشار الملاريا ومخاطرها، وأن لها ما يحمي من آثارها وهو تعاطي قرص الدواء يوميا كإجراء وقائي، إلا أن الزميل كان ينظر للموضوع نظرة أخري، فقد كان يري من العيب أنه بضخامة جسمه يخاف من البعوضة بحجمها التافه، ولم يقبل أن يستسلم كما فعلنا ويبادر باتخاذ الوسائل الدفاعية ضد هذه الناموسة التافهة، ويفاجأ الزميل بحرارة تبلغ الأربعين درجة وبرعشة عنيفة لا ينساها من جربها، ونسرع له بالطبيب المداوي ليعطيه عدة حقن دوائية بطريقة مركزة، يتبعها علاج مجهد لمريض الملاريا وبعد الشفاء نظن أن الزميل قد مر بتجربة تكفي لأن يؤمن بالعلم، وبأن الوقاية خير من العلاج، ولكنه سرعان ما يرجع لعادته رافضا تناول القرص الوقائي مستهترا مرة أخري بهذه البعوضة الحقيرة، ولا تمضي شهور حتي يسقط صريع الملاريا مرة أخري، وتتكرر الأحداث بنفس التفاصيل، وتفكيره العنيد لا يتغير حتي تنتهي

هذه المشكلة «الحربية» بانتهاء فترة خدمته في أبيدجان والعودة للقاهرة.

ومشكلة أخري علمنا بها – فور وصولنا – من نصيحة الأصدقاء وهي ألا نرتدي أي ملابس إلا إذا مرت عليها المكواة الساخنة عدة مرات وبدقة شديدة، وأن نعتبر المكوجي هو أهم شخصية في المنزل ونتابع أسلوبه في أداء عمله. وتبين صحة هذه المعلومات، فهناك ذبابة معينة تقف علي الملابس أو الملاءات والفوط عند نشرها، وتفرز بعض مخلفاتها، هذه المخلفات أو البويضات إذا مرت عليها المكواة الساخنة قتلتها وانعدم ضررها، أما إذا ارتديت الملابس بدون كي أو تم المرور عليها بمكواة غير ساخنة، فتخرج من هذه البويضة دودة دقيقة للغاية تخترق الجلد علي مسافة بسيطة من السطح، ولا تلبث هذه الدودة أن تكبر – وهي تحت الجلد – حتي يري حجمها الكبير نسبيا بالعين المجردة، ويحتاج من يصاب بها الي مشرط معقم لفتح مكان الإصابة واستخراج الدودة ثم تطهير مكان الجرح تطهيرا جيدا.

وهكذا كنا حقيقة نستمتع بكل ما في أبيدجان من وسائل المعيشة والثقافة الممتازة، ولكننا نتعايش في نفس الوقت مع أمثال هذه المشاكل والمآزق.

٢– الرعب ليلا :

يقوم بأعمال حراسة السفارات والمنشآت الهامة والمنازل أفراد أفريقيون سواء من رعايا «كوت دي إيفوار» أو من الدول الأفريقية المجاورة. وقد تبينا أن رعايا كل دولة يتجمعون في إحدي المناطق ويتولون جميع أنواع الحراسات، ولا يلبث الغريب الذي يدخل منطقتهم أن يواجه برفض وجوده ويضطر مجبرا أن يبحث له عن مكان آخر للعمل، وكثيرا ما كنا نجد الحارس المعين علي منزلنا جالسا مع أحد أصدقائه، وعندما نسأله عن الضيف يجيبنا قائلا «أنه شقيقه» "Mon Frère"، ويتكرر الأشخاص وتتكرر الإجابة بذاتها واعتقدنا أن الحارس يقدم لنا هذا الرد ليطمئننا، فليس من المعقول أن يكون له كل هؤلاء الأخوة مهما تعدد الأب أو تغيرت الأم، وواجهته مرة بشكوكي في إجابته، فقدم لي درسا لا أنساه ذكرني بقريتنا المصرية في الزمن الجميل الذي مضي، أخبرني أنهم في قريتهم التي ولد بها، ينشأ الأطفال جميعا في «حوش القرية» ويقدم لهم الطعام سويا، ومن حق أي طفل أن يدخل أي منزل ويأكل، ولا تفرقة في المعاملة من الكبار لأي طفل سواء أكان الابن الحقيقي أم زميلا له. وكان الأطفال من كل جيل يتربون سويا وينادون بعضهم البعض بيا «أخي»، ويكبرون، وكل منهم يعتبر باقي المجموعة أخوة له يتعاونون معا في السراء والضراء، ويحاولون إيجاد فرص العمل لكل المجموعة.

ولاحظت أن الحارس إذا سار ليلا حمل معه «الماشيت» وهو سلاح يشبه السيف الصغير، يقطعون به الأشجار، ويقتلون به الحيوانات، وتساءلت عن السبب لأكتشف أمرا يثير الرعدة في النفوس.

فرغم أن الأمن مستتب في المدينة، إلا أنه في بعض الانحاء المتطرفة والبعيدة عن العمران، يفضل عدم السير علي انفراد، ولذلك قصة غريبة تتعلق بالخرافات والمعتقدات الأفريقية القديمة. فيقال أنه عند وفاة زعيم ورغبة في إكرامه، وحتي تهدأ روحه في مرقدها، يدفن معه عدة رؤوس لآدميين قتلوا حديثا، ولذلك ينتشر أعوان المتوفي فورا لاصطياد بعض الضحايا، والحصول علي رؤوسهم لتدفن مع الزعيم. ولهذا فإنه – كما قيل لنا – من أخطر ما يتعرض له الإنسان ليلا، أن يقابل شخصا يحمل «الماشيت»، أما إذا كان يحمل «الماشيت» ومعه «جوال» سواء أكان فارغا أم به بعض المحتويات فهنا الخطر محدق فعلا، وخاصة لو أن هناك شخصية مهمة قد توفيت في وقت معاصر. ومن النوادر المطمئنة أنه قيل لنا ألا نخشي مواجهة هذا الخطر، وذلك لسبب غريب لم يخطر علي بالنا، وهو أن رؤوس الأشخاص «البيض» لا تصلح لهذه المهمة، وإنما المطلوب رؤوس أفريقية أصيلة، ولعل الاستعمار هو الذي أوصي بهذه التفرقة العنصرية بين الرؤوس المقطوعة طلبا لسلامة المستعمر الأبيض.

٧٧كان لموقف مصر السياسي برئاسة المرحوم الرئيس السادات الأثر الطيب في علاقاتنا السياسية، وأتيح للسفارة المصرية أن تعزز مجهوداتها في «كوت دي إيفوار» لتواكب هذا النشاط السياسي. ولعل فلسفة مصر في هذه الحقبة، وتبني نظرية السلام القائم علي العدل والحق ونبذ الحروب، والتخاطب مع الدول الأفريقية بمودة وطلب الدعم الديبلوماسي دون تعال، كل ذلك جعل الأبواب المغلقة تفتح أمام مجهوداتنا. وكان من توفيق الصدف أنه تكرر في أكثر من مناسبة اجتماعية أن يكون من يجاورني سكرتير عام وزارة الخارجية، وكان قبل حضوره لأبيدجان، سفيرا لبلده في لندن. وهو سفير مثقف، ذور خبرة وشخصية اجتماعية ممتازة. وكان لهذه اللقاءات غير الرسمية أثرها في حدوث تقارب وود متبادل بيننا. وبعد وصولي بادلتنا «كوت دي إيفوار» تقديرا بتقدير، وعينت – لأول مرة – سفيرا لها في مصر، واختارت شخصية مرموقة، لهذه المنصب. وكان السفير جيراندو يمثل «كوت دي إيفوار» في اللجنة الأولمبية الدولية، وله تاريخه الرياضي المشرف علي المستوي الدولي. وقد رشحه مركزه الأدبي، ورشاقته الرياضية ليحمل العلم الأولمبي في بداية عرض الفرق المشتركة في الدورة الأولمبية التي أقيمت منذ سنوات في «لوس إنجلوس».

وقبل سفره للقاهرة، ووفقا للعادة المتبعة، فقد طلب موعدا لمقابلتي ليتعرف علي، ولنتعاون سويا علي حل المشاكل المشتركة بين بلدينا. وتم تحديد الموعد بمبني السفارة وكان في الساعة الحادية عشرة صباح يوم لا ينسي. وتوجهت للسفارة في الصباح كالمعتاد، وبدأت في فحص البريد، وصادفت مظروفا من وزارة خارجية «كوت دي إيفوار» لم يلفت انتباهي، حيث أعتدنا تلقي الكثير من المذكرات من الوزارة، وأغلبها يتضمن إخطارات بتنقلات وتعيينات بها، أو تنظيمات بروتوكولية تخطر بها السفارات، وبهدوء بدأت أقرأ المذكرة المكتوبة باللغة الفرنسية، ووجدتها كالمعتاد تبدأ بالعبارات التقليدية التي تكتب في كل المذكرات وهي أن لوزارة الخارجية الشرف بان تخطرنا..... «باحتجاجها» علي ما قام به السيد مستشار السفارة، وذكرت إحدي الوقائع. وأصابني الذهول لورود كلمة

«الاحتجاج» وهو شئ لو تعلمون عظيم في وزارات الخارجية. وتذكرت أن إجراء رفع مستوي العلاقات بين البلدين ليصبح علي مستوي سفارة قد احتاج الي مجهودات سياسية ودبلوماسية مكثفة، وقامت السفارة بممارسة اختصاصها الكامل منذ فترة قصيرة، وقد بدأت الاتصالات والأنشطة تؤتي بعض ثمارها، والآن أفاجأ باحتجاج ويضيع كل هذا المجهود في لحظات، وسألت المستشار عن الواقعة المنوه عنها فلم ينفها، وشرح أنه كان بصدد جمع معلومات عن مشروع اقتصادي معين، وفي مقابلة رسمية مع مدير مكتب وزير السياحة حميت بينهما المناقشة، وردد المستشار كلمة تعني أن الطرف الآخر «لايفهم شيئا» ردا علي ألفاظ صدرت من الآخر. أما وزارة الخارجية فقد ترجمت المقابلة علي أنها محاولة للتدخل في الشئون الداخلية لهم مع محاولة الاساءة الي دولة صديقة للدولة المضيفة. ورأيت أن انتظر زيارة زميلي الذي سيحضر بعد ساعة لأتلمس عنده أي معلومات إضافية تساعدني علي فهم مايجري.

حضر السفير الزميل وتبادلنا التحية، وبدأ يتحدث عن بعض المشاكل التي يتوقع مواجهتها بالقاهرة سواء علي المستوي الشخصي أو الرسمي، ويسألني النصيحة، وأجبته بأدب جم ولكن بجدية بأنني سعدت بزيارته ولكنني لا أستطيع تركيز فكري معه حيث تشغل بالي مذكرة الاحتجاج التي وصلتني منذ ساعة. وفوجئت بأنه لا علم له بالمذكرة ولا بملابساتها، وأطلعته عليها معلقا أنه إذا كنا – هو وأنا – سنبدأ عملنا الذي يهدف الي التعاون وبناء جسور الثقة بين بلدينا بمذكرة احتجاج، فإنها بداية لا تبشر بالخير إطلاقا، بل تدعو للتساؤل عما إذا كانت هناك رغبة حقيقية من جانبهم لرفع درجة التمثيل الدبلوماسي، أم أنها كانت خطوة أملتها ضرورات السياسة، وعند أول بادرة ظهر التيار المعاكس لوضع العراقيل في طريق تنمية العلاقات الثنائية. وأفهمته أنني سأعيد تقدير الموقف بناء علي هذه المذكرة، ثم أخطر حكومتي بمقترحاتي. ورجوته – بصفة شخصية – أن يتريث في إعداد ترتيبات السفر للقاهرة حتي تتضح الأمور، ووعدته برد زيارته قريبا، وذهل السفير الرياضي لسرعة تطور الأحداث، وأبدي أسفه لما حدث، ورأيت أن أتريث قليلا قبل أن أتخذ أي خطوة، خاصة وأنني أعلم أن الزميل مستشار السفارة سهل الإثارة، لا يتحكم جيدا في ألفاظه، ويتمتع بغريزة تغريه بالهجوم علي محدثه كما لو كانت المناقشة الكلامية مبارزة حربية.

وتوجهت في المساء لحضور حفل عشاء دبلوماسي، وصادفني الحظ فتقابلت في الحفل مع سكرتير عام وزارة الخارجية، وهو المسئول عن الادارة اليومية للوزارة، وأبلغته بمدي قلقي واستيائي من هذه المذكرة، خاصة وقد راودتني الآمال لتعزيز العلاقات الثنائية وشجعني علي ذلك اللقاءات الإيجابية المثمرة مع كل المسئولين بالبلد، وإذا بي أفاجأ في مستهل عملي بمذكرة احتجاج، وكأن الأمر ينتظر فقط أي فرصة ممكن تلمسها أو اختلاقها، فهدأ من ثورتي ثم صارحني بأنه عقد اجتماعا موسعا بالوزارة أمس، وكانت المشكلة أمامهم هي اختيار أقل الوسائل إيلاما لي – تقديرا لعلاقتي بالجميع – واستبعدوا فكرة استدعائي للوزارة وإبلاغي بما يرونه – وهذا من حقهم – كما استبعدوا فكرة

استدعائي وتسليمي مذكرة الاحتجاج – وهو إجراء سليم بروتوكوليا – كما رفضوا أي تفكير في طلب استبعاد المستشار – لم يكن هذا الإجراء ليمر بسهولة من جانبنا – واتفق رأيهم أن يرسلوا الي الاحتجاج في مذكرة تأخذ طريقها العادي ضمن المذكرات الروتينية الأخري التي ترسل من وزارة الخارجية للسفارة، وأغلبها لا يحوي معلومات هامة وذلك تهوينا من شأنها وحصرا للموضوع في أبسط نطاق ممكن. وشكرته لهذه المجاملة، ولكنني تساءلت أما كان من الأوفق أن يتصل بي لأقوم بزيارته ويخطرني – بصفة شخصية – بالمشكلة وكنت كفيلا بإيجاد الحل المناسب لها وفقا لما يتبين لي بدلا من المذكرة الرسمية؟، وكانت إجابته أن السيد مستشار السفارة قد تمادي في أخطائه، وأنهم تهوينا من شأن المذكرة لم يشاء وا أن يضمنوها كل ما حدث منه في وقائع أخري مع أشخاص مختلفين. وسرد لي بعض ماحدث، وعقب قائلا أن الهدف هو أن يفهم المستشار أن هناك أسلوبا لا يجوز تعديه. وأنهي حديثه برجاء أن اعتبر الموضوع منتهيا، وأن أنساه تماما، وأنه لاداعي مطلقا لأن أرد علي المذكرة – البروتوكول يتطلب الرد – وكرر أن بلده حريصة علي حسن العلاقات وتقويتها فعلا، وعلمت أن السفير جيراندو قد نقل إليه قلقي، وأحسوا باحتمالات رد الفعل، ولذلك حرص السكرتير العام أن يزيل كل أثر محبط لهذه المذكرة، وعدت للسفارة وناقشت المستشار، وسرد لي الموضوعات من وجهة نظره، ثم اتفقنا علي أسلوب عمل آخر واضعين في الاعتبار ماتعلمناه من الدرس السابق.

وعادت سفينة الديبلوماسية تشق طريقها في هذا البحر المتلاطم الزاخر بالمآزق والمشاكل التي لا تنتهي.

٤– هل يجوز بروتوكوليا أن يغمي علي السفير؟

احتفالا بعيد الاستقلال وإعلان الجمهورية بعد انسحاب الاحتلال الفرنسي – مع بقاء القواعد العسكرية – يقام كل عام في كوت دي إيفوار حفل استعراض عسكري كبير، وتنصب سرادقات كثيرة متجاورة في الشارع الرئيسي، ويخصص كل سرادق لمجموعة من الأشخاص وفقا لوظائفهم أو تجمعاتهم. وتمتد السرادقات لمسافات كبيرة، وتقضي قواعد البروتوكول أن يلبس السفراء الحاضرون الرداء القومي، أو بذلة «البونجور»، وهي بذلة كاملة ومعها رباط الرقبة والصديري. وحضر الرئيس في موعده ومر علي السفراء مسلما ثم بدأ طابور العرض بمجموعة كبيرة من الحرس الخاص للرئيس، وهم من أبناء قبيلته «الباولية» ويمشون بخطوات واسعة بطيئة تصاحبها موسيقي أفريقية تعتمد علي دقات الطبول، وينشدون أناشيد الولاء بلهجتهم المحلية، ثم تبدأ فصائل الجيش المرور علي أنغام الموسيقي النحاسية، ونشاهد كل فروع القوات المسلحة الراجلة والراكبة والبحرية. وما نكاد نتنفس الصعداء – تحت هذه الشمس المحرقة لانتهاء عرض القوات المسلحة حتي يبدأ طابور رجال الشرطة من جميع الوحدات بعرباتها ودراجاتها البخارية وكل عربات الإطفاء، ورجال المرور والخيالة، وينتهي طابور الشرطة لنفاجأ بأن الدور علي طلبة المدارس بجميع مستوياتها، ونشاهد رموز المستقبل وزهرات هذا المجتمع يمرون أمامنا، كل طلبة مدرسة معهم المدرسون ويلوحون بأيديهم تحية للجماهير التي تحسن

استقبالهم. ويتبع التلاميذ مجموعات من أعضاء الحزب –الأوحد – ويستمر العرض حوالي الثلاث ساعات، ونحن جلوس لا نملك الحركة أو تغيير وضع العضلات التي أنهكها الثبات في وضع واحد. ويسرح الخاطر هربا من الواقع الذي أعيشه، وأتذكر صورة نشرتها المجلات الأمريكية مع تعليق ساخر، والصورة كانت لحرم السفير في بلد أفريقي وهي تحضر عرضا عسكريا في هذا البلد احتفالا بعيده القومي، ولما كانت حرم السفير حديثة العهد بولادة طفل رضيع، فيبدو أنها خشيت أن تتركه للمربيات في المنزل فأخذته معها للحفل. وحين جاع الطفل وحان موعد رضاعته، نسيت حرم السفيركل شئ إلا أنها أمّ، وأن الرضيع يطالب بحقه، وببساطة أمريكية مذهلة أعطته ثديها في حنان حتي شبع. والتقط المصور هذه اللقطة الغريبة التي نشرت في أمريكا، وأثارت عاصفة من المناقشات بين معارض ومؤيد. والبعض يري أن الوضع الوظيفي لحرم السفير يحتم عليها التقيد بقواعد البروتوكول، والبحث عن حلول بديلة ولا داعي لاصطحاب الطفل للحفل الرسمي، ورأي آخر يمتدحها لأنها لم تنس أنها أم، وأن رسالة الأمومة أجدر بالرعاية من المظاهر البروتوكولية الجوفاء، ولذلك فهي تستحق الثناء لأنها قامت بواجبها بحضور الحفل، وأدت في الوقت نفسه واجبها المقدس كأم ترعي طفلها، وسحقا للإتيكيت وتعقيداته، وأتذكر وأنا استرجع هذه الواقعة أن من يحتل منصب السفير يطلق عليه لقب «السفير» سواء كان رجلا أو سيدة. فيقال السيدة «–» سفير مصر في «–» وليس سفيرة مصر.

تزداد درجة الحرارة ويتضاعف السرحان فأتذكر سفيرات مصر وأولهن الدكتورة عائشة راتب، ثم المرحومة هدي المراسي ثم السفيرة ميرفت التلاوي وكيف أنهن فخر لمصر بكفاءتهن وثقافتهن وأدائهن الرسالة الديبلوماسية كأنجح ما تكون. ثم أعود الي دنيا الواقع مرة أخري، لأشعر بآلام العضلات وقد تزايدت في هذه الجلسة غير المريحة والشمس وقد تحالفت مع الرطوبة ليعزفا سويا هذه المعزوفة الحرارية التي أوصلتنا جميعا الي حالة من حالات «ضربة الشمس» نتحملها في صبر ومقاومة احتراما للظروف الرسمية المحيطة بنا. وفجأة سمعنا خلفنا صوت ارتطام واصطدام كراسي، وحدث هرج – غير بروتوكولي أبدا – وتبين أن سعادة سفير كندا، وقد وصل حديثا من بلده كان يتابع الحفل، ويبدو أن معاناته قد وصلت به الي حد الإغماء. وبدأت سارينات عربات الاسعاف التي أستدعيت علي عجل تساهم في هذه الضوضاء التي تحدثها الموسيقات العسكرية، ثم توقفت أمامنا ودخلوا السرادق المخصص لرجال السلك الديبلوماسي، وانصرف الجميع عن متابعة العرض العسكري، ليتابعوا رجال الإسعاف وهم يحملون السفير – ببذلة البونجور – علي الحامل المتحرك، ويضعونه في السيارة، وتتحرك سيارات الاسعاف مرة ثانية تسابق المدرعات التي تمر بالعرض، وكافة القوات تفسح لها الطريق.

ومكث السفير للعلاج بالمستشفي، أما باقي أصحاب السعادة السفراء فقد عاد كل منهم بعد انتهاء العرض ليستدعي الطبيب لينقذه من آثار ضربة الشمس التي أصيب بها. وعندما تقابلنا – مجموعة السفراء – بعد ذلك تبادلنا التهاني لبقائنا علي قيد الحياة، وروي كل منا تفاصيل ما عاناه، ورغم ذلك فإن البروتوكول هو البروتوكول، والواجب هو الواجب، ولذلك اختتمنا الحديث قائلين «والي اللقاء في احتفال العام القادم إن شاء الله».

٥- سائق سيارة سفارة مصر منقذ السفراء :

بمناسبة زفاف ابنة اخت الرئيس، وكانت بمثابة ابنته أقيم احتفال في «ياما سوكرو» وهي قرية الرئيس، وقد أعيد تخطيطها، وامتدت فيها الشوارع العريضة، والميادين الفسيحة، وأقيم بها فروع كبيرة لكل وزارات الحكومة، كما ازدهرت بها فنادق ممتازة. ونشطت السياحة إليها، وكل هذه المنشآت قد أقيمت حتي يسهل تنفيذ الخطة لنقل العاصمة إليها. وركبنا السيارات لمدة ساعتين تقريبا من أبيدجان العاصمة حتي نصل الي فندقنا في «ياما سوكرو»، وفي المساء توجهنا بالسيارة للحفل الذي أقيم في سرادق كبير في الهواء الطلق. وكان النظام مستتبا، ونجح رجال البروتوكول في ضمان حسن استقبال رجال السلك الديبلوماسي وكافة المدعوين.

وقد أعد في مكان قريب للسرادق مساحة متسعة لانتظار سيارات الضيوف، وخيمة لاستراحة السائقين، وكعادة شعوب «الفرانكفون» - أي التي خضعت للاستعمار الفرنسي - فقد قدم لنا العشاء الفاخر مع أرقي أنواع الشمبانيا والأنبذة. ونتيجة للبذخ الشديد في هذا الحفل السعيد بقيت كميات كبيرة من المأكولات والمشروبات لم تمس. وعلمنا فيما بعد أنه قد تمت اتفاقات جانبية - وفقا للمبدأ السياسي بتبادل المصالح - بين من يخدمون في الحفل بداخل السرادق، وبين السائقين بالخارج لتسريب هذه الكميات الزائدة من الأطعمة والمشروبات من ثغرة تم إعدادها بالسرادق بعد اختيار موقعها الاستراتيجي، لتصل الي السادة السائقين الأفاضل، واستمتع السائقون بالحفل استمتاعا يفوق استمتاع راكبي السيارات الذين تحكمهم قواعد البروتوكول وآداب المأكل والمشرب في كل سلوكياتهم. وانتهي الحفل الرائع بعروضه الأفريقية الخلابة.

خرجنا - زوجتي وأنا - وبصحبتنا سفير هولندا وحرمه، ليبحث كل منا عن سيارته في مدخل السرادق، وفوجئنا بزملائنا الذين سبقونا في الخروج وقد بدت علي وجوهم علامات القلق، فقد اكتشفوا أن السائقين عندما علموا بانتهاء الحفل، تسابقوا للوصول بسياراتهم للمدخل، وتصادمت السيارات وحدثت تلفيات بسيطة لعدد لا بأس به من السيارات الديبلوماسية. ولكن الأدهي من ذلك أن السفراء قد اكتشفوا أن أغلب السائقين قد أفرط في الشراب - الممتاز والمجاني - بحيث أصبح غير قادر علي السيطرة علي السيارة، وبالتالي كان الركوب معهم مخاطرة معروفاً نتائجها مقدما. واكتشف عدد آخر من السفراء أن سائقيهم يغطون في نوم عميق في كرسي السيارة الخلفي، ورائحة الكحول تملأ المكان. وكانت ورطة حقيقية لعدد كبير من الزملاء، وحضر إلينا سائق سيارتنا «علي» وهو يضحك من قلبه ببساطة أفريقية كلها براءة وانفعال، ويدعونا الي ركوب السيارة، وسألته عما يحدث فأجابني بأن أغلب زملائه لم يستطع أن يقاوم الغنائم التي وصلتهم وأفرطوا في الطعام والشراب، ونام البعض وتصادم الآخرون، وانزعج السفراء وهم يلاحظون تطوح السائقين وعدم اتزانهم فعدلوا عن ركوب السيارة، وبذلك أصبح عدد كبيرمنهم في ورطة حقيقية وقد تقدم الليل والمسافة طويلة بين السرداق والفندق، وهنا ظهر المنقذ - سائقنا علي - الذي لا يقرب الخمر، وبدأت سيارة

مصر تقوم بعدة رحلات ذهابا وعودة، وتشحن كل مرة بأكبر عدد من السفراء وزوجاتهم. وعند عودتنا لأبيدجان في اليوم التالي كان اسم «علي» قد أصبح نارا علي علم، وأطلق عليه «منقذ السفراء ليلا».

٦- التسمم الديبلوماسي :

من أبرز ما يميز المجتمع فى «كوت دي إيفوار» هو النشاط الذي تقوم به السفارات الأجنبية بالعاصمة، والحفلات التي تقام إما بمناسبة العيد القومي لكل بلد، أو بمناسبة وصول ضيف كريم، أو حفلات العشاء الصغيرة التي تقتصر علي الأصدقاء وكبار المسئولين. ونظرا لتكرار هذه الحفلات، فقد كنا نحفظ ونتندر ببعض ما نتوقع حدوثه، ففي كل تجمع كانت المناقشات تدور حول آخر من سيصل الحفل، هل هو سفير «-» وزوجته الجميلة؟ أم سفير «-» وحرمه الرائعة؟ وكان الجزء المؤكد أن واحدة من هاتين السيدتين هي التي ستكون آخر الوصول للحفل. وكانت الزوجتان مثالا للاهتمام بالأناقة في كل شئ، وتنجحان دائما في لفت الأنظار بل وإبهار الحضور، ثم ثمة سؤال آخر يتردد وهو هل سيحضر السيد «-» وهو يتطوح من الشراب؟ أم سيترك مجالا لما سيتناوله من مشروبات في الحفل؟ أما أصعب الأسئلة والتي من المتعذر تخمين الاجابة عليه فهو أي زوجة سيحضرها معه اليوم سفير «-»؟، فقد أحضر معه لأبيدجان زوجتين تتبادلان الحضور معه في الحفلات، أما باقي الزوجات فتركهن في الوطن. وكانت خلافات الزوجتين هي محور الحكايات الحلوة والنميمة التي تستمتع بها زوجات السفراء. ودائما أبدا فإن الزوجتين لاتترددان في رواية كل الخلافات بالطريقة الأفريقية التي تتعرض وتشرح كل تفاصيل الحياة ببساطة ودون حرج، وتحكي كل منهما كيف أن غريمتها تحاول احتلال قلب الزوج وطردها بكل الطرق - وتبين تفصيليا هذه الطرق - وتدخل في الحكايات وسائل استخدام السحر والجان، كل ذلك بأسلوب يستحوذ علي آذان وعقول السامعات، ويصبح مادة لحكايات فكاهية تستمر حتي الحفل القادم الذي - قطعا - سيحمل أخبارا جديدة في هذا المسلسل.

أما مكمن الخطورة الذي يعمل له كل منا حسابا جادا، فهي الحفلات التي يقيمها سفير «-»، فقد كان يقيم وحده، وتقيم زوجته بصفة شبه دائمة في عاصمة بلاده، والاشراف منعدم علي المطبخ أو ما يقدم بالحفل. وكان من أبسط المشاكل الهينة التي نتعرض لها هو تقديم «الايس كريم» لنا، وقد تحول الي سائل يصعب اصطياده بالملعقة، وذلك نظرا لتركه خارج الثلاجة قبل تقديمه للضيوف، ويتكفل مناخ أبيدجان بتحقيق نظرية إمكان تحول «الجامد الي سائل». وتعلمنا جميعا ألا نقترب من أطباق الجمبري أو السمك التي تقدم لنا في هذه السفارة مهما بلغ إغراؤها والتجارب التي مرت بزملاء لنا وتسببت في إسعافهم بالمستشفات كانت خير درس لنا، وكنا عادة اذا اجتمعنا في اليوم التالي في مناسبة بروتوكولية نتساءل عن ضحية ما أطلقنا عليه «التسمم الديبلوماسيش.

٧- الحفلات الديبلوماسية ومفاجآتها :

تحتفل كل سفارة بعيدها القومي، تدعو إليه كبار المسئولين بالاضافة الي الديبلوماسيين، وكبار رجال الأعمال ومن تربطهم بالسفارة علاقات صداقة أو عمل. وتتفنن السفارات في هذا اليوم لإضفاء طابع خاص علي الحفل، فنجد بعض السفارات العربية واللاتينية وقد أنفقت ببذخ يكاد يبلغ حد السفه، وقامت بدعوة أعداد كبيرة - بدون تمييز - ويمارس الكثيرون عمليات الانقضاض والتزاحم لإلتهام كل ما تصل إليه أيديهم بطريقة تهدم كل ما هدف إليه صاحب الحفل من إعطاء صورة طيبة لبلده.

ولنبدأ بالصورة الأولي وهي حفل سفارة (-) فقد تزوج السفير الكهل من سيدة جميلة غاية في الأناقة تعتقد أن من حقها علي الجميع أن تكون مركز الاهتمام في أي مكان تحل به، وتعتنق مبدأ الإبهار وجذب الأبصار، وكانت تنجح تماما في تنفيذ مخططها. واقترب موعد حفل العيد القومي لهذا البلد، وكان هو الاحتفال الأول الذي سيقيمه السيد السفير وحرمه وذلك في أجمل قصر يقيمون فيه في أبيدجان.

وبدأ مجتمع أبيدجان الديبلوماسي في تخمين ماذا ستعمله سعادة السفيرة «النغنوغة» لاخراج هذا الحفل بعقليتها الاستعراضية، وفي اليوم الموعود توجهنا للحفل وإذا بنا نفاجأ بإخراج يليق بفيلم سينمائي. القصر الذي أقيم به الحفل يتوسط حديقة واسعة، وتدخل السيارة من بوابة رائعة، ثم تسير في طريق داخلي طويل تحوطه الحدائق والزهور حتي تصل الي جزء من الحديقة أقيم فيه سرادق الحفل. والجديد في الاخراج الذي علمنا تفاصيله فيما بعد، هو أن الزوجة صاحبة الابتكارات، قد كلفت من يشتري لها كل الموجود في ساحل العاج من ثمار «البابايا»، وهي تشبه ثمار المانجو لكن بدون نواة، وحجمها كبير. وتقسم الثمرة الي قسمين وتخلي البذور الصغيرة، ويملأ كل قسم بنوع معين من الزيوت - قابل للاشتعال - ونثرت هذه القناديل الطبيعية المشتعلة على مسافات متقاربة علي الطريق الذي تخترقه السيارة - حوالي ٥٠٠ متر - محددة اتجاه السير، كما تناثر عدد كبير للغاية من هذه الزينات المنيرة في كافة أنحاء الحديقة المترامية الأطراف، بحيث بدا القصر وحديقته وهو يتلألأ بالأنوار المتناثرة بطريقة مبتكرة مبهرة، ودخلنا الي السرادق الذي اختيرت ألوانه الأفريقية المبهجة ليكون لوحة جمالية، لنجد الموائد والكراسي وقد صفت ووضع عليها أجمل المفارش والأطباق وأدوات المائدة، وزينت كل مائدة بمجموعة رائعة من الزهور. واستمتعنا بكرم سعادة السفيرة وحفاوة ترحيبها، وكان حفلا رائعا بمعني الكلمة وقد اختارت ونفذت كل تفاصيله بعناية فائقة. ونجحت السفيرة في إحداث صدمة الانبهار عند الجميع، أما السيدات المدعوات فقد بدأن في «النميمة» خلال الحفل، واستمرت تعليقاتهن لمدة طويلة عما تكلفه الحفل، وثمن هذه الكميات الهائلة من الفاكهة التي استخدمت في الاضاءة، وتكاليف السرادق، ثم ماتقاضاه أفخم فندق في المدينة ليقدم هذا الحفل بكل احتياجاته من سرادقات ومهمات وأطعمة، حتي تتجنب سعادة السفيرة بذل أي مجهود قد يتعارض مع الأناقة

المطلوبة، وينهين هذا الحديث بمشاعر التعاطف والاشفاق علي هذا الزوج الذي تنفق أمواله بهذا البذخ الشديد.

أما الصورة الثانية فهي حفل العيد القومي الذي أقامته سفارة لبنان في حديقة دار السكني، ودعت إليه المجموعة المعتادة من المسئولين ورجال السلك الديبلوماسي، وأضافت للمدعوين رجال الاعمال اللبنانيين، وكبار رجال الجالية، ونصب أصحاب المطاعم اللبنانية أدواتهم ومهماتهم في الحديقة في أكشاك صغيرة وقدموا المأكولات الوطنية اللبنانية. وكان الإقبال شديدا علي «الشاورمة» وعندما بدأ المدعوون بعد فترة في الانصراف وخضعنا للعادة العربية – التي لا منطق لها – بالبقاء مع زميلنا العربي حتي بعد خروج المدعوين. وكان السفير اللبناني وحرمه يستمتعان بالتهاني التي تتوالي لنجاح حفلهم، وإذا بالسفير العربي «–» بابيدجان – وقد وصل حديثا – يتقدم اليّ متسائلا عما إذا كنت أقبل أن يدفعه مستشار سفارة مصر بيده بطريقة مهينة ليقدم عليه سفير تونس–؟ وكانت العلاقات بين بلديهما تمر بحالة من التوتر – فاستغربت أن يحدث ذلك واستمهلته حتي أعرف التفاصيل.

عدت للحديقة حيث وجدت المستشار، وكانت إجابته نموذجا لعدم التوفيق الذي لا يفترق عن صاحبه، فقد تعرف المستشار المصري علي السفير التونسي – الذي قدم حديثا هو الآخر – ورغب السفير التونسي في تذوق «الشاورمة» وتقدما الي الكشك، ووجد المستشار المصري أمامه شخصا ينتظر فأزاحه قليلا – بأدب – ليفسح الطريق لسعادة السفير ليكون في مقدمة المنتظرين، وكان المستشار يعتقد أن الشخص الذي أزاحه هو مواطن لبناني وبذلك يعتبر من أهل الدار ويفضل عليه الضيوف. ولم يعلم السيد المستشار «الكيّس» وقتها أن الشخص الذي دفعه بيده هو سفير «–»، ولما علم مني بشخصيته أحس بخطئه الكبير وطلب مني السماح له بتقديم اعتذاره، واصطحبته للمجموعة العربية التي تلتف حول المضيف وشرحت للسفير الغاضب سوء الفهم الذي حدث، واعتذر المستشار، وحاولت علي قدر المستطاع إرضاء الزميل، إلا أنه استعاد غضبه وثورته مضيفا أن هذه الإهانة لشخصه كانت متعمدة وأنها لم تقع عليه فقط، بل كانت دولته هي المقصودة بالاهانة، ووجدت أن الأمور تتصاعد بطريقة عصبية مبالغ فيها، فسمحت للمستشار بالانصراف ثم التفت للسفير العصبي مكررا شرح اللبس الذي حدث، وأنه فعل خاطئ، وقد اعتذر المستشار وكررت له بنفسي هذا الاعتذار، ولكنني ذكرت أنه ليس من المنطق ولا من الحكمة إقحام دولته – التي نحمل لها كل احترام – في هذه الواقعة التافهة، ثم تركت له الخيار في أن يفهم ويقبل ما يشاء من التحليلات بعد ذلك. وألقيت بالسلام علي الجميع وانصرفت، وقلبي مع سفير لبنان وقد مر الحفل بسلام حتي كاد يفسده – كالعادة – تصرف عربي صغير.

والصورة الثالثة للعيد القومي المصري :

كنا نحتفل بالعيد القومي دائما في دار السكن، ويتميز بعنصر «الإنتقاء». نختار المدعوين بدقة وتقدم لهم الكميات المعقولة والكافية من المأكولات المختارة جيدا وذات الطابع المصري، مع بعض المشروبات الوطنية كالكركديه والتمر هندي، وأذكر بهذه المناسبة أن إحدي السفيرات المدعوات تقدمت مرة لزوجتي لتخبرها أنها تناولت كأسين من هذا المشروب وتتساءل وقد أعجبها المشروب، هل يشكل خطورة أن تتناول كأسا ثالثة؟، وقبل الاحتفال الأخير لنا، وقد مضت أكثر من أربع سنوات لنا في أبيدجان وكونّا الكثير من الصداقات، ودعيت الي حفل عرس أفريقي لابن زعيم كبير، وعند دخولي من البوابة بدأ «المداح» يذكر إسمي وبلدي ويشيد بهما وبالعلاقات بين البلدين بأسلوب جميل وهو يضرب علي طبلته بعصاه الصغيرة، كل ذلك ذكرني بالفنان الشعبي «أبو دراع» وما ينشده، وعرفت أن المداح يرأس مجموعة متكاملة في فرقته بعضهم يصاحبه بإصدار نغمات علي الطبول الصغيرة والآخرون يسرعون لجمع المعلومات من السائقين وتوصيلها لرئيسهم ليبتكر أغانيه التلقائية مستقبلا بها كبار الضيوف. وكان مظهر هذا التقليد الشعبي الأفريقي أخاذا ويبعث علي الإعجاب والتقدير. وكلفت سائق السيارة بالاتفاق معه لحضور العيد القومى المصري بعد يومين. وحضر صاحبنا وأعوانه وقاموا في حي السفارة – أمام منزلنا – باستعراض كل فنون هذا الفن الشعبي الجميل، وقاموا بتحية كبار المسئولين وكافة السفراء الحاضرين الذين انبهروا بهذه «التقليعة» الأفريقية التي أضفت علي الحفل طابعا خاصا.

٨ – العدد ١٣ عدو البروتوكول :

يقول بعض الظرفاء أن قواعد البروتوكول قد وضعت خصيصا بطريقة معقدة، حتي يشعر الشخص غير الديبلوماسي بالتواضع يغمره، ومركبات النقص كلها تسيطر عليه وهو يتابع الحفل الذي يحضره، ويجد أن كل خطوة لها قاعدة «مقدسة» تحكمها، فالجلوس الي الكراسي تحكمه قواعد الأقدمية، ثم يعلم – وربما لأول مرة – أنه من غير المستحب جلوس سيدتين متجاورتين، بل يجب أن يفصل بينهما رجل من الحضور، ويعلم هذا الانسان البرئ أنه لو حدث خطأ في ترتيب الجلوس، وتقدم سفير علي آخر بناء علي غلطة غير مقصودة، فإن هذا الموقف لن يمر بسهولة، بل قد تتداعي الأحداث وتتفجر المشاكل. وكانت مشكلة سفارة مصر دائما هي البحث عن وسيلة ناجحة للتعامل مع بعض سفارات الدول «الصديقة»، وخاصة السفارات التي لم تنقطع العلاقات الديلوماسية بينهم، إنما يتبادلون الهجوم والاهانة، وكانت عملية أشبه بحل الألغاز والفوازير وكنا نقسم «المجموعة الصديقة» الي مجموعات صغيرة متفاهمة ويستكمل الحفل بباقي الضيوف. وياحبذا لو أرسلت الدعوات لعدد من الحفلات – التي نقيمها في وقت متقارب – في وقت واحد حتي لا يوجد مجال للعتاب أن سفارة مصر قد دعت سفارة وأهملت الأخري، أما إذا حدث المحظور، وقام اشكال بين دولتين في الفترة ما بين إرسال الدعوة وموعد الحفل، وتعذر الفصل بين السفيرين، فمن المؤكد أننا سنشاهد

مسرحية بدائية في كيفية الابتعاد عن «العدو» ومبادلته نظرات حادة لعلها بناء علي تعليمات الحكومات، أو خوفا من ناقلي الأخبار من داخل السفارة. وعادة ما ترسل الدعوات للحفل قبلها بأسبوعين علي الأقل، وتتلقي الاعتذارات ثم يتحدد العدد وترتيب المائدة وفقا لأقدميات من قبلوا الحضور. ولعل هذه الكلمات تبدو سهلة التنفيذ وليس بها ماينبئ بتعقيدات أو أزمات، أما علي أرض الواقع، فهناك الكثير الذي يحدث يوم الحفل. فعلي سبيل المثال المدعون المهذبون الذين صادفتهم أعذار قهرية سيتصلون معتذرين عن الحضور، أما من وصل لزيارتهم ضيوف كالأب أو الأم أو الشقيق، ويعتقدون أن السفارة الداعية سترحب بهم، فإنهم يتصلون للاستئذان في حضورهم إذا كان ذلك ممكنا. وهناك نوع آخر من الضيوف المبجلين يحضر متأخرا قليلا عن الموعد بعد أن حضر كل الضيوف، وينسي أن يعتذر عندما نسأله عن السيدة حرمه التي تم إخطارنا أنها ستكون بصحبته، فيضحك ببساطة وهو يجيب بأنها لم تتمكن من الحضور. وضيف آخر يتميز بالكرم، ويحتضن كرمه بعض الأقارب أو الأصدقاء ويحضرهم معه للحفل دون إخطار السفارة وفي جميع هذه الحالات، لابد من مواجهة الموقف بأعصاب هادئة، وابتسامة ترحيب ديبلوماسية، ونسرع محاولين حل هذا المشكل، فإذا كان الحفل سيقدم الطعام فيه على طريقة «البوفيه» ثم يجلس الضيوف علي موائد متفرقة، فالمشكلة سهل حلها بعملية اضافات وتغييرات سريعة في أماكن الجلوس مع تغيير موضع الكروت التي تحمل الأسماء. أما إذا كان الضيوف سيجلسون جميعا علي مائدة واحدة فهنا الطامة الكبري، ولابد من إعادة دراسة كل خطة الجلوس مع الأخذ في الاعتبار الموقف الجديد نقصا أو زيادة وهو أمر يحتاج الي خبرة كاملة بقواعد البروتوكول والأقدميات.

أما المشكلة العويصة فتتعلق بالاعداد أي الأرقام. وفي سفارة مصر كانت مائدة الطعام تتسع لأربعة عشر شخصا، وكانت هذه المجموعة هي المثالية ليتمكن الجميع من الاستمتاع بالحديث وتبادل المعلومات.

ولكن حدث ما أجبرني علي اضافة جزء للمائدة لتتسع لثمانية عشر فردا. ويرجع هذا التغير الاجباري في سعة المائدة إلي ما واجهته حين دعوت علي العشاء ستة رجال وزوجاتهم، يضاف إليهم الداعي وحرمه ليصبح المجموع أربعة عشر شخصا منهم سفير سويسرا والسيدة حرمه. وتأخر عن بداية الحفل أحد الأصدقاء وحرمه، وقبل الانتقال لغرفة الطعام أشرق علينا بشخصه الكريم وحده، وسألنا عن حرمه المصون وأخبرنا أنها لم تستطع الحضور، وقد نسي أن يتصل بنا تليفونيا لإبلاغ الاعتذار، وهنا اقترب مني سفير صديق وهمس في أذني أن عدد الحضور الآن ثلاثة عشر شخصا، وأنه منذ أيام كان مدعوا علي العشاء عند سفير سويسرا الموجود معنا وحدث نفس هذا الموقف، فما كان من السفير إلا أن استدعي «السفرجي» وأمره بالجلوس علي الكرسي الرابع عشر بدون حراك طوال العشاء. ولعل هذا التشاؤم بالرقم «١٣» في الثقافة الغربية مرجعة الي أنه في العشاء الأخير للمسيح عليه السلام كان الحضور ثلاثة عشر شخصا، ولذلك نجد كثيرا من الفنادق الفاخرة تلغي رقم «١٣» من الأدوار ومن

أزرار المصعد، فنجد الدور «١٢» يتلوه مباشرة «١٤». وكان لابد لي من البحث عن مخرج وبسرعة، ولم تعجبني عملية تعذيب «السفرجي» علي المائدة، خاصة وأن وجوده سيتسبب في إفساد متعة العشاء سويا، واهتديت الي الحل الوحيد فطلبت من زوجتي الانسحاب بهدوء من الحفل، والصعود حيث ينام أبننا الأكبر وعمره إثنا عشر عاما، وإيقاظه ليرتدي بذلته الكاملة وربطة العنق، ويشاركنا الطعام، وهكذا يصل العدد الي أربعة عشر شخصا. وحضر ابني العشاء، وجلس الي جوار حرم سفير أمريكا التي كانت رقيقة للغاية وهي تبادله الحديث في جدية تامة، وتعامله معاملة الند للند، وتحوطه برعايتها واهتمامها، أما باقي الزملاء وزوجاتهم فقد أحاطوا به بعد العشاء يداعبونه، مقدرين له مشاركتهم في الحفل.

أما زوجتي وأنا فقد شكرناه من كل قلوبنا لأنه، أولا أخرجنا من هذا المأزق، وثانيا – وهو الأهم – لأنه أكل السمك الذي قدم له وهو ما كان يرفض تذوقه من قبل.

٩ – الحسد الديبلوماسي :

كنا – زوجتي وأنا – دائما لا نلتفت الي الحسد، ولا نعيره أهمية، نعلم أنه ورد ذكره في القرآن الكريم، ولكننا كنا نستعين بالله ولا نخشي الحسود. واستمر ذلك الي أن مرت بنا في أبيدجان بعض التجارب، ذكرتنا بأن الحسد موجود فعلا وله قوته المؤثرة المدمرة.

الحادث الأول خسرت فيه السفارة كفاءة سكرتيرة فرنسية ممتازة متزوجة من فرنسي عين خبيرا بحكومة كوت دي إيفوار منذ عام، وأعجبها مواعيد عمل سفارة مصر التي تسمح لها برعاية أبنائها. ومضي علي عملها معنا حوالي العام، ومازال أمام زوجها عامان حتي ينتهي عقد عمله بأبيدجان. وذات يوم حضر للسفارة المصرية سفير لدولة صديقة يمثل بلده في عاصمة مجاورة، كما يمثلها كسفير غير مقيم بأبيدجان، وقدم السفير تحياته معبرا عن سعادته بالتواجد في سفارة مصر التي لا تبخل بخدماتها علي الدول الصديقة، واستأذن في أن نقوم بنسخ بعض المذكرات التي سيقدمها لوزارة الخارجية بأبيدجان علي الآلة الكاتبة، واستدعيت السكرتيرة ورجوتها إتمام المطلوب، وبسرعتها وكفاءتها المعتادة أنهت ما طلب منها في زمن قياسي بالنسبة للسفير الزائر، والمعجزة بالنسبة له أن الأوراق خالية تماما من أي أخطاء، وبدأ الزميل في التنويه بمقدرتها ومزاياها العظيمة، ولم يمض يوم علي هذه الوقائع حتي حضرت السكرتيرة دامعة العينين، فلأسباب وظيفية غير متوقعة، صدرت الأوامر لزوجها بالعودة لباريس، وبالتالي فهي تخطرنا آسفة بانقطاعها عن العمل، وكانت في حالة بالغة من الحزن والأسي لأن هذا التطور المفاجئ قد قلب كل خططها الاقتصادية رأسا علي عقب. وسافرت لباريس وبدأت السفارة مهمة البحث عن سكرتيرة جديدة نبدأ في تدريبها من جديد، والي هنا ونحن لم يخطر علي بالنا مطلقا أن نربط بين ما قاله السفير من مديح للسكرتيرة وما أصابها من مشاكل.

ثم حدثت الواقعة الثانية، فقد حضر سعادة السفير المذكور ومعه زوجته لأبيدجان مرة أخري،

ودعوناهم للغداء في منزلنا، ثم تقابلنا مساء في حفل عشاء أقامه رئيس الجمهورية، ويبدو أنني وزوجتي قد تبادلنا حديثا تخللته بعض الضحكات، وما أن تقابلنا مع الضيف الزائر وحرمه – وكانوا علي مائدة أخري – حتي واجهونا بأننا كنا نبدو رغم بعد المسافة عنهم كزوجين حديثي العهد بالزواج إنسجاما وألفة وترفرف عليهما السعادة، ثم كررا كلاما مشابها وضحكنا بمرح لهذه المجاملة الرقيقة. وقبل أن ينتهي الحفل، ودون أن ندري بدأت زوبعة عاتية بيني وبين زوجتي، ووصلنا المنزل والأعصاب ملتهبة، والغضب يسود الموقف بيننا. وبعد فترة استقل خلالها كل منا بإحدي الغرف تفاديا لموجات التصادم المحتملة، عاد الهدوء الي النفوس، وتقابلنا وقد اكتشف كل منا في نفس الوقت أنه لا يوجد سبب واحد لكل هذا التوتر غير المنطقي، وتذكرنا واقعة سعادة السفير مع السكرتيرة والنهاية الحزينة التي تبعتها، ثم استعدنا كلمات الاطراء التي وجهوها لنا، وصحنا كما قال أرشميدس «وجدنا السبب»، وعلمنا أنها العيون الحاسدة، فاستعذنا بالله وقرأنا المعوذتين، وهدأت النفوس، واتخذت قرارا غير ديبلوماسي بالابتعاد عن هذا السفير والسيدة حرمة ونحن نردد «والله خير حافظا».

أما الحادثة الأخري فقد كان بطلها سفير مصري زميل، وقد عين بإحدي العواصم الأفريقية المجاورة لنا. وحضر الي أبيدجان في أجازة لعدة أيام، واستقبلناه استقبالا يليق بزمالته، ودعوته لغداء عندي بالمنزل حضره كل أعضاء السفارة، ودارت الأحاديث هادئة إيجابية، وبعد الغداء تناولنا الشاي سويا، ويبدو أنه كان يعانى من سوء العلاقات بينه وبين أعضاء سفارته، لأنه علق علي تجمعنا منوها بالروح العائلية التي تسود علاقتنا، وأنه يشعر أننا سفارة بلا مشاكل، وكرر هذا المعني كثيرا، ثم حكي بعض النماذج السيئة التي يواجهها في سفارته، وغادرنا علي موعد للقاء في منزل مستشار السفارة للغداء في اليوم التالي. وخلال الحفل ساد الجلسة نفس الجو الملئ بالود بين الجميع، ولم يبخل عليه زميلنا العزيز بنفس الملاحظات، وهو يعدد سوءات زملائه بسفارته، ويشكو لنا ما يلاقيه.

وغادرنا بعد ذلك عائدا الي مقره، أما نحن في أبيدجان، فبعد سفره حدثت لنا الوقائع التالية وأترك للسادة القراء تعليل أسباب حدوثها كلها وفي هذا الوقت بالذات الذي أعقب الزيارة مباشرة. في نفس يوم حفل الغداء عندنا، كنا – زوجتي وأنا – مدعوين لحفل عشاء رسمي أقامه رئيس الجمهورية، وهو حفل ليس من اللائق الاعتذار عنه في اللحظة الأخيرة، وانتهينا من ارتداء ملابسنا، وقبل مغادرتنا المنزل بخمس دقائق وجدنا جميع اللمبات المضاءة تتوهج كما لو كانت مليئة بالمغنسيوم وتحترق مع ضوء مبهر، وتبع ذلك رائحة احتراق كهربائي نفاذ، وانطفأت الأنوار بالمنزل كله. أسرعت بقطع التيار الكهربائي عن المنزل بتحريك المفتاح الرئيسي، واتصلت بإدارة الكهرباء مخطرا بما حدث وراجيا سرعة إرسال المختصين لمعالجة الموقف. وكان لابد لنا من التوجه للحفل وفي الموعد المحدد، فأخذنا الأولاد وأكبرهم لم يبلغ السنوات العشر ليجلسوا في حديقة المنزل مع التنبيه علي الحارس بأنه عند أي بادرة خطر فعليهم أن يخطروا رجال الاطفاء ويغادروا المنزل مع الأطفال فورا، وذهبنا الي الحفل، وقد تركنا قلوبنا وعقولنا وأعصابنا مع الأولاد ونحن نتساءل كل لحظة عما يجري

الآن في المنزل. وما أن حانت لحظة الانصراف حتي كنا من أوائل المغادرين لنصل إلي المنزل ونجد عمال الإصلاح يغيرون الكابل الرئيسي لمنزلنا وهو الوحيد بالمنطقة الذي عاني من أرتفاع قوة التيار الكهربائي فجأة. وبعد انتهاء الاصلاح حمدنا الله لسلامة الأولاد ثم بدأنا في حصر الخسائر، وتبين أن جميع لمبات المنزل قد احترقت، وجميع الثلاجات قد أصابها العطب، وكل أجهزة الراديو والمسجلات وكل الأجهزة الموصلة بالتيار الكهربائي قد احترقت أجزاء من داخلها – ليس مجرد احتراق الفيوز – وقد دهش صاحب محل الإصلاح الذي حملنا له كل هذه المعدات الكهربائية من تعدد التلفيات التي أصابتها، وخاصة وقد انصهرت أجزاء منها وأصبحت غير قابلة للإصلاح، وبروح رياضية تقبلنا هذه الخسائر وقلنا الحمد لله أن الأولاد بخير ولم يصبهم مكروه.

أما ماحدث لزميلنا صاحب دعوة الغداء – وهو يسكن في حي آخر – فقد أبلغته زوجته تليفونيا بالسفارة في اليوم التالي للدعوة باحتراق موتور الثلاجة فجأة، وأنها تخشي من فساد الأطعمة الموجودة بها لارتفاع درجة الحرارة. وحكي الزميل لزوجته ما حدث بمنزلنا، وقامت الزوجة بربط الأحداث، والخسائر التي حدثت عندنا وعندهم، وعلقت كل ذلك علي شماعة الحسد، وخاصة بعد عبارات المديح المتكرر، وضحكت وأنا أسمع هذا التعليق دون أن أعيره اهتماما كبيرا، واستأنفنا العمل، وما هي إلا ساعة حتي سمعت أصواتا مرتفعة بالسفارة، ومالبثت أن تبينت وجود مشادة حامية بين عضوين من أعضاء السفارة يستخدمان أسلوبا لم نعهده من قبل. وتبين لي أن سبب الخلاف تافه لا يستحق كل هذا التوتر. وحانت ساعة انتهاء العمل، وانصرف كل منهم الي بيته مغضبا ثائرا وحكيت لزوجتي ما حدث لثلاجة زميلي، وثورة الغضب التي سيطرت علي السفارة اليوم، فقدمت لي نصيحتها «العلمية» التي عزمت علي تنفيذها فعلا. وفي صباح اليوم التالي حملت معي وأنا متوجه للسفارة المسجل وما هي إلا لحظات من وصولي حتي انبعث صوت المقرئ مرتلا آيات الكتاب الكريم، واستمر ذلك طوال اليوم، وما لبثت النفوس أن هدأت، وعاد السلام الي القلوب ونحن نردد معا «ومن شر حاسد إذا حسد» صدق الله العظيم.

١٠– منحة من السماء :

تقع أبيدجان علي شاطئ المحيط، ويمتد الشاطئ الرملي لمسافات طويلة حول العاصمة، واختار نادي البحر المتوسط – الفرنسي الإدارة –أحد الشواطئ الجميلة ذات المناظر الطبيعية الخلابة ليقيم عليه فندقا رائعاً، وما لبثت المنطقة أن امتلأت بالفنادق والمطاعم وكثر روادها.

وتوجه زميل لنا بالسفارة لهذا الشاطئ ومعه ابنته الجميلة ذات السنوات العشر بعد سفر زوجته ومعها إبنهما الطفل للقاهرة، والرمال نظيفة وجميلة، والماء يجمع لونه بين الأزرق والأخضر في إغراء يصعب مقاومته. وينزل الأب وابنته الي الماء، ويبتعدان لمسافة قصيرة عن الشاطئ، ويشعران بالأمان وهما يقفان علي الأرض مع ملامسة الأقدام للرمال، وعمق الماء يكفي بالكاد «للبلبطة»، فالحذر

واجب في هذا المحيط، خاصة والأب والابنة لا يجيدان السباحة. وتستمتع الطفلة باللعب في الماء، وتتصاعد ضحكاتها الحلوة البريئة، وفجأة تأتي موجة عالية تسحب الرمال من تحت قدميها ليختل توازنها، وتبتعد الموجة بسرعة عن الشاطئ وهي تحمل معها البنت، وأبوها يراها ويقف مذهولا وقد شل تفكيره وهو عاجز عن تقديم أي مساعدة. ويصرخ ويتجمع القوم الذين حوله ويلمحون الرأس يطفو بعيدا في الداخل. ولا يلبث أن يختفي.

ينهار الأب وقد أصبح كل أمله – كما حكي لنا – أن يستعيد جثمان ابنته، وإلا فكيف سيواجه الأم؟ وماذا سيقدم لها؟. ويتجمع الناس حول الأب المنهار، ويقترب من الحشد طفل أفريقي صغير ليقول لهم إن هناك طفلة غريقة رمتها المياه علي مسافة قريبة منهم. ويسرع الجميع وإذا الجسم المسجي علي الرمال في سكون هو للإبنة، ويشاء الله أن يقدم للأب معجزة أخري، فقد تصادف أن كان بين الجمع ثلاثة من الشباب الفرنسي المدرب علي الإنقاذ يكتشفون أن الابنة مازال بها بقية من حياة. وبسرعة خارقة وبروح الفريق المدرب يبدأ إثنان في إجراء عملية التنفس الصناعي مع «قبلة الإنقاذ» – وضع الفم علي الفم مع سد فتحتي الأنف ونفخ الهواء بما فيه من أوكسجين مع ضغط بالكف علي مكان القلب – ويسرع ثالثهم لإحضار السيارة التي يتصادف أن تكون مما يصلح للسير علي الرمال، ويحملون الإبنة في الكرسى الخلفي، ولمسافة أربعين كيلو مترا يتبادل اثنان من الشباب عملية التنفس وتنشيط القلب، والثالث يقود السيارة بسرعة جنونية مع إضاءة كل أنوار السيارة واستخدام «الكلكس» – إشارة الي طلب إفساح الطريق لحالة عاجلة – والأب يجلس في الكرسي الأمامي لا يتمالك نفسه والدموع تتساقط من عينيه وكأنه يشاهد فيلما عبثيا ثقيلا. وفي المستشفي تدخل الإبنة غرفة الانعاش وتمكث ساعات طويلة في غيبوبة، وعندما تعود للوعي يذهل الأطباء المعالجون عندما تثبت الأبحاث عدم تأثر كل أجهزة الطفلة – المخ والقلب – وأنها تعمل بكفاءة تامة. وتخرج الطفلة لمنزلها مرة أخري لتستأنف حياتها العادية.

يبقي السؤال كيف عادت الي الشاطئ ثانية بعد أن اختفت بعيدا عن الأعين بين أمواج المحيط؟ وحتي اليوم لا نعرف جوابا لهذا السؤال، ولكن المؤكد أن جميع من سمع بهذه الحادثة قد أيقن ألا حدود للقدرة الإلهية، وآمنا جميعا أن الأعمار بيد الله، وبالمناسبة فالطفلة إسمها «إيمان» أو السيدة «إيمان» الآن.

١١- كرة القدم المصرية في أبيدجان :

عام ١٩٧٦ وقد حضر الفريق المصري لكرة القدم للناشئين لأداء مباراة مع فريق «كوت دي إيفوار»، واستقبلتهم السفارة، واطمأننا علي كفاءة كل الترتيبات المعدة لهم، وحضرت تدريباتهم في اليوم التالي – السابق للمباراة – وطلبت منهم أن يكونوا نموذجا مشرفا لمصر في الخارج، وقلت لهم إننا نعتبرهم سفراء يؤدون لمصر نفس المهمة التي نقوم بها، ويبدو أنني تماديت في تفاؤلي، ورجوت

رئيس البعثة – بناء علي ما لاحظته في ظروف مشابهة – أن يقوم أفراد الفريق بتغيير الفانلة والشورت فيما بين شوطي المباراة لأن الحرارة الشديدة والعرق، وأرضية الملعب تجعل الملابس عادة ذات منظر كريه لقذارتها. وكم كانت دهشتي عندما علمت أن كل لاعب له «طاقم» واحد للملابس عليه أن يلبسه طوال المباراة مهما بلغت درجة العرق أو الاتساخ.

حضر المباراة في اليوم التالي، وزير الشباب وجلست بجواره في المقصورة، وسعدت عندما وجدت المجموعة المصرية الموجودة في أبيدجان في مكانها الذي حجزته السفارة ومعها أعلام مصر الجميلة، وتتردد بينهم الهتافات الحلوة التي تشعرنا بأننا لم نبتعد كثيرا عن ملاعب القاهرة، ونزلت مع الوزير أرض الملعب لتحية الفريقين، وتبادلت مع أعضاء الفريق المصري بعض كلمات التشجيع لرفع الروح المعنوية، وبدأت المباراة في جو خانق نتيجة للحرارة الشديدة والرطوبة المرتفعة. ويجري أولادنا وراء الكرة التي تتمنع دائما عند الاقتراب من مرمي الخصم. وتتوالي صيحات التشجيع من الجالية المصرية ولكن ينتهي الشوط الأول بلا أهداف للفريقين وبدأ الشوط الثاني ونزل فريقنا وكل لاعب يرتدي «فانلة وشورت» كلها عرق وأقذار – للأسف – وخشيت علي هؤلاء الشباب من الاصابة بالتهاب رئوي وهم بهذه الثياب المبللة، وعجبت للسادة المسئولين وعدم إدراكهم لإحتياج اللاعبين الضروري لملابس كافية عندما يلعبون في مناطق استوائية.

بدأ الجمهور المصري – المحدود – في معاودة التشجيع، ولكن ما لبث صوته أن اختفي، وطويت الأعلام، وشاهدنا لاعبينا وقد خارت قواهم تماما، وكانوا يسيرون في الملعب ولا أقول يجرون وهم يسحبون أقدامهم الثقيلة وقد تقطعت منهم الأنفاس، وأصبحت أقصي أمنياتي ألا يصاب فريقنا بالهزيمة، وأحسست أن الكرسي الذي أجلس عليه يضيق بي، وحزنت لأن الأعلام المصرية التي أعدتها السفارة لمواطنينا قد اختفت حياء وخجلا، وحضرات اللاعبين الذين أسميتهم بالأمس «سفراء مصر» وقد خذلوني. وتملكني الأسف لأن مصر بكل وزنها السياسي وحضارتها العريقة، وبدايتها المبكرة في رياضة كرة القدم بالذات توضع في هذا الموقف الحرج، ويتلاعب الفريق المنافس بلاعبينا. وقبل انتهاء المباراة بدقائق وأمام مرمي الخصم في منطقة الجزاء، وفي كرة مشتركة، تمدد أحد اللاعبين المصريين مدعيا الاصابة، وتلوي علي جنبيه متألما كما لو أن دبابة قد مرت عليه، وأشار الحكم باستكمال اللعب، ولم يحتسبها لعبة خاطئة ولا ضربة جزاء، واستمر اللاعب المصري يتقلب في الملعب، والحكم يمنع دخول الطبيب أو إيقاف اللعب، ثم سارع – وهو الميقاتي الوحيد في أرض الملعب كما علمنا المرحوم محمد لطيف – بإطلاق صفارة نهاية المباراة.

وفي اليوم التالي قرأت في الجرائد المصرية التي وصلتنا وصفا للمباراة تلقوه بالتليفون من إداري البعثة يختلف تماما عما شاهدناه في الملعب من سوء أداء هو قطعا محصلة لإعداد وتدريب فاشلين.

وكنت قد دعوت الفريق وإدارييه الي حفل عشاء يقام في اليوم التالي للمباراة، وفي موعد الحفل حضر اللاعبون والاداريون في الاتوبيس المخصص لانتقالاتهم، ورحبنا بهم في بيت مصر ولم نشأ أن نفسد ليلتهم بالعتاب علي ما فات. ومرت الدقائق ولم يحضر رئيس البعثة ومساعده، وأصبحت الدقائق ساعات، وزاد الطين بلة أن زملاءهم قرروا أنهما ركبا السيارة المخصصة لرئيس البعثة وسارا فعلا خلف الأتوتبيس ليحضروا هذا الحفل. وازداد قلقي فأرسلت أحد الزملاء ليسير بالسيارة في الطريق الموصل من الفندق للمنزل بحثا عن سيارة معطلة، أو لا قدر الله حادث وقع، وعاد الزميل ليخطرني بأنه لم يجد شيئاً، وانشغل الشباب بتناول المشروبات المثلجة حتي أصبح الانتظار غير محتمل بالنسبة للاعبين وللمسئولين عن تقديم الطعام – ساخنا –. ويبدأ اللاعبون في الإقبال علي الطعام المصري الذي أعد خصيصا لهم، وفي منتصف «مباراتهم» وأنا أغلي من القلق والتوتر والخوف علي الغائبين، وتراودني كل الاحتمالات السيئة التي من الممكن أن تكون قد صادفتهم، حضر السادة المسئولان الكبار عن البعثة وأسألهم عن سبب التأخير وأخبرهم عما أصابنا من قلق عليهم من مخاطر الطريق، ويبتسم رئيس البعثة في هدوء قاتل وهو يعرض مبرراته، ويحكي أنه بعد ركوبهم السيارة في طريقهم الينا، سألوا السائق عن امكانية شراء قطعة غيار معينة، فأبلغهم أن المحل الذي يبيعها في طريقهم، فغيروا الاتجاه واشتروا المطلوب ثم شرفونا بالحضور واعتذرا عن التأخير «شوية». وعدت لأتجول بين اللاعبين مرحبا وقد اكتشفت ألا ذنب لهم بعد أن تذكرت بيت الشعر القديم القائل

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقـــص

١٢– الصراخ يتفوق علي التكنولوجيا

إنتشر في العاصمة أبيدجان لبعض الفترات ظاهرة سرقة مساكن السفراء، وغالبا ما تتم هذه السرقات بمساعدة بعض العاملين بداخل المبني، وكانت حرم سفير (–) – وهي الزوجة رقم اثنين – بشبابها وحيويتها تثير الكثير من الغيرة بين زميلاتها، وكانت تميل الي استعراض الامكانات غير المحدودة لسفارة زوجها، فتدعو زميلاتها للركوب معها في سيارة السفارة، وتعود السيدات منبهرات – منذ حوالي العشرين عاما – فقد اتصلت حرم السفير تليفونيا من سيارتها لتنهي أعمالها المعلقة، ثم اتبعت ذلك بالاتصال بزوجها عن طريق جهاز اللاسلكي. وتعود السيدات وقد بدأت كل منهن تنظر للسيارة المخصصة لزوجها شذرا، وتتحدث عن التخلف في متابعة تقدم التكنولوجيا.

أما المنزل الذي تقيم به أسرة السفير، فتحيط به حديقة كبيرة للغاية، وتحرسه مجموعة من الحراس الأفارقة أسوة بالسفارات الأخري لكن يضاف الي وسائل الأمن مجموعة متقدمة من وسائل الاتصال التليفوني واللاسلكي. وقد حكت لنا السفيرة ما حدث لها ولزوجها في الليلة الماضية وهي تشاركنا التعجب. ففي هدوء الليل والزوج وزوجته معا في غرفة النوم الرئيسية – ليس لهما أولاد – شعرا بوجود شخص بالغرفة الملحقة بغرفتهما، أضاء النور، وتقدم السفير مستطلعا، وأمسك بأكرة الباب لفتحه فوجد علي الجانب الآخر من يشد الباب بعنف ليغلقه، وبعد شد وجذب تمكن الشخص الذى

بالخارج من قفل الباب بل وإغلاقه عليهم بالمفتاح أيضا، وأصابهم الذعر للحظات، ولكنهم رفعوا سماعة التليفون التي توصلهم برئاسة الأمن بسفارتهم مباشرة طلبا للنجدة فوجدوها لاتعمل، حاولوا استخدام جهاز اللاسلكي الصغير ليكتشفوا أنه صامت تماما، أسرعوا الي التليفون العادي يديرون رقم السفارة وإذا بالتليفون بلا حرارة. وهكذا شعروا أنهم محبوسون في جزيرة مهجورة فشلت كل وسائل التكنولوجيا الحديثة في إنقاذهم، والباب مغلق، وليس للغرفة إلا شرفة صغيرة تطل علي الحديقة التي تقع أمام مجموعة من الفيللات السكنية. ولم يكن أمام الزوجة إلا أن تلجأ الي أقدم أنواع التكنولوجيا التي عرفها الانسان منذ وجوده علي الأرض وهي الصراخ طلبا للنجدة.

وتجمع الحراس، حراس المسكن والفيللات المجاورة بل وساكنوها، ودخلوا المبني لتخبرهم حرم السفير من الشرفة بمأزقهم، وتصل النجدة بسرعة من سفارتهم، وتخلي سبيلهم.

وتبدأ التحقيقات والمعاينات والشبهات بحثا عن هذا المتسرب الجرئ، وقد أزعج الخبراء أن الوسيلة البدائية التي استخدمها الانسان الأول باستخدام أحباله الصوتية قد أدت دورها بكفاءة بعد فشل التكنولوجيا الحديثة.

١٣- فرقة رضا، ورسالة الفن بين الشعوب :

عندما صدر القرار بتعييني سفيرا لمصر في «كوت دي إيفوار» عام ١٩٧٤، قمت بزيارة بعض السادة الوزراء المصريين لدراسة الموضوعات التي تهم مصر في الدولة المضيفة. وكان لي الشرف أن أقابل المرحوم الأديب الكبير يوسف السباعي وكان يرأس وزارة الثقافة، ووجدت معه بالمكتب الاستاذ محمود رضا مدير فرقة رضا، وفهمت أن الفرقة قد أعدت برنامجا لرحلة تزور فيها ثلاث دول أفريقية، وبجرأة أحسد عليها تساءلت عن إمكانية ضم أبيدجان لبرنامج هذه الزيارة، وأيد السيد الوزير اقتراحي، وعلق الأستاذ محمود رضا بأنه لايمانع مطلقا إذا - وآه من إذا هذه - تم تغطية مصاريف فرق ثمن تذاكر الطيران - مصر للطيران - بالاضافة لمصاريف الإقامة والأكل لعدد ثمانين شخصا هم أعضاء الفرقة الراقصة والفرق الموسيقية المصاحبة لها، مع أهمية تواجد أتوبيس بصفة دائمة لتنقلاتهم، مع مصروف جيب معقول ومسرح جيد للعرض عليه. وانتهت المقابلة.

ووصلت أبيدجان العاصمة ثم بدأت دراسة الفكرة علي الطبيعة، ووجدت أن عرض فرقة رضا -لو تم - فسيكون عملا فنيا رائعاً لن تنساه «كوت دى إيفوار» لسنوات كثيرة خاصة لو نجحت في تسجيله وإذاعته تليفزيونيا بعد ذلك كنموذج لأحد الفنون المصرية، إذن تحدد الهدف وبقيت وسائل تنفيذه وإنجاحه، درست مع مدير شركة النصر - المصرية - بأبيدجان إمكانية قيام الشركة بالجانب التجاري من المشروع، فوافق مرحبا وبدأنا بالقلم والورقة نجري حسابات الايرادات والتكاليف، وفي خطتنا أن نقيم الحفل الأول علي مسرح أوتيل إيفوار الرائع الذي يتسع لألف متفرج، مع وجود الكراسي الممتازة المرقمة، والمسرح الجاهز باضاءته وملحقاته. أما الحفل الثاني فيقام علي مسرح ثقافي

حكومي، ولوزارة الثقافة في أبيدجان الحق في توزيع تذاكر هذا الحفل بالمجان علي طلبة الجامعة. ودرسنا موضوع الفندق والأكل والإقامة والأتوبيس والبنزين، ومصروف الجيب، وفرق ثمن تذاكر الطائرة – بعد التخفيض المأمول – ووصلنا الي رقم تقريبي للمبلغ المطلوب، وانتهينا الي استحالة الحصول علي المبلغ المطلوب.

برزت الروح التجارية الناجحة للزميل مدير شركة النصر، فقد ذكر لي أن غالبية تجار الجملة ونصف الجمل والتجزئة من رعايا لبنان، وقد كونوا ثروات طائلة وأنه يسعدهم الحضور، فإذا خصصنا لهم كراسي معينة بأسعار مرتفعة فسيقبل عليها صفوة التجار والطبقة العليا منهم؛ وسيكون الحفل محل تنافس علي الحضور. والتقطت الخيط ولعبت علي فكرة حب المباهاة، والنظرة الطبقية المتميزة، فقمنا بحجز الصفوف الخمسة الأولي وكل صف به حوالي الستين كرسيا، وحددنا ثمنا باهظا للغاية يدفع مقابل حجز كرسيين، ولا يجوز حجز كرسي واحد فقط، ولكل كرسي رقم، والعدد محدود غير قابل للزيادة، واشترطنا إمعانا في الرسميات أن يكون حضور أصحاب هذه التذاكر ببذلة «الاسموكنج» للرجال، والفستان الطويل «السواريه» للسيدات وذلك أسوة بالوزراء والسفراء الحاضرين، خاصة وأن هذه التذاكر ستكون موزعة بين كراسيهم. واطمأننا علي بند الايرادات، ووصلتنا موافقة القاهرة علي الحضور وطبعنا التذاكر وعرضت للبيع، وكان أسرع المبيعات هي هذه التذاكر المرتفعة الثمن. وقد كفت أسعار هذه التذاكر بتغطية أهم احتياجاتنا، وتكفلت أسعار باقي التذاكر بالالتزامات الباقية. وحضرت الفرقة، وقد تم عمل دعاية جيدة لها، ودعوت مجموعة من الوزراء والسفراء وزوجاتهم للحفل.

وقبل بداية الحفل بساعتين اتصل بي السفير مدير البروتوكول بالرئاسة ليبلغني بالخبر السعيد الذى يشكل مأزقا كبيرا عليّ أن أواجهه وبسرعة، وهو أن السيد الرئيس مساهمة منه في توثيق الروابط بين البلدين سيحضر هذا الحفل. وكانت هذه الرسالة مفاجأة سارة لم أكن لأطمع فيها، ولكنها في الوقت نفسه ترتب عدة مشاكل معقدة لابد من حلها خلال هذه الساعات العصيبة. وشكرت رئيس البروتوكول علي هذه اللفتة الكريمة، ولكنني طلبت منه – إعتمادا علي علاقاتنا الشخصية المتميزة – أن نلتقي سويا وفورا بالمسرح لإجراء التعديلات المترتبة علي حضور الرئيس. وتقابلنا. وتلقينا رسائل سريعة بأن كل السادة الوزراء وكبار المسئولين ما أن علموا بأن الرئيس سيحضر الحفل حتي قرروا الحضور هم أيضا وطلبوا حجز أماكن لهم. ونظرا لأن كل التذاكر قد بيعت فعلا – والحمد لله – فلم ينقذنا إلا سلطة رئاسة الجمهورية، فسرعان ما أعدت إدارة المسرح صفين جديدين من الكراسي، وبذلك منعنا أي ازدواج مع التذاكر المباعة.

وبدأ الحفل وحضر السيد الرئيس ومعاونوه، والوزراء وكبار المسئولين، وامتلأت القاعة الكبيرة بالحاضرين، وكان التجار اللبنانيون هم أسعد الناس هذه الليلة، فقد لبسوا البذل الرسمية وجلسوا بجوار الوزراء والسفراء، وتزينت نساؤهم بالحلي الثمينة التي يندر استعراضها في مناسبات أخري. ورقصت

فرقة رضا بإتقان جميل، وعزفت فرقتها الموسيقية نغماتها الساحرة، وتلقوا التصفيق الحار من الحضور الذين سعدوا بمشاهدة هذا الفن الراقي الذي قدم إليهم من عاصمة مصر الدولة الأفريقية الرائدة.

وشاء الرئيس أن يبعث برسالة تحية وتقدير لمصر وللفن المصري، فطلب أن يصعد علي المسرح ليحيي أعضاء الفرقة، وأسرعت آلات التصوير لتسجيل هذا الحدث الهام، واعتبره أعضاء الفرقة أجمل تقدير لاقوه في رحلتهم، وعاد الجميع الي القاهرة بعد ذلك وهم سعداء، ويذكرون أن رحلة أبيدجان التي أضيفت علي البرنامج في اللحظة الأخيرة كانت هي خير خاتمة لجهود الفرقة وخاصة بعد التحية الخاصة من الرئيس، وحضور كل هذه الجماهير التي عبرت عن سعادتها واستمتاعها بتصفيق مستمر.

١٤- مأزق باللغة الفرنسية :

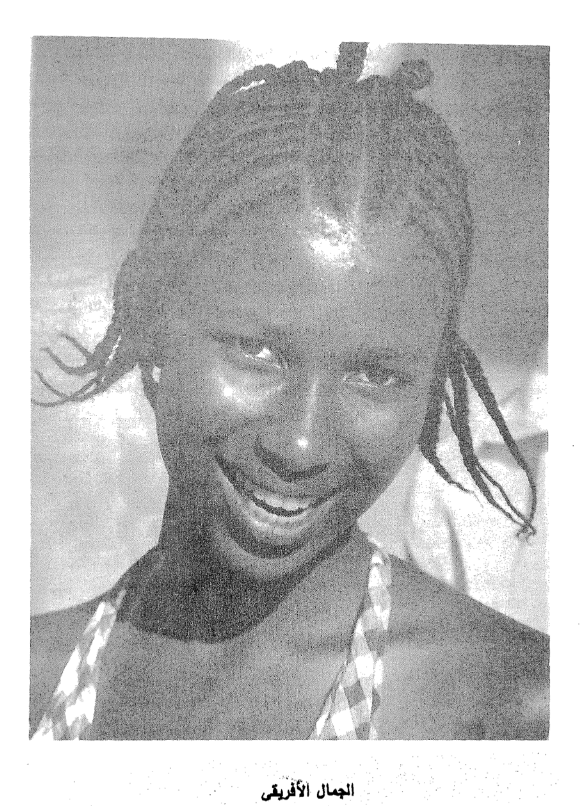
مرت خمس سنوات تقريبا علي عملي كسفير في «كوت دي إيفوار» والحمد لله كأفضل ما نرجوه، وحققت السفارة - بفضل تعاون الزملاء - نجاحات كثيرة، وحان الوقت أخيرا للعودة نهائيا للوطن، وأخطرت وزارة الخارجية بموعد سفري، وكالعادة أقام وزير الخارجية حفل تكريم لشخصي وللسيدة حرمي. وبدأت مراسم التكريم المعتادة، وألقي وزير الخارجية خطابه التقليدي المكتوب بالفرنسية مشيدا بجهودي لتقوية العلاقات الثنائية، ومتمنيا لي التوفيق مستقبلا، ثم أبلغني بأن رئيس الجمهورية قد منحني الوسام القومي، وقدم رئيس البروتوكول الوسام، وقام الوزير بتعليقه في الرقبة. وتبع ذلك قيامي بإلقاء كلمة سبق أن أعددتها بالفرنسية أضمنها الشكر لما لقيته من تعاون من كبار المسئولين، ومشيدا بالتطور الايجابي للعلاقات الثنائية بين البلدين. ونتقدم الي المائدة لتناول الغداء الرسمي، ويتوالي تقديم الأطباق، وأتذكر وأنا أتناول الطعام أنني منذ وصلت من أجازتي بالقاهرة وأعلنت قرب إنهاء عملي بأبيدجان وأننا نحضر يوميا حفلتين علي الأقل للتكريم، وفي الأيام الأخيرة أضيف الإفطار للمناسبات التي نجتمع عليها. وابتسم من أعماقي وأنا أتذكر إصراري علي إعداد كلمة مكتوبة بالفرنسية قبل كل حفل محاولا أن تكون مختلفة نوعا ما عن سابقتها. وكيف كنت أحاول تقليد «تشرشل» رئيس الوزراء الانجليزي عندما سألوه كيف يخطب مرتجلا بكل هذه الإجادة؟ فأفشي لهم السر، وهو أنه طالما دعي الي أي حفل فإنه - حتي لو كان متأكدا من أنه لن يلقي خطابا - يعد كلمة تناسب الموقف، ويكرر قراءتها ثم يضعها في جيبه، فإذا حدث وفوجئ بالإصرار علي قيامه بالحديث، كان ذهنه حاضرا ومرتبا ولايزال متذكرا مضمون الكلمة التي سبق إعدادها والتي ترقد في هدوء في جيبه، ويقوم مرتجلا خطابه ويعجب القوم لفصاحته وترتيب أفكاره.

كل هذا مر بخاطري وأنا أتبادل الأحاديث الجانبية علي المائدة، وأتذكر أنني كتبت العديد من الخطب باللغة الفرنسية خلال الأسابيع الأخيرة، وفجأة وأنا أسرح مع خواطري، وقبل تقديم الطبق الأخير - الحلو - سمعت صوت «نقرات علي الكوب» وهي الطريقة البروتوكولية للتمهيد لحديث يلقي، وإذا بوزير الخارجية هو الذي يرجو الصمت، ويقف ليرتجل كلمة أخري. يبدؤها بأنه قد قال

كلمته الرسمية وهو يقلدني الوسام، ولكن هناك مايدفعه لأن يقف مرة ثانية ليخاطبني، وأشار بيده للسادة المدعوين وقال ما معناه أنه تعود أن يحضر حفلات التوديع للسفراء المغادرين، وكان يندر أن يجد في الحفل أحداً من الوزراء، أما أن يجد في حفل تكريمنا سبعة من الوزراء وزوجاتهم، بالاضافة الي مدير مكتب الرئيس، والسفير مدير بروتوكول الرئاسة، وسكرتير عام الرئاسة، وهذا الجمع من كبار المسئولين الذين طلبوا حضور هذا الحفل، فإن ذلك يعتبر برهانا علي نجاحي ومعي زوجتي في أداء رسالتنا، واكتسابنا كل هذه الصداقات، وكانت كلماته تنزل علي بردا وسلاما، وتشعرني بالفخر والرضاء عن النفس، والحمد لله أن وفقت في مهمتي، وفجأة تنبهت أن امامي مأزقا رائعا مفروشا بكل هذه الكلمات الحلوة التي قيلت، فإن قواعد البروتوكول تقضي بأن أرد علي كل هذه المجاملات الرقيقة. وحان دوري لأرد باللغة الفرنسية وكنت لم أعد سوي خطبة واحدة ألقيتها عند تقليدي الوسام، وحيث لا مجال للتردد فقد ظهرت علي سطح الذاكرة مقتطفات من الخطب التي أعدت وألقيت في مناسبات سابقة خلال حفلات التكريم، وفتح الله عليّ من توفيقه، فرددت الرد المناسب، وهنأني الزملاء بعد انتهاء الحفل علي هذه الخطبة المرتجلة، وترحمت علي «تشرشل» لنصيحته الغالية التي لم تمنعني من التساؤل: هل لو كان «تشرشل» مازال حيا أليس من الأفضل له أن يعد خطبتين لا خطبة واحدة؟



هل يجوز بروتوكوليا أن يغمى على السفير



الجمال الأفريقى

المانيا الاتحادية

١- «شوماخر» حارس المرمي :

علمنا أن أسرة مصرية صديقة قد أرسلت ولديها لألمانيا للتدريب الصيفي ودراسة اللغة الألمانية، وشاء والدهم – بخبرته – أن يبعث بهما إلي إحدي المدن الصغيرة وبذلك يضمن أن يكون كل جهدهما منصرفا للاستذكار، وكانا يبلغان من العمر ستة عشر وأربعة عشر عاما. ووصل الشابان لمقرهما، وتعودنا أن نتصل بهما كل فترة لنطمئن عليهما. وانتهزنا أول أجازة ألمانية لندعوهما للحضور بالقطار الي العاصمة «بون» ليقضيا معنا أيام الاجازة. وعاد سائق السيارة ليخطرنا أن القطار قد وصل ولم يجد الضيفين الصغيرين. وبعد ساعات تحدث أحدهما تليفونيا ليعتذر عن التأخير وليبلغنا أنهما وصلا الآن محطة بون. طلبت منهما أن يستقلا سيارة أجرة من المحطة، وأنني سأكلف من يستقبلهما أمام باب المنزل ليتفاهم مع السائق ويقودهما للداخل.

ثم طلبت منه أن يعد قلما وورقة لأملي عليه العنوان، وكان اسم الشارع بالنسبة لي لغزا كبيرا في نطقه وهجائه، وكنت أشفق علي الأولاد من كتابة العنوان صحيحا، وبدأت انطق الحروف حرفا حرفا وببطء لأتأكد من دقة وصحة كتابته. وما أن انتهيت من الحرف الأخير حتي صاح صاحبنا «شوماخر» ونطق الاسم صحيحا وهو يردد أن هذا اسم من السهل حفظه ويعرفه جيدا، وآثار ذلك استغرابي واعتقدت بحسن نية أن ذلك مرجعه الي مادرسوه من اللغة الألمانية خلال الفترة القصيرة التي أمضوها في ألمانيا، وإذا بي أفاجأ بالرد الظريف، بأن هذا الاسم مشهور جدا لأنه اسم حارس المرمي الدولي لفريق ألمانيا الذي اشترك في الأوليمياد في لوس أنجلوس .. وهكذا عرفت أن نصف ثقافة أولادنا يتلقونها من مباريات كرة القدم. وسعدنا بالأولاد وبصحبتهم، وحكوا لنا كيف أنهم في مدينتهم الصغيرة يخافون من احتمال احتواء أنواع الأطعمة علي لحم الخنزير أو دهونه، ولذلك فضلوا أن يكون طبقهم اليومي الرئيسي هو «الشاورمة» التي يصنعها صاحب المطعم التركي، وأنهم لا يستعجلون العودة ثانية لأنهم سيجدون الشاورمة في انتظارهم، ثم علمنا منهما أن شعورهما بالغربة وإقامتهما في غرفة واحدة جعل كل حديثهما باللغة العربية، ولم يحدث أي تقدم في دراسة اللغة الألمانية.

استمتعنا بإقامتهما القصيرة معنا، ثم عادا الي مقرهما ليعاودا حياتهما. واتصل والدهم من القاهرة ليشكر، وبحسه التربوي الممتاز، ورعايته الايجابية التي تهدف الي تحقيق أفضل مستقبل لهم – وفقا لنظرته – سألني أن أذكر له بأمانة ملاحظاتي عما تحقق بالنسبة لأسلوب معيشتهم وماحصلوا عليه من تقدم في دراسة اللغة، وكنت في مأزق حقيقي، فهل أذكر لهذا الوالد المجتهد الذي امتلأ بالآمال أن أولاده لن يتعلموا الألمانية طالما عاشا سويا وتخاطبا بالعربية ولم يختلطا بالألمان؟ وتتابعت

الأسئلة بدقة وإلحاح وكنت أتهرب من الإجابة الواضحة، ولكنه من مضمون محادثتي خرج – بقرار سلطوي – أنه سينقل أحدهما بعيدا عن أخيه حتي لا يجد كل منهما مفرا من التحدث بالألمانية. وتابعت الشابان بعد التفرقة بينهما، وبقدر ماسعدت بتقدمهما السريع في دراسة اللغة فقد تأثرت لشعور كل منهما بالوحدة وآلام الاغتراب.

٢- السجاد الديبلوماسي للبيع :

وصلت الي «بون» عاصمة ألمانيا، وسعدنا أن وجدنا مقر السكن فاخرا ومتسعا ومتعدد الغرفات، وكان بالدور الأسفل حجرة كبيرة مغلقة ومفتاحها يحتفظ به الملحق الإداري للسفارة وبها مجموعة كبيرة جدا من السجاد تسلمتها السفارة كعهدة رسمية. ولهذا السجاد قصة جديرة بأن تروي. ففي زيارة للسيدة وزير الشئون الاجتماعية لألمانيا اقترح عليها إرسال مجموعة من السجاد الذي تنتجه جمعية الأسر المنتجة لتشترك به السفارة في بعض الأنشطة والمعارض، ولاقت الفكرة قبولا، وفوجئت السفارة بعد فترة بإخطار من القاهرة بأن إحدي الطائرات المصرية التي ستطير الي فرانكفورت للاصلاح – بدون ركاب – ستحمل معها شحنة من السجاد مرسلة من وزارة الشئون الاجتماعية للسفارة للهدف السابق الاتفاق عليه. وأرسلت السفارة مندوبها لاستلام السجاد والافراج عنه باعتباره مرسلا لاستخدام السفارة، وإذا بالمأزق الكبير يواجه الزميل، فقد تبين أن السجاد يبلغ حوالي السبعين قطعة من السجاد المصري ومن النوع الفاخر – ٣٦ عقدة – بالاضافة الي مجموعة كبيرة من الكليم ومنتجات سجاد قرية «الحرانية»، وكانت هذه الشحنة تشكل مشكلة كبري لضخامة كميتها، ولكن تمكنت السفارة باستخدام اتصالاتها من الإفراج عن الشحنة بشرط تخصيصها للبيع في الحفلات الخيرية فقط. وتم استلام السجاد وتخزينه في بدروم السفارة منذ ذلك الحين.

فتحنا هذا المخزن، وإذا بمشكلة كبري تواجهنا، فالسجاد بعدده الكبير يكاد يصل الي سقف الغرفة، وقد خزن بطريقة غير فنية، وأثرت فيه عوامل التخزين والرطوبة مما أدي الي إصابة بعضه بالتلف، ويخشي لو استمر الأمر علي ما هو عليه أن يمتد التلف الي باقي السجاد وهو ما يشكل خسارة فادحة واعتبرت السفارة أن السجاد هو مشكلة الساعة، وتكاتف الجميع علي حلها، فتم استبعاد السجاد الذي هاجمته الحشرات، وبدأ الفريق العامل بتنظيف وفرش السجاد للتهوية في حديقة المنزل، ثم أعدت غرفتان قام خبراء مقاومة الآفات بتطهيرها وأعيد وضع السجاد بطريقة سليمة نسبيا وفقا لنصائح الخبراء، مع تعليمات مستديمة بمداومة تهوية المكان علي فترات متقاربة.

وبعد فترة اتفقت سيدات السفارة علي إقامة يوم مصري في بون، وتعاونت السيدات بطريقة تدعو الي الإعجاب فقد أرسلن للأهل في مصر ليبعثوا لهم بكل منتجات خان الخليلي، وكان التهافت شديدا علي أطباق الطعام المصرية الرائعة التي قدمت بطريقة نظيفة جذابة، وقامت السيدات بأنفسهن بعملية البيع، وأقبل الجميع علي الطعام اللذيذ المتنوع الذي يباع بأسعار رمزية. ولعل أغرب

ما حدث في هذا اليوم المصري هو ما يتعلق بالسجاد المخزون بالسفارة. كانت مسئولية عرض وبيع السجاد مما يدخل في مسئولية السيدة هاجر الاسلامبولي المستشار بالسفارة، وكانت تتميز بالكفاءة الديبلوماسية وقوة الشخصية، ولكن أبداً لم يدر بخلدنا أن لها مواهب تجارية مدفونة. وقد كانت الخطة الأولي أن تعلق عشر قطع من السجاد علي الحوائط بجوار المعروضات الأخري لاغراء من يرغب في الشراء وإذا بالزميلة هاجر بحسها التجاري - الذي لم يستغل من قبل - تضع كمية تبلغ الثلاثين قطعة من السجاد والكليم علي الأرض وسط دائرة محددة بطريقة فنية غير منتظمة وكلها في متناول أيدي المتفرجين، وعلي كل قطعة ورقة بها مواصفاتها وسعرها بالمارك الألماني، وهو بكل المقاييس أقل سعرا وأعلي جودة من السجاد الموجود بالسوق الألماني، وبدأت السيدة هاجر في تشجيع الديبلوماسيين والمترددين ليلمسوا بأيديهم ويعاينوا بإنفسهم قطع السجاد بطريقة تذكرنا بما كان يفعله الخواجة صيدناوي صاحب المحلات الشهيرة مع عملائه، وكانت تشرح لهم مزايا كل قطعة وعدد العقد في السنتيمتر المربع بطريقة تجعل الشخص يحرص علي عدم ضياع فرصة العمر بشراء بعض قطع هذا السجاد، ويتوالي البيع وتتوالي رحلة سيارة السفارة ذهابا الي المنزل لإحضار المزيد. وكما يقولون فإن السلعة الجيدة تعلن عن نفسها، والسيدة هاجر وقد اكتسبت خبرة تتزايد مع تقدم ساعات اليوم، ويرتفع معدل البيع وفي النهاية كانت النتيجة مذهلة فقد خرجنا من المأزق وبعنا أكثر من ثلاثة أرباع الكمية المخزونة والتي كنا نخشي عليها من عوامل التخزين، وحمدنا الله أن أنقذنا هذه الثروة من التلف.

٣- برنامج الزيارة الرسمية :

المكان ألمانيا «الغربية» والزمان مارس ١٩٨٩ والمناسبة هي الزيارة الرسمية للسيد الرئيس مبارك. ونظرا لأن «بون» عاصمة ألمانيا ليس بها مطار دولي، فإن خطوط الطيران تصل الي مطار كولون أقرب المدن الي بون ومنها ينتقل الركاب بالقطار أو السيارة أو الهليوكبتر الي العاصمة. وقد تم اختيار مدينة بون الصغيرة كعاصمة لألمانيا الاتحادية بعد الفصل رسمياً بين الألمانيتين عقب الحرب العالمية الثانية، وبعد إعلان المانيا الشرقية اتخاذها برلين كعاصمة لها. وكان الهدف وراء اختيار هذه المدينة الصغيرة مقرا للحكم يتواجد بها قصر الرئاسة، والمستشارية ومجلس البرلمان الإتحادي، والوزارات الاتحادية هو، أن صغر حجمها لن يسمح لها بالتوسع أو أن تطغي مركزية الحكم من هذه المدينة علي الحكومات المحلية (عددها عشر بالاضافة لبرلين الغربية)، وكانت هذه الولايات تتمتع كل منها بشخصية قومية معينة، وتطمع كل ولاية في احتضان الصناعات الكبري وتحقيق خطط تنمية طموحة دون منافسة من العاصمة الاتحادية.

ووصلت الطائرة المصرية الي كولون، ووفقا للبروتوكول كان يرافق السيد الرئيس مدير المراسم الألماني والسفير المصري، وقدما للرئيس كبار المستقبلين من الجانب الألماني ومن الجانب المصري، وانتقل الوفد الزائر الي طائرات هليوكبتر كبيرة الحجم لنقلهم الي قصر الضيافة الذي يقع في إحدي

الضواحي خارج مدينة بون. وركب السيد الرئيس الطائرة الأولي وبرفقته مدير المراسم الألماني والسفير المصري وبدأت الرحلة وأخذ السفير مدير البروتوكول المبادرة وقدم للرئيس برنامج الزيارة الذي طبعوه باللغة العربية. وكان البرنامج يحتوي علي التحركات الرئيسية فقط وفقا لما تم الاتفاق عليه، أما السفارة فقد قامت من جانبها بطبع كتيب باللغة العربية يحتوي علي البرنامج بالاضافة لصفحات بها بعض البيانات الهامة بالنسبة للزائر مثل عنوان السفارة باللغة الألمانية وأرقام تليفونات السفارة ومنازل الأعضاء، وحالة الجو فترة الزيارة، وكيفية الاتصال بالقاهرة، ومحطات الاذاعة والتلفزيون الألمانية والعالمية وكيفية البحث عنها، وموجات الاذاعة المصرية، وأضفنا الي نسخة كل وزير أو عضو بالوفد كل البيانات التي تهمه أو قد يحتاج لها شخصيا. أما بالنسبة للرئاسة فالمتبع أن يتسلم مندوب مراسم الرئاسة الذي يصل قبل الزيارة نسخة من البرنامج ليقوم بمساعدة السفارة بإخراجها وترتيبها وفقا للأسلوب المعتاد لهم، ثم يتولي توزيعها بمعرفته. وقد لاحظت أن البرنامج الذي طبعته المراسم الألمانية في كتيب بحجم ربع صفحة فولسكاب، وصدر في صباح يوم الزيارة، قد كتب بحروف صغيرة للغاية يصعب قراءتها، وحمدت الله أن هذه السلبية غير موجودة بنسخ السفارة.

نعود الي الطائرة الهليوكبتر، وقد قدم رئيس المراسم النسخة للسيد الرئيس الذي تصفحها سريعا، ثم التفت الي سفير مصر الذي يجلس خلفه طالبا نسخة أخري من البرنامج يمكن قراءتها. وبحركة تلقائية أخرج السفير من جيبه نسخة البرنامج الخاصة به، وقدمها للسيد الرئيس، الذي أطلع عليها ثم أعادها للسفير مع ابتسامة رقيقة. وهنا تذكر السفير أن هذه النسخة قد أضيف اليها بخط اليد علي الهوامش كل الملاحظات الدقيقة والصغيرة التي علي السفير أن يتأكد منها قبل كل تحرك أو مقابلة، وتقسيم لمهمة أعضاء السفارة في كل خطوة، والمحاذير التي قد تصادفنا وكيفية تفاديها، كل ذلك بأسلوب واضح وصريح – وغير بروتوكولي – حيث كتبها السفير لنفسه ولم يخطر علي باله مطلقا أن السيد الرئيس سيطلع عليها. وعاود السفير قراءة هذه الإضافات والشروح وفهم سر الابتسامة وحمد الله علي حسن اختيار الكلمات المكتوبة علي الهوامش.

٤– حرم السفير التي ضاعت منا :

تمت زيارة الرئيس لألمانيا في مارس ١٩٨٩، ووفقا للبرنامج فإن المقابلات الرسمية تتتابع زمنيا بطريقة مكثفة لا تتخللها سوي مسافات الطريق، أو فترات قصيرة للراحة. وكان برنامج اليوم الذي نتحدث عنه يشمل مقابلة رسمية، ثم استراحة قصيرة في منزل السفير ويتبعها زيارة السيد رئيس الجمهورية الألمانية. أما برنامج حرم الرئيس فيتضمن بعض المقابلات الرسمية ثم زيارة لبعض دور الحضانة والمدارس. ووصل الرئيس والوفد المرافق له لمنزل السفير، وبعد فترة وصلت حرم الرئيس والعضوات المرافقات لها وصعدن جميعا للدور العلوي.

وكنا جميعا نتطلع الي فترة راحة نهدأ فيها قليلا استعدادا لمتابعة باقي البرنامج. وسارت

الترتيبات في المنزل كأفضل مايكون في الدور السفلي والعلوي، حتي فوجئت بأحد السادة المرافقين من المجموعة الألمانية وهو يسألني في قلق عن زوجته لأنه بحث عنها مع العائدات فلم يجدها، كما أبلغه سائق السيارة المخصصة لها بأنها لم تركب معه في العودة، وبدأ في إجراء الاتصالات السلكية واللاسلكية في موقع آخر زيارة وفي الأماكن التي يحتمل وجودها فيها. وسرت عدوي القلق الي الجميع، وبدأت مناقشة كل الاحتمالات السيئة، والزوج البائس ينظر الي ساعته والدقائق تمر بسرعة وموعد الزيارة الهامة - التي من المفروض أن تحضرها زوجته - يقترب، وكنت أبذل جهدي لحصر هذا التوتر في أقل دائرة ممكنة مع قيامي بواجبات المضيف للوفدين المصري والألماني. وفي اتصال تليفوني مع زوجتي بالدور العلوي أبلغتها بالمأزق الذي نواجهه، فاذا بها تضحك وهي تخبرني أن الزوجة موجودة معهم منذ وصولهم وهي بخير، ولاتشعر بما نحن فيه ووعدت بإرسالها لنا حتي يطمئن زوجها. وما أن رآها الزوج حتي تدافعت الأسئلة، وحمي النقاش ولكن قواعد البروتوكول تغلبت وهدأت الأطراف - مؤقتا - وعاد الزوج ليخبرني أن المشكلة تنحصر في أنها ركبت سيارة أخري غير المخصصة لها، ولم تخطر سائق السيارة الأولي، كما أن من أبلغه بأنها لم تحضر مع المجموعة لم يكن دقيقا في معلوماته. وهكذا عاد الهدوء النفسي للزوج وضحكنا جميعا ونحن نستعيد لحظات القلق التي عشناها والزوجة علي بعد أمتار منا.

٥- الرحلة الي برلين - الغربية

تضمنت الزيارة الرسمية للسيد الرئيس زيارة برلين أي الجزء التابع «لألمانيا الاتحادية» في ذلك الوقت. ويرجع تاريخ مشكلة برلين الي نهاية الحرب العالمية الثانية حينما احتلت قوات الحلفاء الأراضي الألمانية، وفرض السوفييت الأيدلوجية الشيوعية علي الجزء الشرقي المحتل بقواتهم بما فيه الجانب الشرقي من برلين، وتم تكريس الانفصال بإعلان قيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية - الشيوعية - وعاصمتها برلين في أكتوبر ١٩٤٩، وبقي الجزء الغربي من برلين المحتل بالقوات الأمريكية والانجليزية والفرنسية ملحقا بألمانيا الاتحادية - الغربية - ونظرا لأن الوصول الي الجزء الغربي من برلين يحتم المرور بأجواء «ألمانيا الشرقية»، فقد امتنع علي طائرات ألمانيا الغربية الطيران الي برلين. وقامت السلطات الألمانية بمناسبة هذه الزيارة الرسمية باستئجار طائرة تابعة لشركة فرنسية - إير فرانس - لنقل الوفد المصري ومرافقيه. وقبل ركوب الطائرة قام الوفد المصري بعدة زيارات رسمية متتابعة ثم أسرعنا للمطار لأجد بعض المشكلات الصغيرة التي تم حلها بسرعة مع مندوب المراسم الألمانية ومندوب السفارة، ثم اطمأننت من الزميل علي كل الخطوات المقبلة وسلمته برقية لإرسالها الي القاهرة، وصعد السيد الرئيس للطائرة، وأسرعت لألحق بالوفد وإذا بي أشاهد علي الأرض وأمام سلم الطائرة الخلفي حقيبة أعرفها جيدا، فقد رافقتني في كل رحلاتي وأسرعت الي مكانها حيث وجدت مندوب أمن الرئاسة - المصري - يطل من أعلي السلم، وتبين أنها الحقيبة الوحيدة التي لم يتعرف عليها صاحبها للسماح بإدخالها الطائرة، فقد شغلتني مشاكل اللحظات الأخيرة عن هذه القاعدة

الأمنية، وتهادت الحقيبة الي أحضان الطائرة وأنا أحمد الله أنني تنبهت لوجودها علي أرض المطار، وإلا لكنا قد واجهنا مأزقا لانحسد عليه – زوجتي وأنا – عند الوصول الي برلين مع الحاجة لحضور كل الدعوات الرسمية، وملابسنا ترقد في هدوء ونظام داخل الحقيبة.

وركبنا الطائرة، وقد تفننت شركة «إير فرانس» في تقديم أرقي أنواع الخدمة الممكنة، وظهر ذلك جليا في أنواع الطعام والشراب المقدمة، وأدوات المائدة التي كانت من أرقي الأنواع، والزهور البالغة الجمال التي تزين كل مكان، أما المضيفات – لم يكن هناك مضيف واحد – فأفضل عدم الاستطراد في الحديث عن جمالهن ورقتهن خوفا من الرقيب العائلي. ووصلت الرحلة – علي بساط الريح – ونزلنا الي أرض المطار لنفاجأ أن كبار المستقبلين هم قادة الجيش الأمريكي. والفرنسي والانجليزي بالمنطقة ثم عمدة برلين الغربية.

وكان هذا إعلانا مجسما للاحتلال الغربي – الصوري – لألمانيا الغربية، التي لم تُضيِّع وقتها بالمطالبة بجلاء القوات المحتلة بل ركزت علي الاقتصاد ونموه حتي أصبحت الدول المحتلة ترجوها تخفيض قيمة المارك الألماني حتي لا تنهار عملاتها. وكان من أهم بنود البرنامج زيارة الموقع القديم للبرلمان الألماني أيام الحكم النازي ثم زيارة سور برلين من الجانب الغربي، هذا السور الذي بناه الألمان الشرقيون في أغسطس ١٩٦١ لمنع المواطنين من الهروب الي الجزء الغربي من برلين، الذي تفنن العالم الغربي في الدعاية له، باعتباره الواجهة الجميلة لحضارة الغرب في مواجهة الشيوعية التي تسود في الشرق. وقد أكد بناء السور عملية تقسيم ألمانيا علي أرض الواقع، كما قتلت أعداد لايستهان بها من رعايا ألمانيا الشرقية وهم يحاولون تخطي السور، وأطلقت عليهم النيران قبل وصولهم الي الجنة الموعودة علي الجانب الآخر من السور. واستغل الغرب بزعامة أمريكا هذه الحوادث لمهاجمة النظام الشيوعي وقتئذ وإتهامه باستخدام سياسة القمع وانتهاك حقوق الإنسان، وإبراز أن المواطن الألماني يعيش في الشرق في حالة من الفقر والقهر تدفعه لمحاولة الهرب. وتمت الزيارة الرسمية للبرلمان السابق وتبع ذلك المرور لمشاهدة هذا السور، وهنا ظهرت كفاءة وذكاء وسائل الإعلام لألمانيا الغربية التي انتهزت فرصة هذه الزيارة، لتصوير الوفد الزائر والسور الذي أصبح رمزاً للقهر ليعرض في جميع وسائل الاعلام العالمية بمناسبة هذه الزيارة الهامة. ولعل من الأشياء التي لفتت الأنظار تلك العبارات السياسية، وألفاظ السب والقذف والرسوم الكاريكاتورية التي كتبت ورسمت علي هذا الحائط – من ناحية الغرب – مهاجمة السلطات والنظرية الشيوعية التي تسود الجانب الآخر من ألمانيا.

وعندما تحقق الحلم الألماني الذي اعتبروه هدفا مستحيل التحقيق وأعلنت الوحدة بين الألمانيتين، تم هدم السور، واعتبرت قطع الأحجار التي تحمل الكلمات والرسوم قطعا أثرية تباع بأسعار مرتفعة في سوق الآثار.

وفي المساء أقيم علي شرف الوفد المصري حفل رائع لموسيقي الحجرة، في قاعة صغيرة،

حضرها عدد محدود، وجلسنا نستمع في إنبهار لهذه الموسيقي الكلاسيكية الرائعة، وكانت تجلس أمامي السيدة نائبة عمدة برلين، وفجأة ونحن نسبح مع النغمات الحلوة سمعنا صوت «شخير» يرتفع رويدا من الكرسي الذي أمامي، وظننا جميع أن «النوم سلطان»، وخاصة مع هذه الموسيقي الحالمة، وتصنّع الجميع أنه لم يسمع شيئا – وفقا لأصول البروتوكول – واستمرت الفرقة في عزفها حتي شاهدت رأس السيدة يميل مع رقبتها الي الجانب الأيمن وتعالي «صوت الشخير»، وأحسست أنها تنزلق من علي كرسيها وهي في حالة غيبوبة، فأمسكت بها من الخلف من الجانبين لأحميها من السقوط أرضا، وحدث هرج وأضيئت القاعة وأسرع إلينا من الصفوف الأخري طبيب الرئاسة المصري، والطبيب الألماني المرافق للوفد، وما أن اقتربا من السيدة – وأنا ممسك بها من الخلف – حتي فتحت عينيها وكلها دهشة وكأنما تتساءل عما حدث، واستعادت رشدها تماما بعد دقائق، واستمرت في مكانها وعاودت الفرقة العزف، واستغرق الجميع في متعة الاستماع، أما أنا فلم أسمع شيئا ولم أشاهد شيئا، فصوت «الشخير» لم يفارق حواسي، وكان نظري مركزا علي الرقبة التي أمامي، وأي اهتزاز بها يصيبني بحالة من التوتر واستعداد للتدخل وطلب النجدة. وفي نهاية الحفل وعند الانصراف أحسست أنني خرجت من مأزقي رغم ما فاتني من متعة الموسيقي التي لا تعوض، ولكن أرضاني تحية شكر وعرفان من السيدة نائبة العمدة.

٦– عشاء بالإكراه

لعل من أصعب المهام التي يواجهها الديبلوماسي المصري في الخارج هي كيفية التعامل مع اتحادات المصريين في البلد الذي يعمل به. إنهم ينقسمون الي مجموعات مختلفة ثقافيا واجتماعية وعلميا، ويمارسون عملية انتخابات الاتحاد العام كما لو كان الأمر متعلقا بمعركة حربية تستخدم فيها كافة الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، وبعد النجاح تبدأ المعارك الصغيرة بين من نجح ومن لم يوفق، ثم تتكون التكتلات والشللية. وبحثا عن مزيد من الزعامة للرئاسات التي نجحت فإن أفضل وسيلة لذلك هي التقدم للسفارة بمطالب يتعذر تنفيذها. وإلقاء اللوم كل اللوم علي الحكومة في الوطن الأم بتهمة التقصير والتعقيد. ولاننكر أن هناك سلبيات بالنسبة للاستجابة لبعض المطالب المشروعة حيث تتكاسل أحيانا جهات الادارة في العاصمة في الرد علي الاستفسارات، أو تقدم ردودا غير دقيقة لاتتفق مع العقلية الجادة المنظمة التي عاشت في الخارج. هذا الوجه السلبي لنشاط الاتحادات لاينبغي أن ينسينا الكثير من النجاحات التي حققتها والمشروعات المدروسة التي نجحت في الوصل بينهم وبين الوطن. كنت أدرك هذه المشاكل أثناء عملي في ألمانيا، وأحاول جاهدا المساعدة الايجابية بالفكرة والمناقشة ومتابعة المواضيع مع القاهرة.

وقد لاحظت مع الأسف أن الكثير من كبار المثقفين المصريين بالخارج قد ابتعد عن نشاط الاتحادات تجنبا لما قد يصيبه من رذاذ الانتخابات، ولكن هذا لم يمنع من إصرار قلة من خلاصة هؤلاء المثقفين من المشاركة وتحمل مخاطر المناقشات والمناورات الانتخابية، وكنت أعتز بهذه الخلاصة

وأجد فيهم الوجه المضيء للاتحادات.

وفور وصولي اجتمعت بأعضاء الاتحاد العام ورئيسه، وقررنا عقد اجتماع موسع يضم كل اتحادات الولايات الألمانية – عددها عشرة بالإضافة لبرلين – بحيث ينعقد يوم أحد – يوم الأجازة – بعد شهر من هذا الاجتماع، ويبدأ الاجتماع المقترح بالسفارة صباحا ثم يدعي الجميع لغداء في منزل السفير، وتستكمل المناقشات بعد تقديم القهوة والشاي. وأرسلت الدعوات وتلقينا الردود بالقبول، ونظرا لأن عدد الحضور – ثلاثة من كل اتحاد إقليمي – سيتجاوز الأربعين فقد كان الترتيب أن يكون الانعقاد ممتدا من قبل الغداء حتي الانتهاء من جدول الاعمال وكل الموضوعات المثارة. وقبل هذا الاجتماع بعدة أيام، تلقت السفارة رسالة بأن السيد وزير الهجرة سيزور «بون» بعد ثلاثة أيام ويمكث بها يومين وليلة واحدة. ونظرا لضيق الوقت، وللتحديد المسبق لإجتماع كل الاتحادات الإقليمية فقد قامت السفارة بإعداد برنامج سريع للسيد الوزير، يقابل فيه كبار المسئولين من الجانب الألماني عن مشاكل المهاجرين المصريين. ثم مقابلة المجموعات المصرية وأولها اجتماع مع أعضاء الاتحاد العام، يليه مباشرة اجتماع مع رابطة السيدات المصريات في بون، ويتبع ذلك حفل عشاء محدود لعدد من المصريين المثقفين من خارج الاتحاد، حرص الوزير علي مقابلتهم بناء علي مراسلات متبادلة. وتكريما للاتحاد العام دعي رئيسه للحفل وكذلك بعض الشخصيات الهامة. وبدأ الاجتماع، وكان السيد الوزير ممن يجيدون الحديث، فاستطرد في شرح رسالة وزارة الهجرة ومشروعاتها المستقبلية بأسلوب مشوق، وبثقة أستاذ يلقي محاضرته، ومضت الدقائق الطويلة والحديث من جانب واحد لاينتهي ولا يبدو أنه سينتهي.

كنت أعلم أن أعضاء الاتحاد لديهم تساؤلاتهم، وأن هذا الاجتماع يكاد يقترب من نهاية الوقت المخصص له، وانتهزت فرصة توقف فيها السيد الوزير ليلتقط أنفاسه لأقاطعه بأدب قائلا إننا نسعد بالاستماع الي كلماته القيمة ولكن البرامج الأخري لهذه الليلة تحتم علينا إعطاء الفرصة للأعضاء لتقديم أسئلتهم قبل انتهاء الوقت. ووجد الوزير أن خطته لتفادي الأسئلة المحرجة باطالة الحديث حتي ينتهي الوقت قد وصلت الي طريق مسدود، فترك المجال للأعضاء وأجاب عليهم حتي انتهي الوقت المحدد وأعلنت إنتهاء الاجتماع. وهنا تحدث وكيل الاتحاد بعصبية زائدة مرددا أنهم لم يقدموا كل مالديهم من أسئلة، وأنهم لايتقبلون أن يحضر الوزير لبون لمدة يومين فقط يخصهم منها ساعتان، ثم تساءل لماذا لا تستكمل المناقشات علي العشاء، خاصة وأن الوحيد الذي دعي لحفل العشاء هو رئيس الاتحاد فقط، وانتقل الوزير الي اجتماع رابطة السيدات المصريات في بون، وهنا اقترب مني رئيس الاتحاد ورجاني أن أسمح لوكيل الاتحاد بحضور حفل العشاء، وأن تجاهله في هذه المناسبة هو الذي أثار عصبيته، فاعتذرت له بأن عدد الحضور محدود، وأن لكل منهم الكرسي المخصص له علي المائدة، وأمامه كارت باسمه، وأن مساحة المائدة لا تسمح بإضافات، وبالاضافة الي أنه كرئيس للاتحاد يعتبر حضوره تمثيلا كافيا. فاقتنع محدثي وانصرف ليعود اليّ بعد دقائق بطلب أكثر غرابة فقد

أبلغني أنه نظرا لأنه لا يستطيع قيادة سيارته ليلا فقد حضر في سيارة صديق مصري، وطلب أن يحضر هذا الصديق العشاء معنا، فاعتذرت لنفس المبررات السابق شرحها، وظننت أنها مشكلة عابرة تم حسمها.

وانتهي اجتماع الوزير بالرابطة، ثم توجه لقاعة الطعام وتقدم كل مدعو باحثا عن الكرسي المخصص له علي المائدة، وفوجئت بالسيد رئيس الاتحاد يدخل القاعة مصطحبا صديقه الذي سبق لي الاعتذار عن دعوته. ونظر الي رئيس الاتحاد بابتسامة من يقول «تفضل أيها الديبلوماسي، وأوجد حلا لهذا المأزق». وكان الموقف حرجا لا يحتمل أي مناقشة، خاصة وأنا لا أريد أن أقطع الخيط الرفيع الذي بيني وبين رئيس ووكيل الاتحاد، ولم يكن هناك مفر من وضع كرسي بين مدعوين ليعاني الثلاثة من ضيق المكان. وهكذا انتصر.... «الإصرار» علي كل قواعد البروتوكول.

٧- الأسلوب الألماني في العمل :

قام أحد السادة الوزراء المصريين بزيارة رسمية لبون، وأثناء المناقشة تحمس كثيرا لمشروع معين يهم وزارته، وأبلغني أنه علم من اتصالاته - عن غير طريق السفارة - أن الجانب الألماني سيدعم المشروع فنيا وماليا. وحاولت في هدوء أن أشرح له موجزا للمعوقات كما تعرفها السفارة، خاصة السلبيات من المنفذين بالقاهرة، وأن المشروع مازال قيد البحث في ألمانيا، ويبدو أن أسلوب حديثي كان صريحا ومباشرا ومتأثرا بما تعودته عند التعامل مع الألمان حاليا، ومع اليابانيين من قبل، وقد ترجم السيد الوزير حديثي بأن السفارة قد لا يعنيها نجاح الفكرة لأنها بدأت بعيدا عن السفارة، ولعله أضاف في سره جملا كثيرة عن بيروقراطية السفارات وتعقيداتها وسلبيتها. وأحسست أن حديثي الصريح المبني علي الحقائق فقط قد وضعني في مأزق وبدأت أحس أن مسافة الود بين الوزير وبيني قد تباعدت قليلا بعد هذا الحديث. واصطحبته للزيارة الأولي وهي لوزير اختير رئيسا لجمعية الصداقة العربية الألمانية، ويمارس هذه الرئاسة منذ أكثرمن عشرة أعوام، عاشر فيها كل العرب في بون وزار بلادهم مدعوا، وحضر حفلاتهم، وتعرف علي عقلياتهم وأسلوب تفكيرهم، ولا أبالغ إذا قلت أنه قد انعكست هذه المعايشة الطويلة للمسئولين العرب علي طبيعته وأسلوبه في التعامل. وبدأت الزيارة، وعلي غير العادة الألمانية، قدم إلينا الشاي ومعه أنواع من الحلوي بكرم شبه عربي، ولقي وزيرنا ترحيبا كبيرا، وتعظيما يليق بمكانته وشخصه، ثم بدأ يشرح المشروع الذي قدم من أجله، ويطلب معاونة زميله رئيس جمعية الصداقة الذي لم يتردد في إبداء إعجابه المبالغ فيه بالمشروع، ووعده بتيسير كل العقبات، بل وأبدي موافقته عليه مع وعد لزميله المصري بالعمل علي إنجاحه، والوزير المصري يصغي بانبهار لكل هذه التصريحات - الرسمية - المشجعة والتي أشعرته أن بينه وبين النجاح خطوات قليلة، وينظر اليّ الوزير المصرى بابتسامة رقيقة ولكنها تحمل اليّ رسالة لا يخفي عليّ مضمونها، الذي يعني أرأيت كيف تنجح الاتصالات الشخصية؟ وأنه لا مبرر لاستخدام العقلية والأسلوب الألماني كذريعة لعدم تنفيذ المشروعات بالسرعة المطلوبة. وقبل إنهاء المقابلة ذكر الوزير الألماني أنه سيقوم بزيارة سوريا بناء

علي دعوة موجهة له بعد عشرة أيام، وبسرعة مصرية وكرم حاتمي، وردا للجميل عبر له الوزير المصري عن سعادته بدعوته لزيارة مصر لمدة أسبوع سواء قبل زيارة سوريا أو بعدها لدراسة المشروع تفصيليا. وقبل الوزير الألماني الدعوة شاكرا، وخرجنا من الزيارة ووزيرنا في أقصي درجات السعادة والاطمئنان علي نجاح مهمته، ونظر اليّ متسائلا عما استخلصه من نتائج الزيارة، وكان ردي الذي لم أستطع إخفاءه أنه قابل رئيس جمعية الصداقة العربية الألمانية، وأنه إنسان رقيق وقد تعلم من معاشرته للعرب أن يحدثهم بنفس أسلوبهم، وأن يعطيهم ما شاءوا من وعود، وألا يثبط همتهم ويواجههم بالحقائق عارية، وخاصة أنها تخرج عن سلطاته، ولهذا فرأيي أن نأخذ كل هذه التصريحات الهامة بتحفظ مع وعد من السفارة بمحاولة استخدام اتصالات الوزير مع زملائه في متابعتها لخطوات المشروع.

ثم توجهنا للمقابلة الثانية، وكانت مع نائب وزير الخارجية نظرا لغياب الوزير عن العاصمة، وبدأ الوزير المصري في تقديم المشروع بأسلوبه المنظم اللبق، والطرف الآخر يصغي باهتمام وأدب، حتي جاء دوره في الحديث ليقول إن المشروع مازال في دور الدراسة، وأن الجانب المصري لم يقم بالجزء الموكول إليه في الدراسات حتي تبدأ السلطات الألمانية في تحديد التزاماتها، وعندما ناقشه الوزير المصري، مد زميله الألماني يده ليفتح أحد الملفات ثم يذكر بالتحديد كل عناصر التأخير من الجانب المصري وهو ما سبق للسفارة أن استعجلت المسئولين بالقاهرة لتفاديها، ويرد في بساطة – كالصدمة – أن علي الطرف المصري إنهاء التزاماته التي يترتب عليها اتخاذ القرار الألماني. وانقاذا للموقف ذكر له وزيرنا أن الوزير الألماني «.....» قد أبدي إعجابه بالمشروع، ووافق عليه ووعد بالمساعدة والدعم، فكان الرد بسيطا للغاية وهو التساؤل عما إذا كان مدرجا في ميزانيته مبالغ يمكن تخصيصها للمشروع، ثم أردف أنه يتحدث باسم الحكومة الألمانية ولذلك يحرص علي عرض الحقائق ولايقدم الكلمات المعسولة التي لا تقدم أو تؤخر. وانتهت المقابلة وودعنا بكل احترام، وخرجنا ووزيرنا يتساءل عن التعارض التام في أسلوب من قابلناهم، وكان ردي أن ماشهده في المقابلة الأخيرة هو الأسلوب الألماني في جدية التعامل، أما المقابلة الأولي فكان يسودها بين الطرفين الروح العربية السمحة الكريمة المتفائلة. وعادت الابتسامة للسيد الوزير، ورجعت مسافة الود بيننا الي معدلها المتميز فقد أيقين أن «أهل مكة أدري بشعابها».

٨– أين الحقيقة ؟

كانت المباحثات تدور بين الجانبين المصري والألماني لزيادة قيمة المعونة الألمانية وتطوير بعض شروطها، وكنا نواجه من المسئولين الألمان بأعذار لتبرير عدم الزيادة، وبأرقام عن ارتفاع نسبة التضخم الألماني، وزيادة معدلات البطالة، ثم يبدأ الحديث عن المعوقات الادارية من الجانب المصري. ولم تفقد السفارة الأمل في تحقيق بعض النتائج الايجابية رغم التصلب الألماني، وفي النصف الأخير من ديسمبر اتصلت بي وزارة الاقتصاد الألمانية لتبلغني برغبة الوزير للاجتماع بي، وسعدت لهذه الفرصة السانحة، وعاد لي الأمل في تحقيق بعض التقدم. وقابلته وأدار المناقشة بذكاء وتمكن، وأبدي أن لديه مشروعا

جديدا بالنسبة للمنح المالية التي تقدمها ألمانيا، فقد تبين أن أكبر المستفيدين من اعتمادات المنح الألمانية هما الهند ومصر، ولذلك فكر الوزير في مشروع غير تقليدي وهو تخصيص مبلغ المعونة السنوي كله لتغطية مشروع واحد في مصر يتفق عليه بين الطرفين، وفي هذه الحالك يمكن زيادة المبلغ السابق تحديده، بحيث يعتبر هذا المشروع نموذجا ناجحا - عند تحقيقه - للتعاون بين ألمانيا ودول العالم الثالث، وإذا نجح تنفيذه في الهند ومصر يطبق مستقبلا في كل الدول المتلقية للمنح. وكانت فكرة جديدة تماما علي مستوي التعاون الدولي، ووجدتها مقنعة بل وعملية فإن نجاح مشروع واحد أفضل من توزيع مبالغ علي عدة جهات ولا يظهر أثرها إلا بعد سنوات.

وأحسست بحماس الوزير ورغبته في سرعة تطبيق هذا النظام العملي. وشكرت الوزير ووعدته بإبلاغ المسئولين بالقاهرة بهذا الاقتراح مع تأييد السفارة. وفي نهاية المقابلة أبلغني الوزير أنه يتطلع لقضاء عطلة عيد الميلاد - نهاية ديسمبر - علي شواطئ البحر الأحمر، وطلب مساعدة السفارة لحجز أماكن إقامة له وزوجته وبناته وحارسين. واتصلت بالقاهرة وكان الفضل لتدخل الدكتور فؤاد سلطان وزير السياحة وتمكنا من حجز الأماكن المطلوبة في هذا الوقت المتأخر مع تسهيلات أخري تكريما للضيف. واتفقت مع السيد وزير الاقتصاد المصري لمقابلة زميله الألماني عند وصوله القاهرة ومناقشة هذه المقترحات. وبدأت القاهرة في دراسة واختيار المشروعات التي تصلح للتنفيذ وتحقق الخطة المصرية، واستمرت الاتصالات بين الجانبين حتي فوجئنا بعد أشهر معدودة بأن وزير الاقتصاد الألماني قد رشح لأحد المناصب الكبري بالسوق الأوربية المشتركة، ثم ترك الوزارة وتسلم منصبه الجديد. وتواترت المعلومات بعد ذلك أن وزير الاقتصاد كان علي خلاف حزبي مع بعض الجهات الأخري، وعند رغبته في قضاء أجازته مع الأسرة في البحر الأحمر فضل الاتصال بسفارة مصر في بون بدلا من سفارته بالقاهرة حتي لايتسرب الخبر ويؤدي الي مشاكل حزبية. وعين الوزير الجديد، وقابلته والتقيت بعد ذلك مع كبار المسئولين بالوزارة، وخرجت بنتيجة أن هذا المشروع كان اجتهادا شخصيا للسيد الوزير، ولم تتخذ أي خطوات إيجابية لتنفيذه أو إنجاحه، وأنه فقد في دهاليز الوزارة بمجرد حدوث التغيير الوزاري.

ومازلت حتي اليوم اتساءل - في غيظ - هل كان تقديم هذا الاقتراح الذي يعتبر انقلابا في أسلوب المنحة خلال النصف الأخير من ديسمبر - شهر الأجازات - فكرة اقتصادية فعلا، أم كان ذلك تحقيقا لأهداف سياحية ترفيهية بطريقة ذكية....؟ وكان الله في عون دول العالم الثالث.

٩- الفرحة الكبري :

أقيم حفل العشاء بسفارة مصر، وفي الموعد المحدد توالي وصول سيارات المدعوين، والمعتاد أن تقف السيارة أمام باب المدخل، وينزل الضيف وحرمه ويسيران عدة خطوات الي السلم الموصل للصالون. وكانت سهرة ناجحة ديبلوماسيا واجتماعيا، وتبادل الجميع الضحكات ونحن نحاول أن

نترجم لهم اسم «الباسبوسة» بعد شرح مكوناتها، ولم يكن هناك مفر من تقسيم الاسم الي كلمتين «باس» و«بوسة» ونترجمها لكل اللغات الحية بأنها تعني «أخذ قبلة». وانتهي الحفل كأفضل ما يكون حوالي منتصف الليل، وودعنا الضيوف، وشكرنا من ساهم في إعداد الحفل والخدمة فيه، وصعدنا — زوجتي وأنا — للطابق العلوي، وتركنا المسئولين عن المكان يقومون بهمة فائقة بعمليات النظافة وإعادة الترتيب. وبدأنا في التعليق علي ما حدث بالحفل وما تم في المناقشات الجانبية، وإذا برنين التليفون، وأرد لأجد علي الطرف الآخر سفير هولندا الذي شارك في الحفل وهو يقدم شكره لحسن استقبالنا، ويثني علي جودة الطعام وعلي حسن اختيار المجموعة..... كل ذلك وأنا أشعر أن هناك في الأمر شيئاً، فليس من المتبع الاتصال بعد منتصف الليل لتقديم الشكر، وأحس في كلماته بنوع من التردد والارتباك.

تنتابني كل الأفكار السيئة، وأتساءل هل حدث لزوجته سوء نتيجة بعض الأطعمة التي تناولتها في منزلنا؟ أو هل حدث ما أساء إليه أو الي زوجته خلال الحفل؟ وينهي السفير تردده باعتذاره لإقلاقي في هذا الوقت ولكنه فقط يريد أن يخطرني — لمجرد العلم فقط — بأن زوجته كانت ترتدي «بروشا» ثمينا مشبوكا في صدر الفستان، وقد ورثته عن جدتها وله قيمة أثرية، هذا البروش لم يجدوه في الفستان عند العودة لمنزلهم، وقد فتشوا سيارتهم فلم يجدوه أيضا، ولذلك يتصلون بنا برجاء أن يهتم من سيقومون بأعمال النظافة بعد الحفل بالبحث عنه فلعلهم واجدوه أسفل المائدة أو تحت الكراسي، ووصف البروش بأنه فص أزرق كبير دائري الشكل، محاط بمجموعة من أحجار الماس علي شكل دائرة. ووعدته بالبحث عنه ومعاودة الاتصال به.

هرعت الي غرفة المائدة والصالون ووجدت معاوني الخدمة وهم يقومون باللمسات الاخيرة لعملية النظافة، وأبلغتهم بالأمر، واستعنا بالكشافات القوية للبحث تحت المائدة والكراسي والسجاد وكل مكان يحتمل أن حرم السفير قد تواجدت فيه، بل وتابعنا البحث حتي باب المنزل الخارجي، ولم نعثر علي هذه التحفة الضائعة. وصعدت لزوجتي لأبلغها بفشلنا فوجدتها مازالت مصممة علي رأيها الذي أبدته منذ دقائق، وهي أنها لاحظت عندما استقبلت حرم السفير عند المدخل فستانها الرائع، ولكنها تعجبت في نفس الوقت أن السيدة رغم أناقتها فقد فاتها أن تكسر حدة لون الفستان بوضع بروش بألوان معينة، أو ارتداء عقد بلون مخالف، وبدأت زوجتي في شرح قواعد تناغم الألوان في الملابس وملحقاتها، وأن فائدة المجوهرات ليس مجرد استعراض الثروة بل إنها تلبس لتخدم غرضا جماليا معينا وفق لون الفستان وتفصيله. وكانت زوجتي واثقة من دقة ملاحظتها وتؤكد بيقين أن السيدة عندما دخلت منزلنا لم تكن ترتدي أي «بروش». وكنت أشعر بالغيظ لأن حفلة جميلة كهذه تنتهي بحادث يعكر صفونا، وكنت أعلم أن مثل هذا الحادث سيكون حديث المجتمع الدبلوماسي لمدة طويلة. وفكرت في العاملين بالسفارة الذين قاموا بالخدمة أثناء الحفل، وبأعمال النظافة بعده، وأن أحدهم ربما عثر علي البروش المفقود، ولكنني استبعدت ذلك تماما، فإن المجموعة التي تعمل معي كانت

تتميز بالخلق الطيب والأمانة التامة بل والرجولة المصرية المتميزة، وبدأت اقترب من التليفون لأنقل لزميلي الذي ينتظر هذه المكالمة علي أحر من الجمرنبأ فشلنا في العثور علي البروش، ثم ملاحظات زوجتي، وفجأة سمعت صياحا أشبه بالصرخات الفرحة، وفي ثوان كنت بالدور الأسفل حيث وجدت أحد معاوني الخدمة في الشارع أمام باب السفارة، وقد عثر على البروش في الشارع، والمعجزة الكبري أنه وجده في المكان الذي تضطر فيه كل السيارات للوقوف لإنزال وركوب أصحابها مما يجعله عرضة لأن يداس ويكسر، والأدهي من ذلك أنه كان ملقي علي بعد عدة سنتيمترات من بالوعة موجودة بالشارع ومخصصة لاستقبال مياه الأمطار المنحدرة، وكانت فتحات غطائها تكفي وتزيد لابتلاع البروش، وكانت فرحتي الأولي أن القصة ستروي ولكن بدلا من نهايتها المأساوية، والتي ترتبط باسم السفارة، سيكون لها نهاية مفرحة علي طريقة الأفلام المصرية، بالاضافة الي تأكيد حسن السمعة والأمانة لرجال السفارة البسطاء، وسارعت - ومن فرحتي - بتقديم مكافأة مالية لكل الموجودين تعبيرا عن تقديري لهم. وصعدت لأحدث زميلي، وأبلغته بما حدث وبالمكان الذي وجدنا فيه «البروش» وخطورة هذا الموقع، وبملاحظات زوجتي، وخلصنا الي أنه لم يكن مثبتا جيدا، وأنزلق عند نزول السيدة من السيارة ودخلت السيدة المنزل بدونه وبذلك تأكدت ملاحظة زوجتي. وتعجبنا جميعا كيف أن «البروش» قد تفادي أن تضغط عليه عجلات السيارات عند القدوم وعند الرحيل، أو أن تدفعه قدم حيث يلقي مصيره مندفعا داخل البالوعة. ولاستكمال القصة فقد يكون من المناسب أن أذكر أن حرم السفير قد اتصلت في اليوم التالي بزوجتي لتشرح لها سبب الانزعاج والقيمة الأثرية للبروش الذي يورث للأجيال المتتابعة، ولتعبر عن سعادتها وشكرها، واستأذنت في أن ترسل خطاب شكر لمعاون الخدمة الذي عثر عليه، مع مكافأة نقدية، وقبلت زوجتي مبدأ الخطاب، أما الاقتراح الثاني فقد أبلغت زميلتها أنه قد تم بالامس فعلا مكافأة العاملين.

وهكذا كانت فرحتنا تعادل فرحة أصحاب البروش وإن اختلفت الأسباب.

١٠- عتاب االأشقاء :

عينت سفيرا بألمانيا في أغسطس ١٩٨٩، وكانت العلاقات الديبلوماسية مقطوعة بين عدد كبير من الدول ومصر نتيجة لزيارة الرئيس السادات للقدس. وكنت أوقن أنه من الممكن تنفيذ قرار الحكومات بقطع العلاقات وعدم القيام بالاتصالات السياسية أو الديبلوماسية بطريقة أقل جفاء وبكياسة تترك لفرص المستقبل أن تتم دون جراح يصعب التئامها. ولكن من المؤسف أن سلوك بعض الزملاء لم يكن منفذا بأسلوب الديبلوماسيين المحترفين، الذين يتركون عادة مجالا ولو ضيقا للعلاقات الشخصية بعيدا عن الديبلوماسية، بحيث لاتسود بين الأطراف مشاعر الحقد والكراهية ونظرات العداء. وكانت وسيلتنا المثلي - زوجتي وأنا - للتغلب علي هذه العقبة تكمن في توسيع دائرة الصداقات، بحيث تشمل المتحدثين بالانجليزية والفرنسية والأسبانية، وهي لغات نجيدها والحمد لله، وبذلك نتغلب علي اثار غياب المجموعة المتحدثة باللغة العربية. وكنت أضحك أحيانا وأنا أتبادل الحديث مع بعض السفراء

العرب الذين لم تقطع العلاقات بيننا وبينهم، وأقول لهم أن أهم ميزة لقطع العلاقات هو إعفائي من حضور الاجتماع الشهري للسفراء العرب وقد بنيت فلسفة هذا الاجتماع علي التقريب بين وجهات نظر السفراء العرب، ولمناقشة مشاكلهم مع الحكومة المضيفة، إلا أن هذه الاجتماعات تحولت للأسف الي معركة شهرية بين أطراف المشتركين، وقد انقسموا الي مجموعات متعارضة، وعادة ما ترتفع الأصوات ويخرج أسلوب المناقشة عن المستوي المفترض، ويشعر الجميع بالارتياح لانتهاء الاجتماع، ويبدأ العد التنازلي لإعداد معركة الاجتماع القادم، وأقرر هنا للأسف أن المجهودات والاجتماعات والتحركات التي بذلت لتكريس عزل مصر كانت تكفي لو اتجهت بنفس الحماس وجهة أخري لتحقيق أي هدف قومي عربي يتفق عليه.

وتمضي بنا الأيام في بون والمقاطعة مستمرة، والسفارة المصرية تمارس نشاطها واتصالاتها، ولا تعوقها – وإن ضايقتها – هذه المقاطعة، ولكن كنا نقابل علي المستوي الشخصي بعض الأحداث التي تدل علي ضيق الأفق وسوء التصرف ونكران الجميل، وأذكر يوما، كنت مع أسرتي نتناول الطعام في أحد المطاعم في عطلة نهاية الأسبوع، ودخل أحد السادة «المقاطعين» وكانت ترافقه أسرته، وقد تلقي سيادته تعليمه كله في مصر، وتربي أولاده وزوجته في المدارس والجامعات المصرية، ومر علي مائدتنا في تجاهل تام، وأحسست أنه إنسان صغير لم يستطع أن يفرق بين صفته وبين شخصه، ولعله لو ألقي السلام وتلقي الرد بأحسن منه في هذا الإطار الشخصي العائلي، فيقينا، فلن يعتبر ذلك «اعترافا رسميا يترتب عليه اثار قانونية».

أما الواقعة الأخري فبطلها سفير عربي له ممتلكات في مصر وأراد عمل توكيل رسمي بالقنصلية المصرية للسيدة حرمه، ولكنه وفقا لمبدأ قطع العلاقات لايستطيع الحضور للسفارة ليوقع بنفسه أمام القنصل المصرى كما تقرر قواعد الإشهار والتوثيق، وأرسل لي رسالة شفوية مع صديق للطرفين يرجوني أن أجد حلا لهذه المشكلة، وتذكرت صاحبنا وقد تجاهلني تماما منذ وصولي الي بون، وكنت إذا تقابلت نظراتنا في حفل رسمي لا أجد علي وجهه إلا تكشيرة غاضبة، ونظرات متحجرة – بناء علي تعليمات الحزب – وترددت في التفكير ولكن سرعان ما تذكرت أنني أمثل مصر بكل قيمها وحجمها الكبير، وقلبها الذي يسع الجميع، وتدارست مع الزميل محمد الضرغامي «القنصل» الذي تمكن من انهاء الموضوع بعملية إخراج يحسده عليها مخرجو افلام السينما وبطريقة تحفظ للقنصلية مهابتها، وتتفادي في الوقت نفسه المشاكل السياسية أو الحزبية التي قد يتعرض لها السفير لو علم عنه اتصاله بالبعثة المصرية.

وكان نصيبي من هذه العملية بسمة رضاء وشكر يرسلها اليّ سعادة الزميل – عن بُعْد – كلما تلاقت نظراتنا، وهو ثناء لو تعلمون عظيم.

١١- خطبة التوديع :

إستكمالا للحديث عن عتاب الأشقاء، أذكر أن ترتيب أقدميتي في بون كان يأتي مباشرة قبل السفير الإيراني، وكانت العلاقات السياسية مقطوعة بين البلدين، وكنا متجاورين دائما في أي حفل رسمي سواء لمقابلة رئيس الجمهورية أو المستشار الألماني أو العيد القومي.

وعند أول مناسبة رسمية وقفنا فيها متجاورين بين مجموعة السفراء تقدمت إليه مسلما بسلام الاسلام، وعرفته بشخصي وأبلغته أنه رغم قطع العلاقات الديبلوماسية بين بلدينا إلا أنني أقترح أن نبقي بيننا الحد الأدني - علي الأقل - من الاتصالات بدلا من المقاطعة ونظرات العداء، حتي إذا قدر الله وقررت السلطات السياسية في البلدين - وهذا وارد دائما في الديبلوماسية - عودة العلاقات فلا يكون أمامنا عقبات نفسية أو رصيد من الأحاسيس الشخصية السلبية المتراكمة. ووافقني الزميل المثقف، فكنا في هذه المناسبات الرسمية التي ندعي اليها سويا نتبادل الأحاديث والمناقشات البناءة في كل شئ عدا العلاقات الثنائية، وأشهد أنه كان سفيرا مطلعا ملما بالتطورات العالمية في حينها، وكان بعض السفراء الذين يمثلون بلادا قطعت علاقتها الديبلوماسية مع مصر ينظرون إلينا ويندهشون، كيف نملك الجرأة للحديث سويا دون خشية من انتقام حكوماتنا لو تسرب إليها الخبر.

وكنت في هذا المجال أتذكر قصة ديبلوماسية سمعتها بنفسي، ثم أكدها لي الدكتور عصمت عبد المجيد وهو وزير للخارجية. فعندما كنت سفيرا لمصر باليابان اقترح علي سفير هولندا أن يدعوني علي عشاء خاص مع سفير اسرائيل. ورغم وجود العلاقات الديبلوماسية بين مصر واسرائيل إلا أنني كنت أحس أنني غير مستعد نفسيا لحضور هذه المناسبة الاجتماعية فكنت أعتذر بكياسة.وكان السفير الهولندي يذكر لي أن الدكتور عصمت عبد المجيد قد قابل السفير الاسرائيلي في منزل السفير الهولندي لأول مرة في تاريخ العلاقات المصرية الاسرائيلية قبل عودة العلاقات. ومضت أيام حتي عدت للعمل بوزارة الخارجية بالقاهرة ورويت ما قاله السفير الهولندي للدكتور عصمت عبد المجيد الذي أكد لي صدق الرواية، وحكي لي كيف أنه كممثل مصر الدائم في الأمم المتحدة كان صديقا لممثل هولندا، وكان الأخير لا يمل من تكرار تقديم الدعوات للدكتور عصمت عبد المجيد لحضور عشاء خاص لا يحضره سواهما بالإضافة لسفير اسرائيل باللأمم المتحدة مع وعد بالكتمان، واعتبار الأمر مناسبة شخصية خاصة. وكان الدكتور عصمت يقابل هذه الدعوات المتكررة بابتسامته المهذبة، ويرد علي زميله بأن مثل هذا الاجتماع لم يأت وقته بعد. وعندما ظهرت في الأفق بوادر زيارة الرئيس السادات للقدس طلب من الدكتور عصمت أن يجتمع مع زميلة الاسرائيلي لدراسة ترتيبات معينة، وتذكر الدكتور عصمت وسائل الاعلام الأمريكية النشيطة وأسلوبها في عرض الأحداث بما قد يؤدي لفشل الهدف المقصود من هذا الاجتماع، ولم يجد مفرا من الاتصال بزميله الهولندي ليذكره بأنه طالما دعاه الي عشاء خاص لا يحضره إلا ثلاثة - بأسلوب لا يفصح عن الاسماء - وأنه الآن يقبل هذه الدعوة في منزل السفير الهولندي مع رجاء مراعاة السرية وعدم النشر.وتم الاجتماع وتكرر بعيدا

عن وسائل الاعلام، وتحقق الهدف الذي كان مرجوا منه. ولعل هذه الواقعة تذكرنا بأنه لا عداوة مطلقة أو خصام أبدي في الديبلوماسية، وأنه لابد من ترك مساحة إنسانية معقولة لإمكانية الاستفادة منها مستقبلا خاصة مع المبدأ الأساسي للديبلوماسية وهو أن كل وضع قابل للمناقشة والتغيير.

وأعود الي ذكريات بون وكيف قوبلنا عند وصولنا بكل تجهم ومقاطعة ولم يمنعنا هذا من تحقيق رسالتنا وتوسيع دائرة الأصدقاء خارج دوائر المقاطعة. وعندما أعيدت العلاقات، عادت الابتسامة المفقودة الي وجوه الزملاء وهم يقابلوننا بالأحضان - العربية - ونسوا بسرعة نظرات التحدي والتجاهل التي كانت توجه لنا. وتعمدنا أن نظهر بمظهر من نسي الحسابات القديمة، وقلنا مع مخططي السياسة المصرية «عفا الله عما سلف» وأبدينا كل تعاون صادق، واقترب منا الزملاء أكثر، وعرفونا علي المستوي العائلي والثقافي والحضاري، وعبروا عن مشاركتهم بكلمات أحسسنا صدقها، وكانت أسفا علي الفترة الزمنية التي انقضت وكل منا بعيد عن الآخر. وسارت الأيام، وتوثقت العلاقات، وحان موعد مغادرتي لألمانيا نهائيا، وتوالت دعوات السفراء العرب وزوجاتهم تكريما لنا، وقبلنا الدعوات وفي نهاية كل حفل نتبادل مع الداعي الكلمات التقليدية المتضمنة الشكر، والتنويه بعلاقات المودة والأخوة، وكان مسك الختام هو حفل التكريم الذي أقامه عميد السلك الديبلوماسي العربي - سفير قطر - والسيدة حرمه.

دعي للحفل كل السفراء العرب وزوجاتهم وكبار المسئولين الألمان، وقبل نهاية العشاء حانت لحظة تبادل خطابات التحية المعتادة، وتفضل العميد فبدأ خطابه بكلمات تشيد بدور مصر الحضاري، وذكر عنا بعض ما لمسه وعايشه من تصرفاتنا ونشاطنا في الحقل الديبلوماسي بالعاصمة الألمانية. وجاء دوري للرد علي خطابه وقد شكلت كلماته الرقيقة مأزقا حقيقيا بالنسبة لي، ففي الصباح قضيت وقتا طويلا بالسفارة، وأنا متردد في اختيار الخط الذي يسير عليه خطابي هذا، هل أتكلم بصراحة عن أسلوب استقبال السفراء - بما فيهم العميد - لنا عند وصولنا بون والعلاقات السياسية مقطوعة؟ والجفاء - بلا مداراة - الذي واجهناه، ثم التغير الي النقيض بطريقة ميكانيكية عند عودة العلاقات؟ وإحساسنا كبشر ونحن نواجه الموقفين المتناقضين في الوقت الذي تحكمنا في الحالتين قواعد الديبلوماسية واللياقة. وطال التفكير، واستمر التردد حتي اهتديت الي حل وسط أخذت به، وأذكر أنني بدأت خطابي كالمعتاد بالتحية والتقدير لمشاعر الأخوة والزمالة، ثم ذكرت لهم مدي سعادتي وأنا أجد نفسي ومعي زوجتي محل تكريم من الزملاء العرب في بون، وأن هذا الشعور الأخوي والاعتزاز بعروبتنا جميعا قد عاد بذاكرتي الي اليابان، حيث كنت سفيرا لمصر وانتهت مدة خدمتي وبدأت حفلات التوديع المعتادة، وتبادلنا مع أصحاب الدعوات الكلمات التي كانت تلقي بالانجليزية أو بالفرنسية أو الأسبانية وفقا للغة المضيف، وكنا سعداء بهذا التكريم، ولكننا في أعماقنا كنا نشعر أن هناك نغما حبيبا نفتقده. إن حفلات التكريم كانت سيمفونية رائعة ولكنها بالنسبة لنا تنقصها - آلة عربية - تعزف اللغة العربية بموسيقاها الحلوة التي تصل بسهولة وحب الي أسماعنا وقلوبنا. ذكرت

أنني أحمد الله أن هذا النغم الحلو يتردد الآن ونستمتع به وندعو الله ألا ينقطع مهما اختلفت سياسات الحكومات، واستمر الخطاب في عملية «الإسقاط» علي فترة عملي في اليابان، وكنت أرتجل الخطاب – المعد بعناية من قبل – ويبدو أنني كنت منفعلا قليلا، وكانت خطبة مليئة بالمجاملة، ولكنها تبعث بإشارات واضحة، وقد فهم الزملاء الرسالة المقصودة بين الكلمات، وساد الصمت التام، واستعاد كل منهم ما قدمت يداه، وبعد انتهاء الحفل تسابق الزملاء للتعبير عن مشاعر الود ولسان حالهم يقول «عفا الله عما سلف».

١٢– الاحتلاف بذكري بتهوفن :

تلقي السفراء المعتمدون لدي ألمانيا الاتحادية – قبل الوحدة – الدعوة لحضور الحفل السنوي لتكريم بتهوفن في المسرح العظيم الذي حمل إسمه. وكانت مناسبة عزيزة علي الشعب الألماني الذي يضع الموسيقار بتهوفن في مكان القداسة كجزء من تاريخ وحضارة ألمانيا، وقد أقيمت له التماثيل في أغلب مدن ألمانيا، أما في العاصمة بون فقد توسط تمثاله الضخم أهم الميادين وذلك بالقرب من منزله الذي يعتبر مزارا سياحيا. وقد زرت المنزل مرات عديدة بصحبة ضيوف وأصدقاء من مصر، وكان انبهارنا شديدا لنجاح وسائل الاعلام الألماني في جعل هذا المنزل – المتحف – المتواضع قبلة للسائحين. المنزل بسيط، وضعت عليه لوحة نحاسية تشير الي أنه منزل «بتهوفن»، ويحرص السياح علي التقاط صورهم أمام هذا المنزل، وندفع الرسوم، ونتسلم التذاكر لندخل الي حديقة صغيرة، ونصعد عدة درجات لنشاهد غرفة النوم الخاصة بالموسيقار، ثم غرفة أخري بها بعض أدوات المعيشة الخاصة به، وعدة غرف أخري قد عرضت بها آلاته الموسيقية المتعددة، وكذلك النوت الموسيقية التي كتبها أو شرع فيها، وكلها في خزائن زجاجية وعليها بعض البيانات باللغات المختلفة، وعلقت علي الحوائط مجموعة كبيرة من صوره في كافة المناسبات. ويتقدم الزائرون الي غرف المتحف القليلة بهدوء وفي صمت تام احتراما لذكري هذا العبقري الخالد، تنتهي الزيارة لنجد عند الخروج اسطوانات وشرائط مسجلة لموسيقي بتهوفن، وكتباً جميلة تتحدث عن حياته وفنه ولايفوتنا أن نشتري البعض منها لنسعد بالقراءة والاستماع الي موسيقي هذا العبقري.

نعود الي حفلنا الذي يقضي البروتوكول أن نحضره بالملابس الرسمية – الاسموكنج – لنكون في ضيافة مستشار ألمانيا مع الوزراء وكبار المدعوين، يبدأ الحفل بالسلام الوطني الألماني، ويتتابع الخطباء وكل منهم يتكلم عن جانب من جوانب العبقرية في بتهوفن، والحفل مذاع علي الهواء بالتلفزيون وكافة الإذاعات الألمانية، والمتحدثون يعلمون ذلك، ولا يستطيعون مقاومة إغراء الميكروفون وتطول كلماتهم، والكثير منا لا يجيد اللغة الالمانية، ولم تعمل ترتيبات للترجمة الفورية.

يسعد الانسان بلا شك بالاستماع الي موسيقي بتهوفن مهما طالت مدة الاستماع، أما أن يفرض عليه الانصات لاكثر من ساعة ونصف الساعة لخطب تلقي بالألمانية عن أمجاده فإن ذلك

يجهد المستمع حتي ولو كان ديبلوماسيا، ويبدو أن الخطب قد طالت، وساد الملل بين الجميع، وأخيراً وبعدطول انتظار رفع الستار عن فرقة موسيقية ضخمة تقودها - كمايسترو - سيدة غاية في الرشاقة والجمال وترتدي «الفراك» الأسود وتمسك بيدها عصا صغيرة رقيقة لتقود بها فرقة العازفين. إنبهر الجميع وتساءلنا كيف لهذه السيدة الجميلة الرقيقة أن تسيطر علي هذه المجموعة الكبيرة من أساتذة الموسيقي في ألمانيا، وأن تقودهم لتخرج لنا كل هذه الأنغام الحلوة، وبدأ العزف وانسابت الألحان الرائعة، وشعرنا جميعا أن العصا الصغيرة في يد هذه الحسناء هي التي تتحكم تماما في أسلوب العازفين وتناسق اللحن. تذكر صاحبنا مدي المعاناة التي عاشها مع المتحدثين بالألمانية لمدة قد طالت حتي سيطر عليه وقتئذ الملل، ثم هذه النغمات الحلوة وهي تتسرب الي أذنه وحواسه وهو مستمتع بها الي مالا نهاية، هذه المفارقة بين الملل والمتعة الجميلة دفعته الي مشاكسة جاره سفير اليمن الشمالي - قبل الوحدة - السفير مصطفي يعقوب، الشاعر الموهوب، فكتب له صاحبنا علي تذكرة الدعوة ما قد ى كون زجلا بعنوان «المايسترو الجميلة».

الموسيقي ماشية مع العصاية اللي ماسكاها.

وقلبي زغـــرد ورقص مــــع البسـمة إيـاها

وجاءه الرد مكتوبا علي نفس التذكرة :

تمنيت لو أني العصاة بكفها

أو أني من الأوتار حيث تؤشر

ويبدو أن جمال الأنغام والجو الفني الساحر قد زاد من رغبة صاحبنا في مشاكسة جاره الشاعر فكتب له بعنوان لعله زجل :

شغلتني عن النغم الحلوة

نفس أغني معاها غنـــوة

ورد الشاعر الكبير بقوله :

طلعـت مثلما القمر   مثلما نســـــمة السحر

شغلتني عن السماع   وقـــــلبي بهـــا انسر

وكانت النغمات الحلوة التي استمعنا اليها هي خير تعويض عن ساعات الملل التي عشناها.

١٣- هل من حق طرف واحد تعديل قواعد اللعبة الديبلوماسية ؟

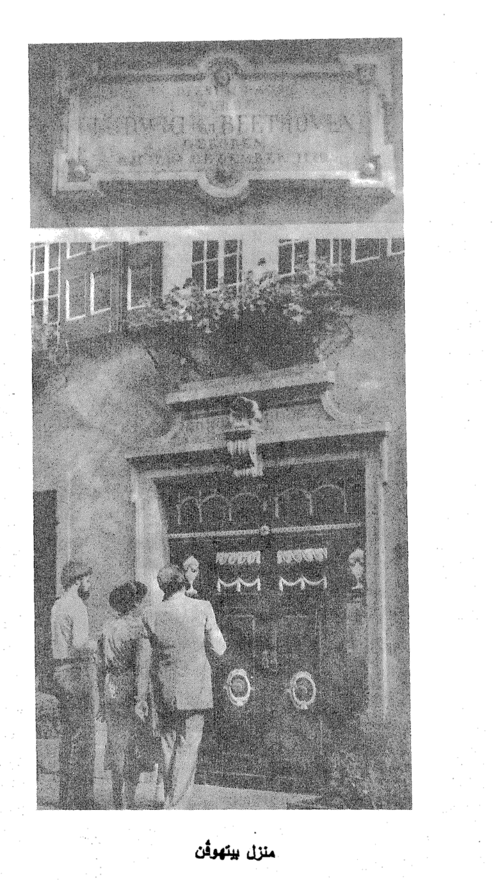
أذكر أن كثيرا من السفراء المعتمدين في بون كانوا دائمي الشكوي من أسلوب تعامل السلطات الألمانية مع سفاراتهم، ويتهمون هذا الأسلوب بالجمود، والوقوف بتقديس أمام النصوص، والدقة في كل التصرفات الي درجة الازعاج، وكانوا يتعجبون عندما أقرر لهم أنني لم أجد مشكلة في التعامل مع الألمان، ويضحك الزملاء ويرجعون ذلك الي معاشرتي لليابانيين لمدة أربع سنوات كسفير لمصر هناك، ولاينسون ترديد المقولة بأن «ألمانيا هي يابان الغرب، واليابان هي ألمانيا الشرق» وسارت بنا الأيام في بون وتصورت أنني قد فهمت العقلية الألمانية تماما، حتي حدثت الواقعة التي سأرويها، والتي أثبتت أن هناك - حتي بين الألمان - الاستثناء الذي يثبت القاعدة.

تحدد موعد الزيارة الرسمية للسيد الرئيس لألمانيا في مارس ١٩٨٩ . توالت الاجتماعات مع المسئولين بوزارة الخارجية لترتيب البرنامج، ونظراً لأن حرم رئيس البرلمان الفيدرالي كانت في هذا الوقت هي السيدة الأولي في البروتوكول، فقد اتفق علي أن تقيم مأدبة غداء تكريما لحرم الرئيس المصري، في نفس الوقت الذي يقيم رئيس الجمهورية الألماني حفل غداء للرئيس ومرافقيه من الرجال. والمتبع في مثل هذه الحفلات أن يدعي اليها خلاصة من السيدات الألمانيات ممن يقمن بنشاط سياسي أو اجتماعي أو ثقافي مع مجموعة أخري من السيدات المصريات. أبلغني السفير مدير المراسم بالخارجية الألمانية وهو يبتسم ابتسامة ديبلوماسية نجيد سويا ترجمتها وفهمها بأنه تلقي تعليمات من بروتوكول البرلمان أن حفل الغداء الذي سيقام بمعرفتهم سيكون بسيطا، ويدعي إليه أربع سيدات من الجانب الألماني، منهن ثلاث زوجات وزراء ثم المضيفة، وطلبوا أن تقدم السفارة أسماء ثلاث سيدات مصريات بالاضافة لحرم رئيس الجمهورية. ولم أتردد في إبلاغهم بأسماء حرم الوزير الدكتور عصمت عبد المجيد، وحرم السفير ثم عضوة بالوفد المصري. وفهمت من السفير رئيس البروتوكول أنه حاول إفهام المسئولين عن البروتوكول بالبرلمان أصول حفلات التكريم وقواعدها المتبعة، والإعداد والشخصيات الهامة التي عادة ما تدعي في هذه المناسبات، إلا أنه لم يجد استجابة، وطلبوا منه ترك الأمور للمسئولين عن البروتوكول بالبرلمان. شرحت للسفير الزميل أن ذلك لا يسبب أي ضيق لنا، ويمكن للسفارة المصرية ومراسم الخارجية معالجة ذلك بدعوة هذه الشخصيات الهامة في حفلاتنا، واتفقنا فعلا علي ذلك، وتمت المناقشات النهائية للبرنامج واعتمدت من القاهرة وبون لتبدأ خطوات الاعداد والتنفيذ.

كان من المقرر أن تبدأ الرحلة من القاهرة صباح يوم الاثنين في الثامنة صباحا، وتكون «بون» هي المحطة الأولي في الزيارة تتبعها باريس ثم لندن. وفي يوم السبت الذي يسبق الزيارة عدت الي منزلي بعد حضوري حفل عشاء بإحدي السفارات، وفور دخولي المنزل اتصل بي الزميل الوزير المفوض بالسفارة مبلغا إياي بأن السفير مدير البروتوكول الألماني اتصل بي بالمنزل ولم يجدني، ولذلك فقد اتصل به بالمنزل في الساعة الحادية عشرة مساء، وطلب منه إبلاغي رسالة عاجلة ومهمة مع ملاحظة

بسيطة، وهي أن دوره ينحصر في أن ينقل إلينا الرسالة من بروتوكول البرلمان الاتحادي، ولا دور له في مضمون الرسالة أو توقيتها، وتتضمن الرسالة أن حفل التكريم الذي سيقام بمعرفة حرم رئيس البرلمان سيدخل عليه بعض التعديلات البسيطة التي يرون إخطارنا بها للعلم. أول هذه التعديلات هي دعوة حرم سفير المغرب بصفتها حرم عميد السلك العربى في بون، ثم حرم سفير فرنسا لأن الرئيس سيسافر من ألمانيا لفرنسا، ثم حرم سفير انجلترا لأن الرحلة تتضمن انجلترا بعد فرنسا، ثم حرم سفير إسرائيل لأنها صديقة حميمة لحرم رئيس البرلمان، ثم إضافة بسيطة بأن عدد الجانب المصري سيبقي كما هو. استمعت للرسالة بهدوء، وتذكرت ما شعرت به من قبل من أن المسئولين عن البروتوكول بالبرلمان تنقصهم الخبرة والحنكة ويفتقدون الي القواعد الأساسية البروتوكولية في التعامل مع السفارات، ولم يعجبني تكرار الخطأ بفرض برنامج علينا قبل أن نناقشه ونوافق عليه تفصيليا، وخاصة وقد اعتمدنا البرنامج النهائي وتم طبع التفاصيل في كتيب الزيارة، وأثارني أن يطلب التغيير في اللحظات الأخيرة التي تسبق الزيارة، خاصة وأن غدا هو الأحد يوم العطلة الأسبوعي للبرلمان وللخارجية، ورأيت أن كل ذلك فيه خروج عن قواعد اللعبة الديبلوماسية التي نعرفها.

وأخذت أرتب أفكاري لأصل للقرار الملائم، وكنت أعرف أن وسائل الإعلام الألمانية تتعاطف في هذه الأيام مع أطفال الحجارة الفلسطينيين، وتعرض صورهم بأجسامهم الصغيرة وهم يقاومون المحتل بالطوب والنبال، وقد نجح هؤلاء الأطفال في كسب تعاطف واحترام الرأي العام. ولم يحتج الأمر الي وقت طويل لأمارس التصرف وفقا للقواعد الألمانية التي تعلمتها والتي أحترمها، والتي تعني احترام ما اتفق عليه وتنفيذه بكل دقة وعدم قبول تغييره، وأمليت علي زميلي رسالة للسفير مدير بروتوكول الخارجية تتكون من عدة نقاط بسيطة: أولها أنه لايوجد بروتوكوليا ما يمنع من حضور كافة المدعوات الجدد، إلا أنني أصر علي تنفيذ ما اتفق عليه بحذافيره، ولا أقبل أي تغيير، خاصة وأنه كان اقتراحا ألمانيا صرفا ولم يطلب مناقشته من السفارة، وشرحت أن البرنامج النهائي قد اعتمد من القاهرة وطبع فعلا، ولا أملك قبول أي تغيير فيه، كما أن الوقت المتبقي لبداية الزيارة لايحتمل لقصره إرسال أي مقترحات للقاهرة. وختمت الرسالة بأنني أرجو بقاء البرنامج القديم فإذا تعذر ذلك فيلغي هذا الحفل، وسيحل محله في البرنامج حفل غداء خاص تقيمه السفارة، وتدعو إليه من تشاء، ثم طلبت من الزميل أن يبلغ السفير مدير المراسم أن الموضوع والوقت لا يسمحان بمناقشة أخري. وما هي إلا فترة قصيرة حتي عاد الزميل ليتصل بي لإبلاغي أنه تلا الرسالة كما هي علي السفير مدير البروتوكول الذي أعاد الاتصال به قبل لحظات لينقل إلينا رسالة اعتذار من مدير بروتوكول البرلمان مع رجائه باستمرار البرنامج كما هو. وهكذا عرف الآخرون أنه ليس من حق طرف واحد تعديل قواعد اللعبة الديبلوماسية، وأن مسائل البروتوكول تحكمها قواعد وأصول قد لا يدركها الهواة، أما أسلوب الرد الحاسم فهو تطبيق للمثل المصري «من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم».



منزل بيتهوڤن

اليابان

١- التكنولوجيا نعمة أم نقمة؟

كان لي الشرف أن أعين سفيراً لمصر في اليابان ابتداء من يناير ١٩٨١ حتي انتهاء عملي بها بعد أربع سنوات. ولعل من أطرف المآزق التي لا أنساها ما حدث لي ومعي زوجتي في الأسبوع الأول من وصولنا. كان مسكن السفير عبارة عن فيللا صغيرة نوعا ما، ولكن صاحبها وهو مهندس الكترونات كان قد بناها لاستخدامه الخاص، ووضع فيها كل ما انتجته التكنولوجيا الحديثة من وسائل التأمين، بالاضافة الي بعض الخدمات الالكترونية المتقدمة بالداخل.

لننس مأزقنا مؤقتا لنتحدث عن استخدامات التكنولوجيا التي طبقت في الفيللا. كانت جميع بلكونات وشبابيك المنزل ينسدل عليها ستائر مكونة من مواسير مترابطة من الصلب، بالاضافة للمكونات العادية من خشب وزجاج، ويضغط علي مفتاح كهربائي من الداخل فتنزل الستارة الصلب بهدوء ويتعذر اقتحام المكان تماما، وترفع الستائر بنفس الطريقة الكهربائية. ووجدنا في جميع الغرف أجهزة استشعار يمكن تشغيلها، وتعطي إنذاراً مباشرا في قسم الشرطة، بالاضافة الي تشغيل جرس مزعج للغاية معلق خارج المبني إذا دخل شخص أيا من هذه الأماكن دون معرفة أسلوب إبطالها مقدما.

تبين أيضا أنه يوجد بغرف النوم تلفزيون معلق من السقف بزاوية معينة تسمح للنائم علي السرير بتشغيله ومشاهدته، وبالإضافة الي سماعات منفصلة ليقتصر سماع الصوت عليه وحده دون إزعاج الآخرين الذين يفضلون النوم. ويوجد في غرفة النوم الرئيسية دولاب أنيق للغاية يخفي بداخله لوحة التحكم المركزي التي تحوي الكثير من العلامات المضيئة بالألوان الحمراء والخضراء، مع «زراير» متعددة، وتبين أن هذه اللمبات تعطي إنذارا عندما لا يغلق أحد الأبواب مع تحديد مكانه، وكذلك الشبابيك التي لم يحسن إغلاقها، وتسجل ارتفاع درجة غليان المياه في جهاز التدفئة، كما تشير الي تسرب الغاز، وتحدد أماكن وجود أي لمبات مضاءة في المنزل، وبذلك تعطي صورة واضحة تماما لكل عناصر الأمن داخل المسكن وخارجه.

احتاجت هذه اللوحة لعدة ساعات من الدراسة لنتمكن من فك رموزها وطريقة استخدامها، خاصة وأن الرعب كان يصيبنا عند مشاهدة لمبة حمراء مضاءة في اللوحة، ويشتبه علينا الأمر ونتوقع انفجارا في غلاية ماء التدفئة، وكنا نقوم يوميا قبل النوم بمراجعة هذه اللوحة لنتأكد من أن كل شئ علي مايرام. وقد أثبتت هذه اللوحة فاعليتها في إحدي المرات، عندما وجدنا يوما لمبة مضاءة تدل علي أن باب الجراج الأوتوماتيكي غير مغلق، وكنا علي ثقة من أن السائق قد أقفله بعد عودتنا من الخارج.

وبدأت الهواجس، وتسلحت ببعض من الشجاعة ونزلت للجراج لأستكشف الأمر، وتبين فعلا أن السائق لم ينتبه لوجود قطعة صغيرة من الخشب لا ترتفع عن الأرض أكثر من سنتيمتر واحد قد تواجدت في المكان الخطأ ومنعت باب الجراج من النزول الي نهاية المجري المخصص له، ومن هنا ظهرت إشارة التحذير في اللوحة التي وجهتنا لإغلاق الباب جيدا، كما انتشرت في الحجرات وفي القاعات صناديق زجاجية مربعة ركبت في الحوائط، وبداخلها «زرار» أحمر اللون وتظهر فائدة هذا الجهاز لو تمكن مقتحم من الدخول - رغم الاحتياطات الأخري - فيمكن ببساطة كسر الغطاء الزجاجي الرقيق، والضغط علي «الزرار» فيعطي إنذارا مباشرا في أقرب قسم للشرطة مع ظهور عنوان المنزل علي الشاشة، ويرافق ذلك إصدار صوت إنذار مرتفع ومزعج من جهاز مركب بطريقة غير مرئية في حائط المنزل المطل علي الشارع.

وقد كانت لنا تجربة طريفة مع هذا الجهاز الانذاري، حينما حضر شقيقي وزوجته لزيارتنا، وأثناء مرور الزوجة بالردهة اختل توازنها لسبب ما، فاستندت بيدها علي الحائط، ولسوء الحظ اختارت يدها هذه السنتيمترات المعدودة التي وضع بها الجهاز وصندوقه لتستند عليها، وطبعا كسر الزجاج، وانضغط «الزرار»، وبدأت السارينة الموجودة بالشارع في إصدار صوتها المزعج، وهرعت الي التليفون لأخطر الشرطة بأنه إنذار كاذب، ثم أوقف عمل الجهاز، ورغم ذلك وبعد دقيقتين وصلت سيارة الشرطة ليتأكد الضابط بنفسه، ولما أبلغته، أنني اتصلت برئاسته تليفونيا قال بأنه يعلم ذلك ولكن من يدريه أن من اتصل فعلا هو من أهل المنزل وليس من المقتحمين، أو أن أهل المنزل اتصلوا تحت التهديد لتضليل الشرطة، ولذلك حضر الضابط لكي «يطمئن قلبي»، وسعدت لهذه الكفاءة والدقة. أما حرم شقيقي فمازلت امزح معها حتي اليوم مقررا لها أن اسمها مازال مدرجا في سجلات شرطة طوكيو.

أما ما حدث لي ولزوجتي مع التكنولوجيا فإنها ورطة تستحق أن تروي. خرجنا يوم الأحد وهو يوم الأجازة الأسبوعية، وكالمعتاد نزلنا الي الجراج من داخل المنزل، وركبنا السيارة وخرج السائق بها من الجراج، وضغط علي «الرموت كونترول» اليدوي الموجود بالسيارة فأغلق الجراج خلفنا، وتجولنا في وسط المدينة وأصابنا الانبهار ونحن نشاهد كل هذا التقدم وروعة المعروضات وسيطرت علينا دهشة الغرباء، ورأينا أن الاستمتاع بكل هذا الجمال سيستغرق وقتا، وفضلنا أن ينصرف السائق بالسيارة حيث يودعها الجراج بالمنزل ثم يذهب لقضاء وقت راحته واثقين أنه من السهل علينا العثور علي سيارة أجرة والعودة للمنزل بعد انتهاء «الفسحة». واستمتعنا بكل ماشاهدناه وكنت أحمد الله أن أغلب - وللأسف ليس كل - المحلات كانت مغلقة وبذلك لم تواجه ميزانيتنا النقدية اعتداءات خطيرة. وأخذنا طريق العودة وأظهرت لسائق التاكس العنوان المكتوب باليابانية - وهي أسلم طريقة للوصول الي هدفك في طوكيو - ووصلنا الي منزلنا العامر، وهنا فقط تذكرنا المعلومات التالية :

- أن الترباس اليدوي الداخلي للباب الرئيسي مغلق منذ مساء السبت ولم يفتح نظرا لوجود

كل العاملين بأجازة يوم الأحد، وبذلك يتعذر الدخول بالمفتاح الذي معنا، وتذكرنا الأغنية الشعبية التي تقول «سرقوا الصندوق يامحمد، لكن مفتاحه....» . أما الجراج فلعنة الله عليه وعلي التكنولوجيا الحديثة فهو يفتح «بالروموت كونترول» الموجود داخل السيارة والتي أودعها السائق داخل الجراج.

وورد علي الذهن خاطر بأن نلقي نظرة علي الأبواب والشبابيك، وإذا بها جميعا مؤمنة بستائر من المواسير الصلب ولا فائدة من محاولة إقتحامها. ورأيت أن أتصل بالسائق في منزله ليحضر ومعه مفتاح الباب الخلفي الذي يستخدمه عند حضوره كل صباح، ردت عليّ زوجته التي لا تتحدث إلا اليابانية بما يفيد أنه غير موجود، وتكرر الاتصال علي فترات بمنزله وهو لم يصل بعد، وأحسست أننا نواجه مأزقا جديا ولا مفر من البحث عن فندق نبيت فيه هذه الليلة واخترنا «كافتيريا» لطيفة لنقضي بها بعض الوقت قبل التوجه للفندق، وفي محاولة أخيرة بعد انتهاء جلستنا عاودت الاتصال بالسائق، وتنفست الصعداء وهو يرد علي، وأخبرته بالمشكلة وحضر مسرعا لنتقابل ويفتح لنا الباب الخلفي، وندخل بيتنا ونحن نتساءل هل التكنولوجيا الحديثة نعمة أم نقمة؟

٢- مقلب ياباني رمضاني :

أقبل شهر رمضان المبارك علينا في طوكيو ومعنا ولدينا خلال أجازة الصيف. وبدأنا ننقل بعض العادات الرمضانية الي منزلنا لنعيش هذا الجو الإيماني الجميل مع العادات المصرية التي تذكرنا بالتجمعات العائلية الدافئة، والتي نفتقدها هنا خلال هذا الشهر، وتم اكتشاف البقال التركي الوحيد في طوكيو حيث يتوافر لديه الفول المدمس والكنافة الرائعة، وأعددنا الخطط لتعويض أولادنا عن أيام فراقهم لنا لبقائهم للدراسة بالقاهرة. وأخذا بنظرية أن أقرب طريق الي قلب الإبن هو معدته، قامت زوجتي باستطلاع الآراء لمعرفة ما يفضله الأبناء علي مائدة إفطار أول يوم من رمضان، وتعددت الرغبات، خاصة وقد بدأت آثار الصيام – منتصف النهار – تحدث تأثيراتها، وذكرني ذلك برحلاتنا أيام الشباب الي ميدان سيدنا الحسين لصلاة العصر والعودة للمنزل محملين بكل أنواع المأكولات التي صادفتنا، ثم الحكمة التي تعلمناها في أمريكا وهي ألا ندخل «السوبر ماركت» ونحن نشعر بالجوع حتي لانقوم بشراء ما لايلزم.

قامت زوجتي بكل أمانة بنقل كل رغبات الأبناء الي الطاهية اليابانية، وبدأت الأخيرة في الكتابة، وعند الانتهاء من الكشف التفتت الي زوجتي وقالت أن لديها سؤالين : أولهما لماذا حددت الساعة السادسة والأربعين دقيقة موعدا لتقديم الأكل ساخنا وليس قبل ذلك أو في موعد العشاء الطبيعي ؟ وشرحت لها زوجتي أن اليوم هو أول شهر رمضان وأن المسلمين في شهر رمضان يصومون عن الأكل والشر ويأكلون في موعد هو موعد غروب الشمس، وهنا أبدت الطاهية اليابانية منتهي الدهشة، وتساءلت عما إذا كان «رمضان» الخاص بالمسلمين هو غير «رمضان» الخاص لـ....؟ وذكرت اسم سفارة إسلامية وأردفت أنها عملت في منزل هذا السفير المسلم قبل نقله منذ سنوات

وعاصرت رمضان مرات عديدة، ولم يكن نظام الأكل في المنزل يتغير سوي مرة واحدة خلال الشهر عندما يدعي بعض أفراد الجالية علي حفل عشاء في نهاية شهر رمضان، فلماذا التعقيد بالنسبة «لرمضان» المصريين؟. أما الشق الثاني من الاعتراضات فهو عن كمية الطعام الضخمة المطلوب إعدادها، وقامت بترديد ما حفظته ودرسته في الكتب عن عدد السعرات الحرارية المطلوبة لكل منا وفقا لسنه، وأنه يمكن استثناء زيادتها بالنسبة للأولاد لأنهم في سن النمو.

يبدو أن قاعدة «الدفع ثم التظلم» التي تطبقها مصلحة التليفونات قد ترجمتها زوجتي الي «يطهي الأكل أولا ثم نتناقش»، ونفذ الأمر دون اقتناع، وفي الموعد المحدد كانت المائدة الرمضانية معدة علي الطريقة المصرية الأصيلة، يتوسطها طبق «الملوخية» وتزينها صينية الكنافة، وحان موعد الإفطار، وتناولنا طعامنا ونحن نحمد الله علي جمع شمل الأسرة في هذه المناسبة المباركة. وانصرف الأب وولداه لتواجه الأم بمحاضرة من الطاهية اليابانية العجوز عن زيادة كمية الطعام عن القدر المطلوب، وأن ما تبقي سيجري عليه ما درسته في مدارس الطهي من ضياع أغلب العناصر المفيدة فيه، وضحك الأولاد وهم يستمعون لموجز المحاضرة التي تبينوا صدق ملاحظاتها، وتعلموا الدرس وتواضعت طلباتهم في الأيام التالية، وسارت الأيام الرمضانية في هدوء وروحانية في ظل نظام غذائي معين يختلف عن بقية العام.

وفي الأسبوع الثاني من رمضان تلقينا دعوة علي العشاء من الطبيب الياباني لأمراض القلب الذي يشرف علي علاجي، وتشمل الدعوة الأبناء بمناسبة وجودهم في طوكيو، وكنا نحمل له ولزوجته وأبنائه كل محبة، وتربطنا بهم صداقة عائلية، ووجدنا أن موعد الدعوة يسبق موعد الإفطار في رمضان بحوالي نصف الساعة، وبذلك توقعنا أن نتناول طعامنا في الموعد اليومي تقريبا واستجبنا للدعوة الكريمة، وتقابلنا أمام حديقة يابانية شهيرة تشكل لوحات جمالية متتابعة تأخذ بالألباب، والدكتور «نومانو» والدكتورة زوجته يشرحان بالإنجليزية سليمة مواطن الجمال، وأهمية الأشجار والزهور، واستمر تجول العائلتين بين الورد والنباتات لمدة طويلة ونحن نشعر بالعطش – دعنا من الجوع – ثم أخبرنا الدكتور «نومانو» بالمفاجأة التي أعدها لنا، وهي أننا ننتظر غياب ضوء النهار تماما حينما يسود الظلام، وهنا تبدأ فراشات صغيرة تعد بالآلاف في الطيران والتنقل بين النباتات، ويصدر عنها ضوء فسفوري براق.

حل الظلام تماما، وبدأت الفراشات المضيئة تتطاير في الجو حولنا وعلي ملابسنا، وعلي الزهور وكان المنظر رائعا حقيقة، وغريبا في نفس الوقت، وعلمنا أن إدارة الحديقة تربي هذا النوع من الفراشات المضيئة، وتطلقه بكثرة في الحديقة بحيث أصبحت من المعالم السياحية النادرة، واستمر الشرح والتجول بين الممرات حتي لاتضيع منا هذه المتعة – من وجهة نظرهم – حتي انقضت حوالي الساعة علي حلول موعد إفطارنا، وعندما وصلنا الي المطعم الموجود داخل الحديقة وقدموا لنا العصائر شربناها باستمتاع وتقدير، وساعدت علي تهدئة نداء البطون الجائعة. وما لبثت أنواع الأطعمة اليابانية

أن توالت، ولم تكن مشكلة بالنسبة لزوجتي أو لي شخصيا فقد تعودنا علي جميع أنواع السمك غير المطهو ويدعي «سوشي» أو «ساشيمي»، أما أولادنا فقد أنقذهم الأرز الياباني المسلوق بالماء مع قليل من الخل ودون إضافة الملح له، ورغم مذاقه غير المألوف إلا أنه كان طبق إفطارهم الوحيد. وعدنا الي المنزل وقد أصدر الأولاد فرمانا غير قابل للاستئناف أو النقض، وهو عدم قبول أي دعوات للعشاء خلال شهر رمضان، وكل عام وحضراتكم بخير.

٣- تدشين الباخرة «طيبة» :

تستورد مصر كميات كبيرة من القمح للاستهلاك المحلي، ويستورد معظمه من الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا. وقد رأت السلطات المختصة في مصر أن بناء أربع بواخر من شاحنات القمح تكون مهمتها الأساسية شحن الكمية التي تستوردها مصر من استراليا علي مدار العام تعتبر عملية مربحة اقتصاديا بالإضافة الي ضمان وصول الكميات في المواعيد المحددة، وعدم تعريض البلاد لأزمات تتعلق بسلعة استراتيجية أساسية يتوقف عليها صناعة الخبز والمكرونة، بدأت السفارة محاولاتها بجس نبض الحكومة اليابانية للحصول علي قرض يخصص لبناء السفن الأربع، وبعد مباحثات شاقة اشترك فيها خبراء من القاهرة تم الاتفاق علي بناء أربع شاحنات للقمح في الترسانات البحرية لليابان علي أن تسلم علي فترات زمنية متقاربة.

انتهي بناء السفينة الأولي وذهبت مع كبار المسئولين المصريين للتفتيش عليها وهي مازالت علي الرصيف قبل تسلمها، وسعدت إذ وجدتها تمثل أحدث صيحة تكنولوجية في بناء السفن، فكافة المناورات البحرية وما يتعلق بسير السفينة وإدارتها تعمل الكترونيا ومجهزة بمجموعة من أجهزة الرادار لكل منها وظيفة دقيقة بالإضافة الي عنابر شحن القمح التي تملأ وتفرغ بأحدث الوسائل العلمية دون الحاجة الي العمل اليدوي. وتقابلت مع القبطان المصري ومعاونيه وهم الطاقم الذي أوفد منذ مدة ليشرف علي اللمسات الأخيرة، وليتدرب كل منهم علي ما يخصه بالنسبة للسفينة الجديدة، ودخلت الي غرفة الآلات وهي تعمل، وابتسم القبطان وهو يشير الي عدم وجود نقطة زيت متساقطة، أو بقعة علي أي جزء من الماكينة، وأوضح أن الباخرة كلها تبدو كما لو كانت نموذجا «ماكيت» موضوعا في معرض لبناء السفن وليست سفينة حقيقية وذلك من فرط النظافة، فتمنيت عليه أن يحافظ مع رجاله علي هذه المركب الحديثة، وعلي هذا المستوي من النظافة والجمال.

تحدد موعد تدشين السفينة وحضر كبار المسئولين بالشركة المالكة من القاهرة، وتوجهنا لرصيف الميناء لنجد الباخرة وقد بدت كالعروس، أعلام مصر وكافة الأعلام البحرية ترفرف فوقها وحولها، والبالونات الضخمة تسبح في الهواء والسفينة تقف شامخة بلونها الأبيض النظيف، وعلي سطحها علقت الأشرطة الملونة والزينات، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي كيف ستنزل هذه الباخرة بحجمها الكبير الي المياه، وهي تقف حاليا علي الرصيف مرتكزة الي مجموعة من الأخشاب، وسألت

أحد المختصين وعلمت منه أن عملية نزول الباخرة تخضع لدراسات هندسية كثيرة يقوم بها المختصون بالهندسة البحرية، وسأحاول أن أقدم للقارئ فكرة عامة بعيدة عن التعقيدات العلمية التي تسيطر علي هذا الإجراء. عند بداية بناء المركب، يستند الهيكل علي دعامات من الأخشاب مقامة بطريقة فنية لتتحمل ثقل المركب خلال عملية البناء دون تعريضها لخطر الميل أو السقوط، وتصلح الدعامات في نفس الوقت لإنزلاق الباخرة وهي في طريقها للماء بزاوية ميل معينة، ونظرا لأن الباخرة وهي غير محملة تكون خفيفة الوزن نسبيا مما يشكل خطورة خلال عملية الانزلاق للماء، فمن المعتاد أن تملأ العنابر المخصصة للقمح بماء من البحر، كل ذلك بنسب وكميات مدروسة تضمن توازن المركب وهي واقفة وهي منزلقة، ولإعدادها لنزول الماء تربط من الجزء الأمامي بحبل ينتهي الي قاطرة بحرية، وقد يحتاج الأمر لأي قاطرات أخري تشدها من الأجناب منعا لوقوعها. وفي اللحظة الحاسمة تسحب السفينة علي أخشاب مغطاة بالشحم، وتشدها القاطرات بقوة محسوبة جيدا لتنزلق وفق معدل الميل المحدد من قبل، وتتهادي في هدوء حتي تلمس الماء ثم تستقر كلها عائمة علي الماء كل ذلك يتم بدقة وفي عملية جماعية متناسقة للغاية بفضل أجهزة اللاسلكي التي يشرف منها علي إعطاء الأوامر قبطان متخصص في هذه العملية.

قد يعتقد القارئ أنها عملية روتينية بسيطة، ولكنني علمت أنها عملية معقدة وتحمل أثناء إجرائها الكثير من المخاطر، وتذكرت حادثة قرأتها عن قيام ملكة بريطانيا بتدشين إحدي السفن، وما أن بدأت في الانزلاق في اتجاه الماء ولامست مقدمتها المياه حتي اختل التوازن وسقطت علي جانبها وكل المحتفلين بالمناسبة السعيدة وقد تجمدت الفرحة علي وجوههم.

نعود الي سفينتنا الجميلة وهي كالعروس في الميناء وتتقافز في سعادة الحروف التي كتبت بها اسم السفينة لتذكرنا بأمجد أيام تاريخنا، ونقرأ الاسم الأصيل «طيبة» مكتوبا باللغة العربية حاملا إلينا عبير الوطن. ونصعد – زوجتي وأنا – الي الرصيف الملاصق للسفينة حيث نقابل بمظاهر التكريم وفقا للقواعد البحرية، ويلقي مدير الشركة الياباني كلمة، ويتبعه مدير الشركة المصرية مالكة الباخرة، ثم كلمة من السفير منوها بالتعاون بين اليابان ومصر، ومشيدا بعملية بناء السفن وأولها «طيبة» إحدي ثمرات التعاون الثنائي، وتبدأ اللحظات الحاسمة، ووفقا للعرف البحري لابد أن تقوم سيدة بتدشين الباخرة، وتقوم زوجتي وتلقي خطابا قصيرا تنهيه – وفقا لما تلقته من تلقين بحري – بقولها «وقد أسميتك طيبة».

تبع ذلك مباشرة أن تمسك بزجاجة مغلقة مليئة بماء النيل التي أحضرناها من القاهرة. وقد تم من قبل إعداد هذه الزجاجة وربطت بحبل رفيع معلق علي حامل مثبت بزاوية معينة، بحيث أنه بمجرد أن تترك زوجتي الزجاجة فإنها تتأرجح، وتأخذ خط السير المحدد لها لتصطدم بجسم السفينة وتنكسر ويسيل ماء النيل مباركا. وتم تنفيذ الخطوات كما تحددت بالضبط إلا أن الزجاجة تأرجحت واصطدمت «برقة» بجسم السفينة ولم تنكسر. وكان مأزقا بحريا «ظريفا» ولجأ رجال البحر الي حبل

آخر ليعيدوا اصطياد الزجاجة بحبلها، وتتكرر العملية وتنجح هذه المرة ليهلل الجميع وتتصاعد صفارات جميع السفن المجاورة، وهنا تبدأ اللحظات الحرجة حيث يقوم فريق الخبراء بالخطوات المدروسة لتنزل السفينة باسم الله مجريها ومرساها الي المياه وقد تمت عملية انزالها بنجاح والحمد لله، وتعلقت أبصارنا وقلوبنا بعلم مصر وهو يرتفع رويدا علي صاري السفينة «طيبة».

٤- حفل عشاء ياباني :

بمناسبة زيارة مسئول كبير والسيدة حرمه لليابان أقيم علي شرفة حفل عشاء علي الطريقة اليابانية التقليدية، تميز بالمستوي الرائع الذي يليق بالضيف الكريم، وإليكم بعض الأطباق التي قدمت لنا، وأترك لكم تخيل التساؤلات والضحكات وتقلصات المعدة التي حدثت.

أمام كل ضيف في الطبق زهرة جميلة صنعت من الثلج تعتبر تحفة فنية بكل المقاييس يعلوها «جميريابة» والمشكلة أنها مقشرة ولكن «نيئة» أي غير مسلوقة أو مطبوخة ولم تمسها النار، وعلينا التهامها، وإظهار مشاعر الاستمتاع بمذاقها، يتبع ذلك كهف صغير من الثلج بداخله أربع قطع مربعة من «السمك النيئ» ويدعي «ساشيمي» والمفروض أن نأكله بعد غمسه في زيت الصويا وذلك باستخدام عصاتين رفيعتين. والسؤال الذي لا يمل المصريون من تكراره هو هل السمك نيئ تماما أم مسلوق أم مملح؟ ولأن الدبلوماسية مرادفة للصدق (!!!)، فالرد الصادق هو أنها سمك نيئ تماما، وهنا يظهر التردد ثم تظهر علامات واضحة علي الوجه ومحاولات لاتخفي علي أحد للهروب من هذه التجربة.

ثم يصل طبق الخضار وهو لوحة فنية من أوراق الشجر خضراء اللون، وزهور صغيرة ملونة مجدولة علي شكل مفرش جميل يعلوه قرن واحد من البامية المسلوقة يتربع علي هذه اللوحة الفنية في إغراء وجمال، ومن الطبيعي أنه سرعان ما يعرف هذا «القرن البامية» العزيز طريقه الي معدة المصريين بلا خوف ولا تردد لأنه الطبق الوحيد الذي عرفوه حتي الآن. ويذكرنا هذا الطبق بما حدث لحرم دبلوماسي مصري في طوكيو حينما أرادت أن تكرم ضيوفها المصريين بعمل «دقية بامية» فتوجهت للخضري واشترت كل ما عنده من البامية وهي تكفي بالكاد «للدقية» ونظر إليها التاجر متسائلا عما إذا كانت تتاجر هي الأخري في الخضار مثله؟

ثم يأتي طبق ساخن يحتوي علي شوربة بداخلها عدة كور بيضاء عرفنا من تجاربنا السابقة أنها أرز مدقوق بقوة ولمدة طويلة حتي يصبح عجينة متماسكة، ويتم غليه مع الشوربة، ونحاول إنذار الضيوف الكرام ولكن إنذارنا يأتي متأخرا جدا، فهذا الطبق لابد أن ينتج عن تناوله إحدي الحالات التالية:

أن تنزل نصف العجينة للزور، ويتعلق النصف الآخر الملتصق به بسقف الفم، وتبذل محاولات

«مهذبة وديبلوماسية» إما لإخراج النصف الذي نزل في الزور الي الفم، أو لإنزال ما التصق بالفم الي الزور، ويا «دار ما دخلك شر»، ولكن المؤكد أن المحاولتين تفشلان، ويبدأ الضيف المصري في الشعور بالاختناق واليأس من نجاح المحاولة، وتصل المأساة الي ذروتها عندما يتقدم البعض منا نحن المصريين للمساعدة، ويحدث هرج ومرج وتصدر من الضحية أصوات مختنقة ثم فجأة يأتي الفرج وتحل المشكلة بطريقة أو بأخري ولكنها تترك الضيف وهو منهك القوي وقد خرج من تجربة قاسية لن ينساها، أما إذا كان الضيف «حويطا»، واقترب باحتراس من الهدف، ولم يدفعه الجوع الي التسرع، فإن مثل هذا الشخص الحذر يضغط بأسنانه برقة علي هذه العجينة، وهنا يرتبك الخطأ القاتل، فقد التصقت العجينه بطاقم الأسنان، ومع المحاولات المستمرة، فإن طاقم الاسنان يخرج من مكانه، وعبثا يحاول الضيف إعادته مع وضع المنديل علي فمه، وتفشل المحاولات تماما لأن الأرز تحول الي مادة لاصقة ملتصقة غيرت التركيب الجغرافي لمحتويات الفم.

فإذا تركنا هذا الطبق اللعين لننتهي حفل العشاء فستصل الفاكهة، وعادة لا تقدم الفاكهة في العشاء الياباني إلا استثناء لضيف كبير، ونستعد جميعا، فلا بأس من سلة فواكه نعوض بها ما فات من أطباق لم يلمسها أحد. وتأتي فتيات الجيشا اليابانية، وبكل تقديس واحترام وإجراءات مراسمية تضع أمام كل منا سبتا صغيرا للغاية مجدولا من الخوص بأسلوب فني جميل، وعليه مفرش صغير جدا من الحرير، وهما معا يشكلان «تبلوها» رائعاً، وفوق المفرش ترقد الفاكهة المرتقبة بفارغ صبر، ويافرحتاه.... فعلي المفرش توجد «فراولاية»، نعم فراولاية واحدة نأكلها بالهناء والشفاء. وانتهي العشاء وأردنا الخروج فكان لابد من لبس الأحذية التي خلعناها عند المدخل وفقا للعادات اليابانية، وهنا تشعر كل سيدة مصرية بما فيهن الضيفة الكبيرة بالإحباط والغيظ بل الحقد وهي تري كل رجل مصري وقد أسرعت إليه فتاة من الجيشا لتساعده في لبس حذائه، أما السيدات فعليهن الاعتماد علي النفس حتي لو انكسر الكعب أو تعذر إغلاق محبس الحذاء، فالخدمة والرعاية «والدلع» للرجل فقط.

وهكذا ينتهي العشاء الرسمي ونعود لمنزلنا لنبحث لنا عن شئ يؤكل.

٥- المواجهة الصعبة بين المصريين والأطباق اليابانية :

أذكر أننا - زوجتي وأنا - قد دعونا ضيفا مصريا كريما وزوجته وبعض الزملاء لحفل عشاء بأحد المطاعم اليابانية ليطلعوا علي مظهر من أهم مظاهر الحياة اليابانية ألا وهو الطعام وأسلوب طهيه وتقديمه.

بدأ العشاء بتقديم طبق صغير به أجزاء من «الساشيمي»، وردا علي تساؤل الزوجة شرحت لها زوجتي أن السمك المقدم لنا هو من نوع التونة، ويؤخذ من السمكة أجزاء معينة تقطع بسمك بوصة واحدة بعد أن ينزع منها الجلد، وأن عملية التقطيع هي عملية فنية تجري بسكين له مواصفات دقيقة، ويراعي النسيج اللحمي للجزء المقطوع، ويتم القطع بزاوية معينة، وبعد ذلك تقدم لنا وبجوارها جزء

صغير من لحم الاخطبوط، وبعد الاسئلة الملحة المستغربة تفهم الضيفة أن لحم السمك أو الأخطبوط هو لحم نيئ بالكامل، غير مسلوق وغير مملح وغير مشوي بل علي طبيعته. ويقدم بهذا الأسلوب وبجواره شرائح مقطعة ومصفوفة بطريقة فنية جميلة من خضروات ذات ألوان مختلفة كالجزر والخيار والفلفل والفجل الياباني، بحيث يشكل الجميع لوحة فنية جميلة مصداقا للنظرية اليابانية أن الطعام الياباني تستمتع به العين أولا قبل أن يتذوقه اللسان، والمفروض أن تمسك كل قطعة سمك بزوج من العصي الخشبية الرفيعة، وتغمس في طبق زيت الصويا ثم تؤكل بالهناء، والشفاء. وامتنع البعض عن القيام بالتجربة، وغامر آخرون وابتلعوا جزءا مما أمامهم، وأبدوا عجبهم من أنهم لم يشعروا مطلقا برائحة أو طعم السمك النيئ، أما قدامي المقيمين في طوكيو فقد تناولوا «الساشيمي» باستمتاع وتذوق.

وجاء الطبق الثاني ويدعي «تمبورا» ويتكون من جمبري قد رفع منه الرأس والقشر ماعدا الذيل، ويغمس في خليط من البيض والدقيق ويقلي في الزبد، وفرح المدعوون بمشاهدة هذا الطبق ومحتوياته من جمبري وبجواره مجموعة قطع صغيرة من الخضار كلها مقلية بالزبد، لأنهم يعرفون بسهولة كل مكوناتها، وفعلا يأكلون بشهية واضحة حتي يواجه أحدهم بقطعة خضراء صغيرة تشبه العجين موضوعة في جانب من الطبق، وقد أخبرناهم أنها تستخدم بدل «الموستاردة»، ولما كان حجمها لايزيد علي الزيتونة الصغيرة، فإن الضيف يضع بكرم جزءا منها علي مايأكله، وهنا يقع في شر أعماله، فسرعان ما تصدر عنه أصوات تدل علي مدي «التدمير» الذي أحدثته هذه «الموستاردة اليابانية»، فهي خليط من الفجل الياباني الحريف الطعم والجنزبيل، وهذا الخليط يحدث أثر فوريا يبدأ بالفم واللسان والحلق وينتهي بالأنف مع تساقط الدموع.

ويأتي الطبق الرئيسي وهو «السوكي ياكي» ويتكون من قطع رقيقة جدا من اللحم، مع مجموعة من سيقان شجر البامبو وقليل من نبات عش الغراب، وبعض «الشعرية» اليابانية، ويوضع كل ذلك علي النار مع مخلوط من زيت الصويا ومحتويات أربع بيضات وهو طبق لذيذ الطعم، ولا يشكل مأزقا للضيوف إلا بالنسبة للخطوة الأخيرة في أسلوب تناوله، وهي الإمساك بقطعة من محتويات الطبق الرئيسي «بالعصاتين»، وغمسها في طبق صغير به محتويات بيضة طازجة، ثم تأخذ طريقها للفم. ويفضل الضيوف عادة إلغاء هذه الخطوة الأخيرة، والأكل دون المرور بالبيض النيئ. ويأتي بعد ذلك طبق الأرز المسلوق بالماء بدون ملح وعليه القليل من الخل، وهذا يعني نهاية المأدبة لأن الأرز لا يقدم إلا في نهاية الوليمة بعد أن يستمتع الآكلون بكل الأطباق السابقة، ولهم الحرية بعد ذلك في تناول بعض، وأكرر بعض الأرز، أما نحن فقد تدافعنا الي الأرز بشوق، فقد كان هو الطبق الرئيسي والوحيد بالنسبة للبعض منا، خاصة وأن الخبز لايقدم علي المائدة اليابانية.

وتحضر الفتيات اللاتي يرتدين الكيمونو ليقدمن للجميع فوطا من القماش صغيرة ومعطرة، ويتصاعد منها البخار الساخن لنمسح بها أيدينا، وتنعشنا، وننصرف من المطعم والضيوف يشكروننا علي هذه التجربة الرائعة، ولكنهم في السر يخططون بحثا عن وسيلة أخري لتناول الطعام قبل النوم.

أما إذا كان ضيوفنا من الذين لا يحبون مواجهة المجهول ويفضلون تناول طعام يعرفونه ويألفونه، فكنا نصطحبهم الي مطعم ياباني «مودرن». تقودنا من مدخل المطعم فتاة جميلة ترتدي الكيمونو الرائع الي مائدة ذات ارتفاع عادي – المائدة اليابانية تشبه الطبلية في ارتفاعها – وحولها الكراسي، وتأتي المضيفات بمرايل ذات ألوان مبهجة للسيدات، وأخري تقليدية للرجال، ويقمن بمساعدة الجميع في لبسها، وهنا نسمع تعليقا مصريا ظريفا عندما يتباطأ أحد الرجال أو يدعي أن لبس «المريلة» مشكلة المشاكل، وأنه يحتاج الي معونة، وخاصة إذا كانت المضيفة تتمتع بقسط وافر من الجمال الأسيوي. وتأتينا الفوط الساخنة المعطرة لنمسح بها أوجهنا وأيدينا، وبذلك نصبح مستعدين لتناول العشاء وطبقه الرئيسي وهو اللحم المسلوق علي الطريقة اليابانية Meat Fondu.

وتشعل رئيسة المضيفات موقد البوتاجاز – الجميل – الموجود في منتصف المائدة، وتثبت عليه إناء به ماء يغلي، وتضع فيه بعض نبات عش الغراب وبصلات صغيرة، وقطعا من الجزر والشعرية اليابانية ثم تغطيه. ويوجد أمام كل منا طبق به شرائح مستديرة رقيقة للغاية من اللحم النيئ وعصاتان رفيعتان من الخشب لاستخدامهما في الطبخ ثم الأكل. ومن المناظر الطريفة أن تراقب الضيوف الذين يستخدمون العصاتين لأول مرة، فإن منظرهم يذكرنا بأبنائنا وهم أطفال حينما حاولوا الإمساك بالقلم للكتابة لأول مرة، وكيف كانت محاولاتهم تفشل.

تظهر المشكلة عندما ينجح الضيف في الامساك بقطعة اللحم بالعصاتين، ثم تظهر الخطورة وهو يقطع المسافة بين الطبق وفمه في حذر، وهو غاية في التوتر، ومع ذلك تسقط الغنيمة في منتصف المسافة. وفي الوقت المناسب تأتي المضيفة لتكشف غطاء الإناء، ونجد أن الماء يغلي، وهنا نصبح نحن سادة الموقف، وعلي كل منا أن يمسك الشريحة من اللحم النيئ الموجود في طبقه، ويلفها عدة مرات بالعصاتين، ويتحكم فيها جيدا، ويدلي بها وهي «ممسوكة» في «الشوربة» لثوان معدودة، ثم يخرجها وقد نضجت ليأكلها. وبعد لحظات يتصاعد الضحك من الموائد – فأغلب الرواد من السائحين – فالكل يواجه مواقف عصيبة، فقد يبدو تنفيذ خطوات الأكل بالعصاتين سهلا ولكن – في التنفيذ – فهي مهمة قتالية تحتاج الي أعصاب حديدية للتحكم في العصاتين وقطعة اللحم التي بينهما، وخاصة عندما ينسي الآكلون القاعدة الرئيسية وهي تثبيت إحدي العصاتين وتحريك واحدة فقط، وكثيرا ما يتساقط اللحم في طبق الشوربة العميق ويثور النزاع حول ملكية الغنيمة بين الجالسين.

مما يثير الغرابة أن هذا النوع من اللحم لا يحتاج لأكثر من ثوان لينضج مع تمتعه بمذاق طيب للغاية. وقد علمنا أن هناك أنواعا ممتازة من اللحوم بعضها قد يزيد سعر الكيلو جرام الواحد عن المائة دولار، أما الأبقار التي تنتج هذا النوع من اللحوم، فتربي في حظائر مكيفة الهواء، وتستمتع بالموسيقي الهادئة التي «تشنف» أسماعها طوال النهار، وشرابها الرئيسي من «البيرة»، ويعمل لها عدة جلسات

تدليك «مساج» يوميا، وبذلك تكون ألياف لحومها رقيقة للغاية، وتتميز بطعم لذيذ. ونعود للمطعم لنجد أن معركة العصي واللحوم مستمرة، ويسودها الضحك والمرح، وعند نهايتها توزع علينا المضيفة «الشوربة» وقد أصبحت غنية باللحوم التي سقطت فيها. ومن أطرف ما سمعناه من تعليقات السيدات المصريات قولهن : أن هذا الطبق ينقصه بعض من الملح والفلفل والمستكة والحبهان، حتي يمكن أكله بشهية. ومن اللحظات التي لا تنسي أن نجد ونحن في المطعم أحد المصريين وقد التفت فجأة باحثا عن مصدر صوت مزعج سمعه، ويعود وجهه إلينا، وقد علته علامات الاستغراب والتقزز لأنه اكتشف أن مواطنا يابانيا قد رفع طبق الشوربة بما فيه من شعرية الي فمه وبدأ في «شفطها» مصدرا هذا الصوت المزعج، ويعتقد صاحبنا أن ذلك الصوت دليل علي الهمجية وقلة الذوق ومخالفة لآداب الأكل حتي نشرح له أن هذه هي أصول تناول «الشوربة»، وهذا الصوت طبيعي جدا في هذه الحالة وليس مخالفا لأي ذوق، ونتذكر جميعا أسلوب شرب المصريين الماء من «القلة»، وما يصدرونه من أصوات، ونعرف أنها الطريقة الصحية للشرب، وبذلك تسهل المقارنة مع الأسلوب الياباني.

وكنا نؤكد لضيوفنا الكرام، أننا مررنا بنفس تجربتهم مع الطعام الياباني، ولكننا مع التعود والتذوق بطريقة محايدة أصبحنا نفضل هذا الطعام علي الأنواع الأخري لأنه صحي وخفيف علي المعدة، بل وله مذاق لذيذ، خاصة وأننا لا نشم ولا نحس بما يشير الي أن هذا اللحم اللذيذ هو لحم سمك «الساشيمي» أو «السوشي»، وكان أدبهم الجم يمنعهم من التعليق بحرية علي هذا السلوك «المتوحش» بافتراس هذه الأنواع الغريبة. وكم ضحك الضيوف ونحن نشرح لهم أن هذه الشرائح الخضراء المقدمة لنا عبارة عن أعشاب بحرية طهرت وضغطت الي شرائح رقيقة وأنها غنية بالفوسفور، وكان الضيوف يرددون أن مشكلة الاعشاب تشكل عبئا علي محافظة الاسكندرية حيث تتجمع علي الشواطئ ويحاول عمال النظافة التخلص منها يومياً.

أما التجربة العنيفة التي مررنا بها، فكنا مع ضيوف من مصر، ودعوتهم الي مطعم تقليدي افتتح حديثا، وكان رواد المحل يجلسون في شبه دائرة واسعة، في وسطها الطباخ ومعداته وأفرانه واحتياجاته من عناصر المأكولات، وكان المنظر خلابا وطعام كل فرد يعد أمامه ويقدم له فورا، ونصحناهم باختيار الأطباق المضمونة وهي «التامبورا» أي الجمبري المقلي مع الخضروات والأرز، ووافق الجميع عدا إحدي السيدات التي أبت إلا أن تخالف المجموعة كعادتها في كل شيء، فطلبت «جمبري مشوي»، وسرعان ما أخرج الطاهي من أوعيته احتياجاتنا وبدأت عملية «القلي» والإعداد ثم التقديم لنا مع اعتذار بانجليزية ركيكة للسيدة «إيـاهـا» أن طبقها لن يستغرق دقيقة واحدة، وقدم إليها وعاء مليئا بالجمبري الحي لتختار منه، فأشارت الي واحدة كبيرة، وشاء هذا الطاهي الأبله أن يكرمها لأنها الوحيدة التي طلبت الجمبري مشويا، فاقترب منها جدا، وأمسك بيد سيخا رفيعا من الحديد، وباليد الأخري «الجمبرياية»، وبدأ يدخل السيخ من الرأس الي النهاية، والجمبري يتلوي بين يديه بعصبية لأنه لايزال حيا، والحقيقة أنه كان منظرا منفرا، ولم أنتبه إلا والسيدة قد اندفعت من كرسيها

باحثة عن......، حيث لم تتحمل معدتها هذا المنظر، ولم تعد إلينا السيدة الفاضلة بل أشارت لزوجها من بعيد ليلحق بها مستأذنا في العودة فورا للفندق.

ولم أشأ أن أزيد الجو توترا بأن أحكي لهم ما حدث لي ولزوجتي من مأزق مشابه، فقد كنا في رحلة خارج طوكيو، ورأينا أن نقوم بجولة علي الأقدام في هذه المدينة الصغيرة، واستمر سيرنا حتي مررنا علي مطعم له واجهة زجاجية ظهر خلالها حوض جميل من المياه بإضاءة خلابة، وتقدم فيه أنواع من الاسماك والجمبري، وشاهدنا من الخارج أحد الطهاة وقد أدلي بشبكة مدلاة من عصا ليصطاد سمكة معينة اختارها «الزبون». ويبدو أن برودة الجو في الشارع، ونظافة وجمال هذا المطعم وأسلوبه في أن يختار كل منا السمكة التي يشتهيها، كل ذلك أغرانا بالدخول وكلنا أمل في «عشوة سمك معتبرة».

جلسنا وتطوعت بتحمل مسئولية التفاهم مع «السفرجي»، واصطحبني الي الحوض بإضاءته الجميلة واخترت سمكة منظرها يغري، وتم اصطيادها، وشرحت له أننا نريدها مشوية، وبأدب ياباني انحني عدة مرات وهو يهز رأسه، وتصورت أنه فهم الكلمات اليابانية التي نطقتها، ولكن ثبت فيما بعد أنني تكلمت أي لغة إلا اليابانية، وسلم السمكة للطاهي الذي يقف وبينه وبيننا لوح زجاجي يسمح لنا برؤية كل حركاته الاستعراضية، وانهمك صاحبنا في عملية تجعلك متحيرا، هل هو يقطع سمكة؟ أم يؤدي لحنا موسيقيا؟ وهو يقوم بحركات رشيقة استعراضية، وكنا نبادله النظرات معبرين له عن تقديرنا لما يعمله. وانتهي الطاهي من مهمته وحضر إلينا «الجرسون» وهو يحمل قاربا من الخشب وقد فرش وزين بأوراق الشجر الأخضر، وبعض الزهور البرية الصغيرة الملونة وبينها ترقد سمكتنا وقد أحيطت بقطع من الثلج بحيث يشكل الجميع لوحة فنية جمالية من حيث تناسق الألوان، وروعة العرض. ونظرنا الي السمكة فإذا الجلد منزوع تماما، ولكن السمكة موضوعة بكاملها في القارب، ونصفها المواجه لنا قد قطع وهو في مكانه في الجسم الي قطع متساوية الحجم.

استنتجنا أن السفرجي لم يستطع أن يفهم من كلماتي اليابانية الركيكة أننا نتوق الي «أكلة سمك مشوي» فقام الطاهي بإعداد سمكتنا بطريقة «الساشيمي» أي لحم السمك النيئ، وكنا نعلم أنه يكون ألذ طعما عندما يكون طازجا، فما بالك والسمكة كانت تسبح في حوضها المائي منذ دقائق. وكان جمال التقديم بالاضافة للجو العام للمطعم، وتعودنا بل تذوقنا «للساشيمي»، كل ذلك تغلب علي شوقنا للسمك المشوي، وبدأنا – زوجتي وأنا – نمسك بالعصي اليابانية التي نأكل بها وقد تمرنا جيدا علي استخدامها واقتربنا من السمكة، وكل منا يبغي الإمساك بقطعة من هذا اللحم اللذيذ، وإذا بالمفاجأة المذهلة...... السمكة تتحرك، نعم تتحرك رغم سلخها وتنظيفها تماما من الداخل والخارج بل وتقطيع لحمها الي قطع، وأصابنا الذهول، وكررنا المحاولة وتكرر ارتعاش جسم السمكة عند لمسها مما يعني أنها لاتزال تنبض بالحياة، وتبادلنا النظرات، وتوقفت الأيدي، واستدعيت مدير المحل الذي يتحدث الانجليزية، وأبلغته بما حدث وأنني كنت أعتقد أنني شرحت رغبتي أن تقدم لنا السمكة

«مشوية» ولكنها قدمت لي «حية» فاستأذن دقائق تحدث فيها الي معاونيه، وعاد لينحني عدة مرات، ثم يجيبني مبتسما أن من قام علي خدمتنا قد فهم فعلا أنني أريد سمكا مشويا، ولكن حيث أنني قد أخذت هذه السمكة بالذات وهي من أرقي الأنواع وأصلحها لتقديم طبق «الساشيمي»، فقد رأي بالاتفاق مع الطاهي أن يقدمها لنا؛ الجزء العلوي نأكله «ساشيمي»، ثم يأخذ النصف السفلي ليشويه لنا علي الفحم، وأن السبب في هذه المبادرة أن المطعم متخصص في «الساشيمي وأن «السفرجي» اعتقد أننا خبراء في الطعام الياباني. أما عن ارتعاشة السمكة، فهذا حقيقي لأن أرقي وسيلة لتقديم «الساشيمي»، والتي لايتقنها إلا خبراء الطهي القدامي، فهي القيام بكل إجراءات التنظيف والسلخ والتقطيع دون أن تلمس السكين العصب الرئيسي للسمكة، فتقدم لنا وهي لاتزال حية ويكون مذاقها قمة في الروعة، وأردف أن مطاعم محدودة في اليابان هي التي تستطيع تقديم هذا الطبق بهذه الطريقة التقليدية الدقيقة. وشكرناه علي هذا الإيضاح الهام، ولكننا أصررنا علي أكلها مشوية وخاصة بعد أن فقدنا شهيتنا.

وعندما روينا القصة لأصدقائنا اليابانيين، أكدوا لنا أننا عشنا تجربة جميلة، لأن عدد المطاعم التي تقدم هذا الطبق في طوكيو بهذه الطريقة قليل للغاية، ولايقبل عليها إلا الصفوة الذين يجيدون فن التذوق، ويستطيعون دفع ثمن هذه الخبرة النادرة في الطهي.

٦- علي هامش الطعام الياباني :

لعل القارئ والقارئة الكرام قد تعددت علامات الدهشة على وجوهم وهم يقرأون عن المفاجآت الغذائية التى يواجهها القادم الى اليابان، وأسمح لنفسى أن أضيف إليها واقعة يابانية صينية. فقد دعيت وزوجتى الى كرنفال عالمى أقامته اليابان فى طوكيو لتقدم كل دولة أشهر الأطباق الوطنية، وتجرى مسابقة وتتذوق لجنة الحكام وتعطى الجوائز لأشهى الأطعمة مع الأخذ فى الاعتبار طريقة تقديمها ومكوناتها، ويعد المهرجان يطبع كتاب به وصفات كل الأطعمة التى قدمت. وقام بتمثيل مصر كبير الطهاة بأحد الفنادق المصرية الكبرى، وقدم أطباقا كثيرة نالت الاستحسان.

كان لي ولزوجتي شرف الجلوس الي المائدة الرئيسية التي يتصدرها الوزير الياباني رئيس المهرجان، وبذلك لم يكن علينا إلا أن نمر علي البوفيه لنتأمل جمال العرض، ثم نعود لأماكننا حيث تقدم لنا نماذج من انتاج الدول المشتركة، وتذوقنا بعض الأطباق حتي جاءت المفاجأة الصينية، وقام خبير بالشرح، فإذا بنا نعرف أن ما قدم لنا في الطبق هو جزء من الكف الأيمن - الأمامي - للدب الوحشي الذي يعيش في ثلوج جبال الصين، أما لماذا الكف الأيمن بالذات فلأنه الكف الذي يستخدمه الدب لاستخراج خلايا عسل النحل الجبلية من الصخور وهو يبحث عن طعامه، ولذلك فإنه مشرب بعسل النحل الجبلي بالاضافة الي «لدغات» النحل وهو يدافع عن طعامه، وقيل لنا إن هذا

الطبق – قطعة لا تتجاوز سنتيمتراً واحداً مكعباً – يشفي الكثير من الأمراض كالروماتيزوم والتهاب الجهاز التنفسي،........ و ....، علما بأن الكف الأيسر وكفي الأرجل الخلفية لا تتمتع بهذه المزايا. واقتربنا بحذر من «القطعة الصغري» التي ترقد بين أحضان ورق أخضر، واكتشفنا أنها لاتحتاج الي سكين لقطعها فإنها تؤكل كلها في قضمة واحدة، وبشجاعة نحسد عليها بدأنا نلوكها في الفم، وعلي الفور تذكرنا أيام طفولتنا ونحن نقطع «الأستيكة» المطاطية بأسناننا، ذلك أن الاثنين يشتركان في عناصر «لا طعم ولا لون ولا رائحة».

وهناك تساؤل قد يثار عما إذا كانت أنواع الأكل التي ذكرناها هي للصفوة سواء من الأجانب أو اليابانيين، أما عامة الشعب فها هو طبقهم المفضل الذي يشابه الفول والطعمية فى حسن مذاقه مع رخص ثمنه – أيام زمان – !. فأما الطبقة المتوسطة فلعلها تفضل محلات «السوشي» و«الساشيمي» أي السمك والجمبري والأخطبوط غير المطهو مع الأرز المسلوق بالخل وبدون ملح، مع أعشاب البحر. وقد ظهر منذ سنوات نوع حديث من المحلات يستخدم نظرية كثرة الانتاج وقلة العمالة وصولا لسعر أرخص مقابل سلعة ممتازة. ويتكون الجزء الرئيسي في هذا المحل من مائدة «بار» مستديرة تتسع لحوالي ثلاثين شخصا، يجلسون علي كراسي مرتفعة، وداخل هذه الدائرة يوجد الطاهي الخبير بمهماته ومعداته، ويمر علي المائدة أمام «الزبائن» سير معدني يدور باستمرار وعليه كل أنواع «السوشي» و«الساشيمي» يصنعها الطاهي ويضعها علي السير المتحرك.

يختار الجالس ما تهفو إليه نفسه من أطباق ويأكلها، ونظرا لوجود أطباق غالية الثمن فإن لونها يختلف عن لون الأطباق ذات السعر العادي، وعندما ينتهي الآكل من طعامه يغادر مقعده متجها الي الخزانة لدفع المبلغ المستحق، وبعين خبيرة وبأسلوب المسيطر علي الموقف من مكانه يعد الطاهي الأطباق العادية والأطباق الملونة، ويذكر عددهما مرددا الكلمات بتنغيم تقليدي لطيف ويستخرج القائم علي الخزانة تذكرة بالمبلغ المطلوب، وسرعان ما يظهر مساعد الطاهي ليضع الأطباق الفارغة أسفل المائدة من جهتهم، ومرة أخري يمتلئ السير المتحرك بالاطباق المليئة بالأنواع المختلفة.

من الملاحظ أن الطاهي يعمل وهو يرتدي ملابسه التقليدية المتناهية النظافة، وأدواته ومهماته التي يستخدمها والمائدة التي أمامه، كل ذلك يبدو في صورة جميلة نظيفة تفتح الشهية. ولا يكف عن إصدار نداءاته التقليدية، منوها بالأنواع التي تقدم ثم ذاكرا عدد الأطباق المستهلكة بمعرفة «الزبائن» بصوت كله نغم، وتصبح مراقبته والاستماع لصيحاته الملحنة متعة فريدة.

هناك أيضا مطاعم أخري تخصصت في المأكولات اليابانية ولكن تقدم في علب من الخشب، وكل علبة قد دهنت «باللاكيه» الأسود أو البني ورسم علي الغطاء نقوش تجعل من العلبة قطعة فنية جميلة، وتقسم العلبة من الداخل الي عدة أقسام لتسمح بوضع كميات من قطع الاسماك والبقول وقطع من الخضار وأهمها الفجل الياباني – عنصر أساسي في كل الأطباق – والخيار والجزر والفلفل

وكل ذلك مقطع بأشكال هندسية، ومصفوف في مكانه بالعلبة مع عصاتين من الخشب، بحيث يشكل الجميع – في النهاية – تابلوها غذائيا تتردد في الأكل منه خوفا من بعثرة هذا التكوين الجمالي، هذه العلب يتفاوت سعرها وفقا لمحتوياتها، وعادة تعاد العلب للمطعم بعد أكل المحتويات. كما تنتشر في شوارع طوكيو وضواحيها محلات صغيرة للغاية يتخصص كل منها في نوع واحد أو أكثر من الشوربة أو من الشعرية، ويتلقي الطلبات بالتليفون وخلال خمس دقائق علي الأكثر يصل الطلب الي المكاتب أو المنازل، ويساعد علي سرعة التوصيل استخدام العامل للموتسيكل وقد ثبت خلفه علبة معدنية محكمة الغلق توضع بها الطلبات، ولكن الجديد فيها أن الأطباق «المقفولة» توضع علي قاعدة تستخدم نظرية البوصلة البحرية أي أنها تكون في وضع أفقي باستمرار رغم إهتزاز الموتسيكل أو مروره علي مطبات، وميزة هذه المطاعم رخص سعر أكلها مع سرعة وصول الطعام ساخنا، بالاضافة الي أنه بعد الانتهاء من الأكل توضع الفوارغ خارج باب المسكن ويمر العامل لأخذها دون إزعاج، وتفضل كثير من العائلات غير الثرية استخدام هذه الوسيلة للأكل بدلا من مشاكل الطهي في المنزل، كما أنها الوسيلة المثلي للأكل في المكاتب وقت راحة الغذاء بدلا من التوجه للمنزل أو المطعم. ولا أنهي الحديث عن الطعام في اليابان قبل أن أوجه تحذيرا لمن سيسعده الحظ بالذهاب الي هناك لأنه سيجد في النوافذ الأمامية للمطاعم نماذج رائعة للأطباق التي تقدم، وهى نماذج مصنوعة من الشمع وتلون بدقة فائقة بحيث تنظر الي الطبق فتعرف مكوناته، وما علي السائح إلا أن يشير علي الطبق المعروض الذى يريده ليأتي إليه الطبق الحقيقي، ولكن المشكلة تكمن في أسلوب الإنضاج، أو استخدام السكر مكان الملح، أو وجود مذاق الأعشاب البحرية – الفوسفورية – الذي لا نستسيغه في مصر.

والنصيحة الوحيدة الممكنة تقديمها للشخص الذي سيمكث باليابان مدة قصيرة هي ألا يقترب إلا من الطعام الذي يعرفه وإلا فالعاقبة وخيمة.

٧– فتاة الجيشا :

من المعتاد أن يدعي الضيف المصري المهم الي حفل عشاء يقيمه المسئول الياباني صاحب الدعوة في أحد المطاعم اليابانية التقليدية، ونظرا لمستوي المطعم الراقي، واستكمالا لعناصر الراحة والجمال يستدعي للحفل مجموعة من فتيات «الجيشا» يتناسب عددهن مع عدد المدعوين، وحتي لا يسرح الخيال بالقراء المصريين بمجرد قراءتهم كلمة «الجيشا» وقبل أن تتصاعد ابتساماتهم أو تعليقاتهم فسأبدأ قصتي بكلمة عن فتيات «الجيشا».

كلمة الجيشا تعني أصلا «الفنان» وأطلقت أولا علي الرجال الذين يقومون بالأعمال الكوميدية أو الموسيقية في الفترة من ١٦٠٠ – ١٨٦٨م، ثم برزت المرأة كفتاة للجيشا حوالي عام ١٧٥١م، وكانت الأسرة تبيع بناتها نتيجة للفقر في سن العاشرة لبيوت الجيشا حيث يبدأن في خدمة

نساء الجيشا الأقدم منهن، ويتدرجن في تعلم أسرار المهنة مع ضرورة إتقان فن الغناء والرقص والعزف علي الآلة الوترية اليابانية "Shamisen" «شاميسن»، وهي آله تشبه الجيتار مع بعض الفوارق، أما في الزمن الحالي فإن الفتيات يتقدمن مختارات لتعلم أسرار هذه المهنة ويحلمن بتحقيق الهدف الأسمي وهو مصادقة ثم الزواج من أحد كبار رجال الأعمال كما حدث في بعض الحالات. ولابد أن تجيد فتاة الجيشا فن الحديث الي الرجل، وحسن إدارة المناقشات برقة ووداعة، وأن تجعل من الفترة التي يقضيها معها الرجل فترة استرخاء وهدوء بأن تعوضه عما يلاقيه من متاعب في حياته كرجل أعمال هام أو سياسي تحف به المشاكل، وبذلك تختلف الجيشا عن فتيات الليل تماما، والنوع الأخير يطلق عليه في اليابان لفظا مهذبا هو «جيشا المخدة» للتمييز بينهن وبين الجيشا الحقيقية ذات الهدف التقليدي رغم تشابه الملابس والماكياج. وترتدي فتاة الجيشا زي الكيمونو التقليدي، ويضفي عليها هذا الزي الجميل بالاضافة الي الباروكات التقليدية التي تلبسها وتشبكها بدبابيس طويلة ملونة، وكذلك لون «المكياج» الأبيض الذي تدهن به وجهها، وأسلوب رسمها لشفتيها بالألوان الحمراء جدا، ثم اللون الأسود لعينيها، وأسلوبها التقليدي في المشي بخطوات صغيرة تشابه خطوات الباليه – مع الفارق – كل ذلك يضفي عليها جمالا يابانيا أخاذا يأسر الألباب. وقد أصبح من التقاليد المتعارف عليها في اليابان أن المجموعات السياسية أو الاقتصادية أو رجال الأعمال يديرون أهم مناقشاتهم ويتخذون أخطر قراراتهم في بيوت الجيشا التي يختارونها لتكون مكان لقاءاتهم دائما، ولذلك يعتبر كتمان الاسرار من أهم الشروط الواجب توافرها في فتيات الجيشا، حيث يتداول الكثير من الأسرار السياسية والاقتصادية أمامهن. ويقوم بيت الجيشا بتلقي احتياجات الزبائن، والاتفاق معهم، ثم يرسل لهم الفتيات وفقا لمستوي الحفل، والتخصصات المطلوبة في الجيشا – لغات معينة – تخصص فني – تخصص تاريخي – وكثيرا ما يعجب واحد من الزبائن بإحدي الفتيات، ويؤمن لها حياتها ومستقبلها وبذلك يستطيع إحتكار خدماتها وينال بيت الجيشا نصيبه من المكافأة وبذلك تخصص الفتاة كل وقتها لهذا الصديق سواء في المسكن الذي أعده لها أم بيت الجيشا الي تتبعه.

أما وقد شرحنا بعض مانستطيع قوله بالنسبة للجيشا فإننا نعود لحفلتنا، حيث يبدأ وصول المدعويين وتستقبلهم الفتيات لمساعدتهم في خلع المعاطف وتسلمها منهم، وكذلك القبعات والشماسي مع انحناءات متكررة، ثم ترشدهم الي قاعة الحفل حيث يجدون المضيف ومجموعته في انتظارهم. يجلس الجميع في أماكنهم المحددة لهم وفقا لأقدميتهم ومسألة الأقدمية سواء في المركز الوظيفي أو السن هي مسألة دقيقة للغاية ولها قواعد واجبة الاتباع، وعادة ما يكون الجلوس بطريقة «القرفصاء» علي شلتة صغيرة – خاصة للأجانب – وأمام الجميع مائدة غير مرتفعة، وتعزف إحدي فتيات الجيشا نغمات عذبة علي آلة «الشاميسن»، بينما تقوم أخري بالغناء، وقد تصاحبهن ثالثة للقيام ببعض حركات الرقص الياباني التوقيعي، مع استخدام المروحة باليد كعنصر فني من مكونات الرقصة، ونعلم أن كل حركة للمروحة تحمل معني معينا يفهمه العالمون بأسرار الفنون اليابانية. أما بقية بنات الجيشا فيتبادلن إسعاد الرجال بملء أكوابهم بالشراب الذي يفضلونه أو اشعال السجائر، أو تبادل

الأحاديث الطريفة أو الثقافية إذا شاء الضيف، كل ذلك والزوجات المصريات يتميزن غيظا من هذا التدليل للأزواج خشية أن يتعود عليه الرجال ويطالبون به الزوجات بعد الحفل.

أذكر من مآزق بعض هذه الحفلات أن ضيف الشرف المصري لم يكن معتادا الجلوس مدة طويلة في وضع القرفصاء، بالاضافة الي ثقل وزنه، ولذلك حينما حان موعد الانصراف وقام كل الموجودين تكريما له، حاول هو عبثا الوقوف، ووجد نفسه في مأزق، فقد انقطعت الدورة الدموية عن ساقيه وقدميه نتيجة للجلسة غير المريحة بحيث تخدلت تماما، وهنا ظهر دور فتيات الجيشا وحسن تدريبهن، فقد أسرعت إحداهن وجعلته يمد قدميه أمامه وهو جالس وبدأت في عملية «مساج» رقيقة ولكن بأسلوب علمي مدروس، وفعلا جرت الدماء في العروق، ونهض في نشاط وحيوية، والحمد لله أنه لم يلحظ نظرات السخط والغيظ المرسومة علي وجه زوجته، وبروح فكاهية مصرية مرحة تحدث إلينا قائلا أنه كان يتمني أن تكون فتاة الجيشا التي قامت بعمل «المساج» أكثر شبابا من هذه العجوز، فأسرعت لأشرح له أنه كلما كبر مقام الضيف اختاروا له فتاة من الجيشا تكون أكثر خبرة، وأغزر ثقافة وتجيد الحديث بإحدي اللغات الأجنبية، وعادة لا يمكن تحصيل هذه المزايا إلا في سن متأخرة.

وآمل ألا تتسبب هذه السطور عن الجيشا في قيام البعض باستيرادهن من اليابان لينضممن الي طابور نظرائهن من أهل الفيليبين، وسريلانكا والحبشيات اللاتي ابتلي بهن مجتمعنا المصري.

٨- «الزن» عبادة التفكير في لا شئ :

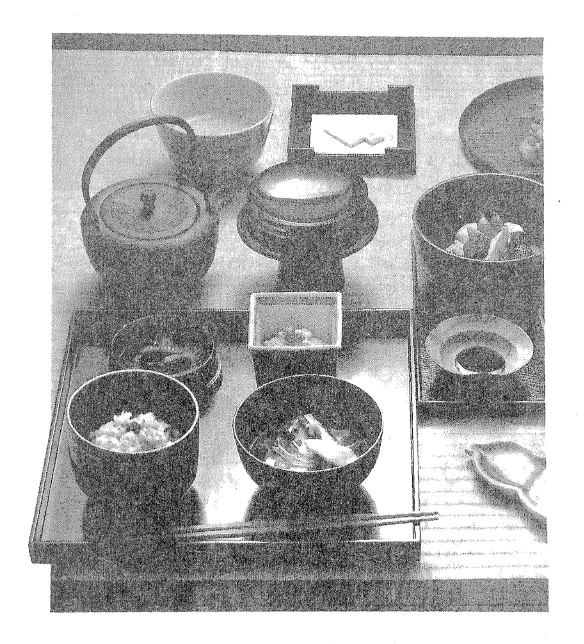
همس في أذني زميلي سفير إحدي الدول الغربية يسألني عما إذا كنت قدحاولت ممارسة جلسات «الزن»، وأجبته بالنفي مقررا أنني قرأت القليل عنه والقدر المعقول عن الديانة البوذية، ولكنني لم أمارس شيئاً من طقوسه أو رياضته. وكان صاحبنا نموذجا للمثقف النهم الذي يطوف بكل قطوف المعرفة، خاصة ما يتعلق بالشرق وحضاراته ودياناته، استطرد صاحبي في الحديث عن عقيدة «الزن» شارحا انها لا تعتبر عقيدة أو دينا أو فلسفة، وأنها تمارس أولا، وبعد ذلك يأتي الدور علي تصنيفها ووضعها تحت تعريف معين لو احتجنا الي ذلك، وشرح لي أن الهدف من ممارسة «الزن» هو الوصول الي حالة من الراحة النفسية والهدوء الروحي. وأردف أن عبادة «الزن» بدأت في الهند ووصلت الي اليابان عن طريق الصين. ويقوم رهبان «الزن» بتدريباتهم للتخلص من العقبات الخمس وهي «التملك، الجنس، والطعام، الشهوة أو العظمة، والندم».

تبدأ حياة الراهب حوالي الرابعة صباحا حيث يستيقظ في المعبد، ويبدأ كل منهم في جلسة التأمل، وتتكرر تلك الجلسات ثلاث مرات يوميا، ويقضي باقي النهار في أعمال يشترط فيها ألا تكون منتجة، فيعمل في الكنس والنظافة وتهذيب الحدائق، وبذلك يضطر الي أن يخرج ليتسول طعامه من الناس، وبذلك يكسر شوكة غروره، ويتخلص من مشاعر الكبرياء، ويعود أكثر تواضعا وقد اقترب من تنفيذ تعليمات «بوذا» الفيلسوف الحكيم. ونظرا لأن عبادة «الزن» ترتكز أساسا علي الاندماج مع

الطبيعة بحيث يكون الهدف هو تناغم الانسان مع عناصر الطبيعة المحيطة به، لذلك غالبا ما تقام المعابد في أماكن تتميز بجمال الطبيعة، وتعكس الصفاء والروحانية وذلك في الجبال وحول جداول المياه وعلي مقربة من مساقط الماء، ووسط الغابات. واستطرد صاحبي ليشرح أن رهبان عقيدة «الزن» يأخذون حياتهم بجدية وتقشف، أما نحن الباحثين عن التجربة فيمكننا أن نعتبرها نوعا من الرياضة الروحانية التي لا تتعارض مع الأديان التي نؤمن بها، وبذلك نأخذ منها ما يصلح لنا بحثا عن التوافق والتنوير والهدوء النفسي، وأضاف أنه يوجد في معابد «الزن» أقسام «للهواة» يبدأون تدريباتهم تحت إشراف بعض المتخصصين بحيث يجلس الفرد في وضع «زهرة اللوتس»، أي جالسا القرفصاء والأرجل متقاطعة علي الفخذ، ثم توضع الأيدي متلامسة الأصابع، والكف اليسري في بطن اليد اليمني مع تلامس طرفي الإبهامين، والفم مغلق، والعينان ضيقتان لا مفتوحتان ولا مغلقتان، ويطمئن الانسان في جلسته، ويأخذ نفسا عميقا، ويخرجه من الفم، ويكرر ذلك، ورويدا رويدا تضبط عملية دخول وخروج الهواء حتي ينتظم النفس تماما، وهنا نصل الي أجمل ما في رياضة «الزن»، وهو «التركيز مع عدم التفكير». وتبدأ المتاعب منذ هذه اللحظة لأن كل مشاغل الدنيا وأفكارها ستتوارد علي الذهن متزاحمة متشابكة لتشتت العقل والتركيز، وتبدأ آلام الرجلين في شد الانتباه لتقلص العضلات، ولكن من المداومة سيصل الانسان الي اللحظة التي تنعدم فيها هذه المشاكل وتختفي، وهنا يكون الانسان قد بدأ جديا في ممارسة رياضة «الزن» وقرر زميلي أن رياضة «الزن» — وهو يمارسها باعتبارها رياضة — هي الوسيلة المثلي لغسل كل متاعب العمل الديبلوماسي وإزالة التوترات التي تنتج عنه، ونصحني بزيارة أحد المعابد الموجود علي مسافة معقولة من طوكيو.

ولم أستطع أن أقاوم الرغبة في المعرفة والتجربة، والبحث عن ردود لأسئلة كثيرة بدأت تتقافز الي ذهني، وفعلا طلبت من سكرتيرة السفارة شرح طريقة الوصول الي المعبد للسائق حيث أنني أزمع زيارة المعبد في أجازة نهاية الأسبوع، وفي اليوم المحدد سارت السيارة حتي وصلنا الي منطقة جبلية رائعة لاتسمع فيها إلا زقزقة العصافير، ولا تري إلا جداول المياه وخضرة الأشجار، لوحات فنية جمالية رسمها الخالق لتسبح بحمده علي هذه الأرض، ووصلنا الي مدخل المعبد، وهناك فوجئنا بوجود بعض الرهبان في انتظارنا حيث قامت السكرتيرة النشيطة بابلاغهم باحتمال زيارتنا، ولعل هذا يشكل جزءا من وفائها لبلدها حيث شاءت أن نري ما نسعي إليه في أجمل صوره، وتبعناهم من المدخل الجميل، وتقدمنا وسط صفين من الأشجار المزهرة الي أن وصلنا الي سلم حجري.

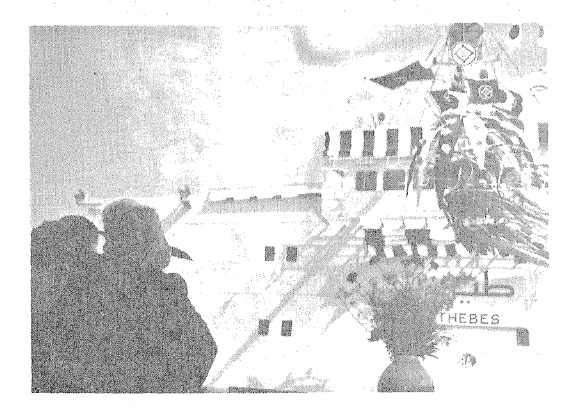
بدأ الراهب يشرح لنا أن الطبيعة الجميلة وما تعكسه من صفاء روحي هو ركن من أركان «الزن»، ثم أردف في إغراء أننا سنري من أعلي أجمل منظر أخاذ يجمع بين البحيرة والأشجار والشلالات والخضرة مع نسمات من الهدوء والسكينة، وأنه للوصول الي الدير سنصعد هذا السلم الذي يتلوي صاعدا في الجبل. ووجدت نفسي وقد أصبحت وجها لوجه أمام مأزق حقيقي، فعدد درجات هذا السلم يجاوز المائة، والصعود بالنسبة لي محظور بأمر الأطباء، وكان لا مفر من إيجاد حل



أطباق يابانية



تدشين الباخرة «طيبة»





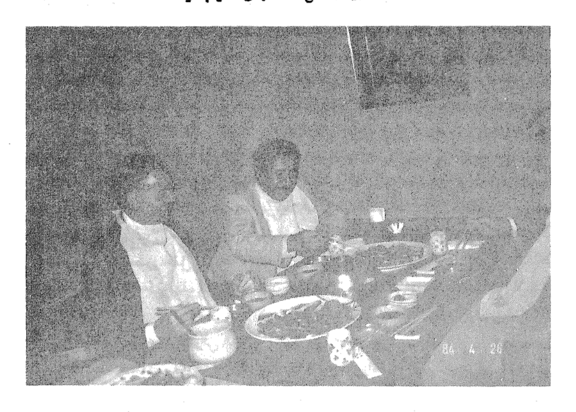
فتاة الجيشا



آلة شاميس اليابانية



المصريون مع الأطباق اليابانية



توفيقي، وهو صعود مجموعة من الدرجات تعقبها راحة حتي تهدأ الأنفاس، وضربات القلب، ثم موالاة الصعود علي مراحل وأنا أردد همسا «الأمر لله من قبل ومن بعد».

ووصلنا سالمين والحمد لله، واندمجنا في هذه الطبيعة الخلابة فعلا، وسرنا في ردهات المعبد ونحن نتحدث في همس، وأكد الراهب كل المعلومات التي شرحها لي زميلي، ومنها أن ممارسة «الزن» توصل الانسان الي حالة من التنوير والهدوء الروحي واستضاءة القلب والشفافية، والطريق الي ذلك أن تخلع عنك كل الأحاسيس والأفكار وتفكر في «لا شيء»، أو لا تفكر في شيء إطلاقا، وأردف أن فلسفة «الزن» ليست في أن تحصل علي شيء وأنت تمارسها أو نتيجة لممارستها، فليس لها هدف تبتغي الوصول إليه ولكنها تساعدك علي استخلاص أجمل ما في نفسك وروحك والاستمتاع بها، والاحساس بالهدوء الروحي الداخلي. وفي همس قلت للراهب أن التفكير «في لا شيء» هو أمر من السهل أن يقال، ولكن طبيعة الإنسان تدفعه الي الشرود، وسرعان ما تتقافز داخل عقله كل المشاكل الحقيقية والخيالية، فكيف يمكن التركيز مع هذه الطبيعة الإنسانية بضعفها؟ وأجاب مرشدنا أنهم يعرفون هذا الضعف الإنساني، ولذلك فإنهم يساعدون المتعبد لمقاومة هذا الشرود. فيوجد في القاعة راهب يقف ممسكا بعصا طويلة يضرب بها علي كتف المتأمل إذا ما شرد ذهنه وسرحت خواطره، ومن خارج القاعة شاهدنا مجموعة من الممارسين، والراهب المشرف بعصاه الطويلة – الخفيفة – ينزل بها علي كتف من ضاع منه التركيز.

وضحكت من أعماقي وأنا أقول لنفسي «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه» حيث أيقنت أنني وحدي سأحتاج لأكثر من راهب ولمجموعة من العصي لأنني بالقطع لن أستطيع التركيز في «لاشيء» لمدة تزيد علي الثواني. وتخيلت كتفي وهو يتلقي – باستمرار – التحية المقررة بالعصا، واتخذت قرارا لا رجعة فيه، ودعوت «لسيدنا» فقيه القرية صاحب العصا الشهيرة في دنيا التعليم.

٩– مصارعة «السومو»

زار المرحوم كمال حسن علي اليابان زيارة رسمية وكان وزيرا للخارجية، وكعادة اليابانيين كانت المباحثات تبدأ من الثامنة صباحا وتستمر لمدة خمس ساعات، وقد تستأنف في المساء، أو يقوم الوفد الزائر بعدة زيارات رسمية للمسئولين، أو لبعض من رموز النهضة اليابانية من صناعة وفنون وثقافة. ودعينا الي حضور حفل مصارعة «للسومو» يقام في طوكيو علي كأس الامبراطور، وقد سعد المرحوم كمال حسن علي بهذه الزيارة لأنه كان من أبطال المصارعة في شبابه. توجهنا الي الاستاد المخصص لهذا النوع من الرياضة، وهو يشابه الاستاد المتوسط لكرة القدم، ولكنه يأخذ الشكل الدائري، ويتوسطه حلقة المصارعة ثم تتوالي الدوائر حولها حتي تصل الي المدرجات الدائرية وبها بعض المقصورات، أهمها المقصورة الامبراطورية المخصصة للامبراطور والأمراء فقط، وتعتبر بطولات هذه المصارعة من أهم الأحداث التي يعيشها اليابانيون وتذاع تلفزيونيا.

يحفظ الشعب أسماء الأبطال، ويتعصب لهم، ويعاملون معاملة كبار الفنانين والنجوم من حيث تكريمهم. وترجع أصول هذه الرياضة الى ديانة «الشنتو»، فقديما كانت تقام المهرجانات والاحتفالات بمناسبة حلول الأعياد الدينية، وكانت مصارعة «السومو» إحدي الرياضات التي تقام علي هامش المهرجانات للتسرية عن الجماهير، وما لبث أن أصبح لها قواعد وأصول مكتوبة ومرعية.

لاحظنا أن الزينات الموضوعة حول الحلقة، وفي مداخل الاستاد كلها ذات أصول في ديانة الشنتو، كما أن كل لاعب عندما يبدأ اللعب فإنه يلقي بكمية كبيرة من الملح علي دفعات في أرض الحلقة كنوع من التطهر وطرد الأرواح المشاكسة. والحلقة تتكون من دائرة قطرها ١٨ قدما، وقد أعدت من طبقات من القش المضغوط جيدا. ويوجد بمنتصف الحلقة علامتان يقف كل مصارع أمام إحداهما، ويحيي كل منهما الآخر بالانحناء مع فتح الكفين إشارة الي الوعد بأن تكون المعركة نظيفة تحترم قوانين اللعبة.

عندما يعطي الحكم الإشارة يحاول كل منهما تحقيق الانتصار، ويكسب اللاعب الذي يجبر زميله علي لمس الحلقة بأي جزء من جسمه عدا قدميه، أو لمس ما هو خارج الحلقة بأي جزء من جسمه، ويلبس المصارع غطاء قصيرا مزركشا مربوطا بحبل سميك مجدول وفقا للتقاليد «الشنتوية». يخلع اللاعب هذا الرداء قبل بداية اللعب ليظهر تحته كتلة تزن حوالي مائتين من الكيلوجرامات هي خليط من الشحم والعضلات واللحم، ويرتدي المصارع حزاما عريضا من القماش يمر مرات متعددة بين فخذيه، ويلف حول وسطه ويعقد بطريقة فنية، بحيث لا ينزلق أو «يفك» وهو يلعب، ويحاول كل من اللاعبين – وهو يقف في ركنه – أن يأتي ببعض الحركات الرياضية يستعرض بها إمكاناته وذلك بهدف إخافة غريمه. أما الحكم فهو يضع رداء أشبه ما يكون «بالبلطو» وطاقية، وكلاهما مزركش علي الطريقة اليابانية التقليدية. والمدة المحددة لمباراة المصارعة هي أربع دقائق فقط، ويساعد حكم الحلقة ثلاثة من الحكام يجلسون حولها. ويحدث أنه يكون من الصعب تحديد اللاعب الفائز كما لو خرج الاثنان من الحلقة في نفس اللحظة نتيجة للالتحام، أو سقطا سويا، ولم يستطع الحكام تحديد من منهما لمس الأرض أولا، وهنا تظهر فائدة التكنولوجيا الحديثة التي تقتحم أعرق رياضة تقليدية في اليابان، فإن اللقطات التي سجلتها عدسات التلفزيون المعلقة فوق الحلقة وفي الجوانب يعاد عرضها بالسرعة البطيئة في غرفة مخصصة لذلك في الاستاد، ويتولي الحكم – الاحتياطي – الموجود بهذه الغرفة تحديد الفائز وإخطار زميله حكم الحلقة لاسلكيا بالنتيجة ويعلنها الأخير.

نعود الي الحفل الذي حضرناه، وقد كان من المقرر إقامة عشر مباريات، وكل مباراة تتلوها استراحة قصيرة. قرأت أسماء المتصارعين في البرنامج المقدم لنا، وكنت قد أصبحت من عشاق اللعبة بعد أن تعلمت أحكامها وقواعدها، وأصبحت أتابع عن كثب الأبطال الذين أحببت أسلوبهم في المصارعة. وانبهر الوفد المصري الزائر بكل هذا المجتمع الياباني بتقاليده التي تتواجد حية في هذا الاستاد، وبأدبه المعهود وبروحه المرحة سألني المرحوم كمال حسن علي عما اذا كنت سأتركهم في

هذه المتاهة الغربية أم أفسر لهم بعض ما يجري أمامهم، وما سيرونه مع ذكر بعض قواعد المباراة حتي يمكنهم متابعتها. وشرحت بإيجاز المعلومات التي تمكنهم من الاستمتاع بمشاهدة المباريات بل وتماديت – بناء علي الخبرة – بترشيح الأبطال المحتمل فوزهم، وابتسمت والمرحوم كمال حسن علي يضع علامات بقلمه علي الأسماء التي رشحتها، وعرفت أنه كعادته دقيق ويحب الدقة في الكلام ولا مانع من اختبار محدثه حتى في هذه المناسبة الرياضية.

كان يرافقنا سفير اليابان في القاهرة الذي حضر الي طوكيو للمشاركة في المباحثات، وقد اصطحبنا الي حفل «السومو»، ولكنه تركنا عند الوصول لمكان جلوسنا لانشغاله بأمر ما، وما لبث أن عاد، وجلس بجوار المرحوم كمال حسن علي، وشاءت لباقة السفير وكياسته أن يشرح للسيد الوزير بعض قواعد اللعبة حتي يفهم ما سيشاهد ويستمتع به. وهنا أحسست أنني مقدم علي مأزق رياضي، فماذا لو شرح السفير الياباني بعض القواعد وكانت مخالفة لما ذكرته، أو رشح بعض الأسماء التي يراها أجدر بالبطولة من وجهة نظره. وتابعت الشرح وأنا انظر بإعجاب للمرحوم كمال حسن علي وهو يستمع الي كل هذه التفاصيل بانبهار وإصغاء وتركيز كما لو كان يسمعها لأول مرة في حياته، مع أنها صورة طبق الأصل مما سمعه مني منذ دقائق معدودة. وآمنت أن الرجل رغم جذوره العسكرية فإنه كان دبلوماسيا بطبعه، وانتهي الشرح، والتفت اليّ المرحوم كمال حسن علي ليقول لي بأسلوبه المليء بالدعابة المهذبة كعادته «يظهر إن السفراء بيغشوا من بعض»، وحمدت الله أن المعلومات كانت تقريبا متطابقة، واحترمت القاعدة الدبلوماسية التي تقول «إن السفير يجب أن يعرف شيئا عن كل شيء».

١٠– صيد البط الياباني :

إعتاد امبراطور اليابان أن يدعو بعض السفراء المعتمدين في طوكيو وزوجاتهم سنويا ليقضوا يوما كاملا في عزبة يمتلكها. وكنا ننتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر لأنها كانت نموذجا جميلا لكل ما يساعد الإنسان علي قضاء يوم بهيج في هدوء وسعادة. وتبدأ الرحلة بالوصول بسياراتنا الي القصر الامبراطوري حيث نتجمع في أحد الصالونات، وفي الوقت المناسب نركب أوتوبيسات سياحية كبيرة في رَكْبٍ رسمي تتقدمه الموتسيكلات وفي حراسة مشددة خوفا علي هذه المجموعة من السفراء حتي نصل الي محطة القطار، ومن هناك نركب قطارا خاصا يقلنا مع الضيوف الآخرين من الأميرات والأمراء بالإضافة الي كبار رجال البلاط ووزارة الخارجية لنصل الي المحطة، وتقلنا السيارات الي مدخل العزبة. ويرحب بنا في إطار فولكلوري تقليدي بتقديم شراب اللبن الطبيعي أو عصير العنب من انتاج هذه المزرعة، وتتعدد أمامنا الخيارات، فهناك دراجات معدة وخيول أصيلة، وعربات تجرها الخيول تتسع لستة أشخاص، كل ذلك يشكل وسائل متعددة متحركة لمشاهدة روعة الطبيعة، واللمسات الفنية التي أضافها الانسان. ونشاهد ألوانا مبهرة من مجموعات الزهور المتجاورة والمتداخلة التي تشكل لوحات فنية قد لا يستطيع الفنان التشكيلي تصويرها بهذا الجمال. ثم نفاجأ بنماذج من الحدائق اليابانية، وللأسف فإن ما عرفناه في حلوان وأسميناه «الحديقة اليابانية» بعيد تماما عن الحديقة اليابانية

التقليدية.

الحديقة اليابانية تحاول بتكويناتها أن تنقل للإنسان جزءا من الطبيعة بأسلوب معين يجعلك تستمتع وتحس بالهدوء وراحة البال والطمأنينة، وتجد عادة في الحديقة وعاء من الصخر مليئا بالماء وبجواره «مغرفة» خشبية صغيرة لنأخذ بها بعض الماء و«نتمضمض» ونغسل أيدينا وذلك رمزا للتطهر والنظافة، ثم تأتي المرحلة الثانية وقد استحوذ علينا كل هذا الجمال وهي محاولة الحصول على النقاء والصفاء بعيدا عن أفكارنا التي عادة ما تشغلنا وتضغط علينا بالهموم، بحيث يركز العقل والقلب في تأمل كل هذا الجمال وترك ماعداه من أفكار وهموم.

ولهندسة الحدائق اليابانية عدة مدارس، فقد تكون حديقة مليئة بالرمل ولكن بها بعض الصخور ذات أشكال معينة، والمفروض أنها تبعث فيك من التأمل مشاعر تتفق مع شكلها وما تبعثه في نفسك من إشعاعات كالقوة أو الصفاء، أو الرقة. وقد يحيط ببعض هذه الصخور طبقة رقيقة من العشب الأخضر، وبذلك تتناغم ألوان الصخور المتعددة مع الرمل الأصفر والنجيل الأخضر بما يعكس قدرة الخالق. ويدخل في تكوين الحدائق اليابانية – وفقا للمدارس المتعددة – بعض من العناصر التالية : حجر كبير وقد نحت علي شكل فانوس تقليدي للإضاءة، ولهذا الفانوس جذور تاريخية في ديانة الشنتو وممارساتها، أو حوض للماء – تقليدي – وبجواره «المغرفة» الخشبية للتطهر، وبذلك يكون الزائر مؤهلا لدخول المعبد أو بيت الشاي أو الحديقة، أو شلالات المياه الطبيعية تنهمر منها المياه من ارتفاعات الي أسفل في جمال أخاذ يستحوذ علي انبهار وإعجاب الإنسان، وقد ينشئ الانسان شلالا صناعيا بوضع مجموعة من الصخور بطريقة معينة أمام مجري مائي ليحول المياه في الاتجاه المطلوب ويجبرها علي السريان، ثم السقوط من أعلي لأسفل الي المكان المعد لذلك مكونا شلالا مائيا صناعيا. وقد تستخدم فروع شجر «البامبو» الكبيرة المجوفة لنقل المياه من مكان ليتساقط من الفتحة الأخري محدثا خريرا جميلا، ثم تزداد الحديقة جمالا بوجود كوبري أو عدة كبارٍ صغيرة تمر فوق غدير للمياه، وعادة ما تكون هذه الكباري ملونة باللون الأحمر. وننتهي من تأمل مجموعة الحدائق اليابانية المختلفة التي أبدع مصممها ومنفذها في إخراج وعرض كل هذا الجمال الذي ينفذ الي الأعماق ويملأ النفس جمالا وهدوءا.

وتبدأ أهم الأحداث في هذه الزيارة وهو برنامج صيد البط من البحيرة الواسعة التي نقف علي شاطئها، وقد يسرح الخيال بالقارئة العزيزة أو القارىء الفطن ليعتقد أن المضيفين سيمدوننا بالبنادق اليابانيةالدقيقة، وأننا سنتمكن من ابادة قوافل من البط المهاجر، ومن يدري فلعل السلطات المسئولة في هذه المنطقة قد صدرت لها التعليمات بأن تتخذ الإجراءات الكفيلة بأن يتمكن كل سفير من اصطياد عدد وافر من البط– مهما كانت دقة تنشينه – حتي يعود سعيدا الي سفارته وتزداد مشاعره الودية نحو اليابان وسياستها، وفوجئنا بترتيبات لا يمكن أن تقام بهذا الإخراج الا في بلد واحد فقط هو اليابان.

قسم الضيوف الي مجموعات كل منها حوالي عشرة أفراد، وتقف المجموعات علي شاطيء البحيرة علي مسافات متباعدة، وكل مجموعة تقف في صفين متواجهين، والمسافة بينهما عبارة عن خندق مائي يؤدي للبحيرة. وقبل مكان بداية وقوف كل مجموعة يوجد باب مرتفع يخفي خلفه امتدادا للخندق المائي، وهو محكم الغلق ولا يسمح بخروج البط الموجود فيه، نظرا لأن الباب عند غلقه يصل الي قاع الخندق كما أنه محاط بالاسلاك من أعلي. ويخصص لكل مجموعة عدد معين من البط الحي الذي تم اصطياده بدون اطلاق رصاص، وتم تعليق حلقة في رجل كل بطة تحوي بياناتها لدراسة كل ما يتعلق بها، واسلوب حياتها عندما تقع في الأسر في احدي المحطات العلمية المخصصة لهذا الغرض في دول العالم. ويمسك كل فرد من الصائدين بالمجموعة بعصا طولهاحوالي متر ونصف، وفي نهايتها شبكة من الخيوط معلقة من نهايتها – تشبه شبكة كرة السلة– ثم تعطي لنا اشارة الإستعداد.

يقوم شخص بسحب الباب الحديدي لأعلي، ويكتشف البط أن أمامه وسيلتين للإنطلاق، إما الطيران من موقعه مباشرة وفي أي إتجاه تمليه عليه غريزة البقاء، أو التقدم علي سطح الماء بسرعة كبيرة ثم الصعود للهواء من بين الشبكات المعدة لاستقباله، وعلي كل فرد في المجموعة أن يكون رد فعله سريعا لحركة البط ليوجه شبكته إما الي أسفل أو لأعلي أو بينهما ليدخل البط في شبكته، وتتكرر هذه العملية عدة مرات ، والكل يضحك، فكثيرا ما يسود الإرتباك، والتصادم بين الشبكات مما يتيح للطائر أن يفر الي البحيرة، وفي كل مرة يأتي الشخص المعين للمساعدة – فرد لكل مدعو– ليأخذ الشبكة ويخرج الصيد ويضعه في القفص، ويخطر الحكام بالإسم والعدد الذي تم صيده ، وفي نهاية حفل الصيد، يقدم لكل منا الأقفاص التي بها البط الذي قام بصيده– ان كان قد وفق في اصطياد شيء – ليمسك بها برقة شديدة ويطلقها في الجو لتسترد حريتها مرة أخري. وبعد إنتهاء هذه الخطوة يقدم لكل منا فوطة صغيرة مليئة بالبخار الساخن المعطر لمسح الأيدي.

وقد يثور التساؤل إذن فأين هي المشكلة؟ ولا يدري السائل أن المشكلة تكمن في أن السفير عادة مايعطي مكان الصدارة بجوار الباب الذي يفتح ليخرج منه البط، وأمام السفير وبجانبه نخبة من الأميرات والأمراء وكبار رجال الدولة وزوجاتهم، والسفير مع شئ من «الشطارة المصرية» يستطيع أن يحدد أنسب الزوايا لاصطياد أكبر مجموعة من البط، ولكن يشغله عن هذا الفوز قلقه من أن تؤدي حركة مفاجئة منه أو من شبكته لإصابة ضحية من الأفضل الحفاظ علي ودها، وبحسبة ديبلوماسية سريعة وجد أن أفضل الحلول هو إتاحة الفرصة «للغير» في الفوز بأكبر نسبة «أهداف»، وكانت مكافأته هي علامات السعادة والفرحة التي ملأت الوجوه الفائزة.

١١– مراسم تناول الشاي :

قرأنا أن الانجليز يجعلون من تناول الشاي عصرا عنصرا هاما في حياتهم، ويتفننون في اختيار

زنواع الشاي، ولهم في تقديمه وتناوله تقاليد تشترط نسبة معينة من الشاي الي الماء، مع ضرورة تسخين «البراد» قبل وضع الشاي به، كل هذه الشروط مهما تعددت تبدو بسيطة وساذجة إذا قورنت بمراسم تناول الشاي في اليابان.

ترجع جذور هذا التقليد الاجتماعي الي ديانة الشنتو اليابانية، بما فيها من مراسم وتقاليد، كالتطهر الذي يتم بالمضمضة وغسل الأيدي بالماء كرمز للتخلص من كل الملوثات المعنوية التي تصيب قلب الانسان وتفكيره، ثم ما تحرص عليه ديانة الشنتو من ممارسة عبادة التأمل وصولا الي السعادة الداخلية، وعادة فإن «بيوت الشاي» Tea House تقام في حدائق المنازل والمعابد أو الحدائق الكبيرة، وهي تقع دائماً في ركن يشترط للوصول إليه أن يمر الانسان بحديقة يابانية قد جمّلت وازدانت بنباتاتها وزهورها وصخورها، والمياه التي تجري في جداولها، ومساقط المياه الطبيعية أو الصناعية التي تضيف لمسة جمال ونقاء الي بصمة الطبيعة، ويمر الانسان بالحديقة ويتأمل علي مهل كل هذا الجمال، والمضيف يشرح القواعد الجمالية حتي لاتفوت الضيف، وفي هذا الجو الهادئ المليء بالجمال، الذي تشف فيه الروح وتتشرب إشعاعات هذا الصنع الرباني، الذي يتسم بالابداع يسير الانسان حتي يصل الي منزل الشاي، ليجد أمامه إناء حجريا به ماء، ليعيد التطهر بالمضمضة وغسل الأيدي، وهكذا يستطيع دخول المنزل كما خطط له هادئاً سعيدا كله صفاء وشفافية. ثم يخلع الضيف حذاءه خارج المنزل، ويدخل من باب صغير له طابع معابد الشنتو، وهو باب سقفه غير مرتفع، بحيث يضطر الداخل الي الانحناء – احتراما – ليتمكن من الدخول، ثم يسير علي حصير التاتامي.

وهنا أذكر أن وفدا مصريا حضر لليابان، ورغب مسئول ياباني كبير أن يكرم رئيس الوفد فدعاه الي تناول الشاي في منزله، وسارت الخطوات كما أعرفها ونحن نمر بالحديقة ونتأمل جمال الزهور مع حسن التنسيق، ووصلنا علي مقربة من كوخ الشاي، وأخذنا بعضا من الماء من الإناء الحجري للمضمضة، ثم اقتربنا من باب الكوخ، وأتت لحظة خلع الحذاء، وكان الضيف المصري ممن شغلته مسئولياته الجسام عن ممارسة الرياضة منذ زمن طويل، وأراد أن يخلع حذاءه، ولكن توازنه كاد أن يختل، فاستند ببساطة الي أقرب جدار ليده، ولم يكن يدري أن هذا الجدار ما هو إلا رقائق من الورق الياباني الأبيض المصنوع يدويا وقد ركب في إطار رقيق للغاية من الخشب، وفوجئنا جميعا بالورق يتمزق، والحائط ينهار، وسقط الضيف العزيز علي هذه الانقاض الخفيفة، ثم ......، ثم لاداعي لإضافة باقي التفاصيل.

انهمكنا جميعا في الاطمئنان عليه ثم مساعدته علي الوقوف، والحمد لله أنه لم يصب بأي أضرار أو آلام. وضاع الصفاء، وطارت شفافية الروح، وهما من أهم أهداف حفل الشاي الياباني، وكان لابد لنا من متابعة البرنامج والمرور بكل الخطوات التي كتبت علينا. ودخلنا من الفتحة الصغيرة التي يصفونها بأنها باب الكوخ وذلك بالإنحناء، وجلسنا علي شلت صغيرة وضعناها تحت الركبة مع فرد الساقين تحت الجسم، وهو وضع لو تعلمون «غير مريح»، وتبدأ مراسم الشاي التي ترجع أصولها

لديانة الشنتو، والمفروض أن يقوم المضيف بكل مراسم صنع الشاي وتقديمة، إلا أنه نظرا لكثرة عدد الضيوف، فقد قام بهذه العملية أحد أساتذة هذا الفن وهو يرتدي ملابسه اليابانية التقليدية، ويبدأ في بطء شديد وهدوء في إعداد كل الأواني التي ستستخدم، وذلك دون إصدار صوت، وبأسلوب شعاره النظافة التامة والحركات المدروسة التي تشبه حركات عازف الموسيقي، ويبدأ في تسخين الماء، ويأخذ كمية من الشاي الأخضر المسحوق "Matcha" الموضوع في علبة خشبية تعتبر بنقوشها وألوانها قطعة فنية رائعة، ونلاحظ أنه يأخذ الشاي بملعقة خشبية رقيقة للغاية وطويلة نوعا ما، ويبدأ الشاي في الغليان.

توزع علينا أقداح جميلة تم غسلها أمامنا، ويتحرك معد الشاي علي ركبته في هدوء انسيابي ليضع لكل منا قدرا بسيطا من الشاي السائل الأخضر لايزيد علي أربع ملاعق، ونلاحظ أنه سميك القوام أخضر اللون، ووفقا للبروتوكول الياباني فمن المفروض أن يمسك الإنسان بكوبه المصنوع من الفخار ويضعه في كف يده اليسري، وأصابع اليد اليمني تحيط به، ويتمعن فيه ويتأمل نقوشه وتكوينه ويحاول استخلاص خصائصه الجمالية بحيث تنشأ ألفة بينه وبين قدحه، وقبل أن يبدأ كل منا في تذوق الشاي عليه أن يستأذن جاره قائلا "Osaki ni" أي أستأذنك في تناول الشاي، ثم يأخذ رشفة – رشفة واحدة – من الشاي الساخن ويتذوقه ببطء، ويسعد بمذاقه – مهما كان طعمه – ثم يعاود تأمل القدح ويأخذ الرشفة الثانية ثم الثالثة والأخيرة. ومن مراسم تناول الشاي أن تدير القدح في اتجاه واحد ببطء ثلاث مرات، وتعيش هذه اللحظات في تأمل جمال القدح ونقوشه، ومن الذوق سؤال المضيف عن تاريخ قدح الشاي الذي تشرب فيه، وخصائصه الجمالية، وكيفية صنعه وإبداء الإعجاب به، وأذكر أنه سبق لي أن دعيت وزوجتي الي حفل لتناول الشاي دعاني إليه كبير الرهبان البوذيين، وقد كان لي شرف استضافته في منزلي بالقاهرة، وقد لاحظت أنه قدم لي قدحا لتناول الشاي من الفخار، وليس له – في رأيي – أي شكل جمالي، ويبدو بسيطا وغير منتظم، ولو عثرت عليه في الشارع لما أعطيته أي اهتمام، ومن باب الأدب ووفقا لما تعلمناه من قواعد البروتوكول سألت الراهب عن تاريخ هذا القدح، وإذا بي أسمع المفاجأة الكبري، فإنه زيادة في تكريمي تم إخراج هذا القدح من «الفترينة» الزجاجية التي يعرض بها في المعبد، ليقدم لي لشرب الشاي، وعلمت أن هذا القدح قد صنعه بيده منذ أكثر من مائتي عام كبير رهبان هذا المعبد، وأنه يعتبر من الآثار القيمة التي يحافظ عليها المعبد ورهبانه، ويعتبر ضمن مقتنيات متحف المعبد. وأصابت يدي رعشة خفيفة وأنا أمسك بالقدح، بعد أن عرفت قيمته، وحرصت علي أن تكون كل حركاتي في هدوء وحذر خوفا علي هذا الكنز الثمين الذي عاملته من قبل باستهتار وعدم اهتمام. عدت بعد استعادة ذكرياتي الي التركيز علي الحفل الذي يضمنا لتتكرر نفس الخطوات السابقة، وارتشف مرة أخري هذا السائل الأخضر الغريب الطعم، وينتهي الحفل علي خير والحمد لله، رغم الأضرار المادية التي حدثت بكوخ الشاي،

والتي قد يعتد بعض اليابانيين إذا شاهدوها أن زلزالا قد مر من هنا.

وخرجت مع الضيف الكريم، وقد عاش طقوس التقاليد اليابانية في حفل الشاي، ومع ابتسامته الساخرة يصلني تعليقه «ساعتين من الزمن لأشرب كوبا ساخنا من الملوخية الناشفة»....

١٢- حفل تأبين المرحوم الرئيس السادات :

تسبق طوكيو القاهرة بسبع ساعات هي فرق التوقيت بين البلدين. وفي السادس من أكتوبر ١٩٨١ عدت من حفل عشاء رسمي للمنزل، وبدأت في الاستماع الي بعض نشرات الأخبار العالمية قبل توجهي للنوم، وفوجئت بإحدي المحطات تذيع أن الرئيس السادات قد أطلق عليه الرصاص، وأن حالته غير مطمئنة، وبعد فترة قصيرة أكدت محطات الاذاعة مقتله. وما لبثت التليفونات في المنزل أن أصابها الجنون، فقد قام الكثيرون من مندوبي الاذاعات العالمية والصحف بالاتصال بسفير مصر في اليابان طالبين تأكيد الخبر مع تعليق السفير عليه، وتطوع بعضهم بإبلاغي التفصيلات الدقيقة التي وصلته، وشكل الزملاء أعضاء السفارة بما فيهم رئيس المكتب الاعلامي فريق استماع لكافة المحطات حتي تأكد النبأ، وعلمنا ما يكفينا من تفصيلات. ومن خبرتي بالعقلية اليابانية، وما أتوقع حدوثه في الصباح بمبني السفارة اتفقت مع الزملاء للتوجه الي السفارة فورا وإعداد الصالون وفقا للتقاليد اليابانية، أي اعداد مائدة توضع عليها صورة الفقيد محاطة بالورود، وأمامها دفتر تقبل العزاء وملحقاته من أقلام، ويعد باقي الصالون لاستقبال المعزين. واتخذت الترتيبات لرفع علم مصر منكسا علي الصاري بمبني السفارة في الصباح المبكر، مع التأكد من رفع علم «جديد» والاشراف علي النظام، وتعيين المسئول عن دخول وخروج السيارات مع ترتيبات أمنية خاصة.

تركت المهمة للزملاء، وعبثا حاولت النوم وأنا أتابع كل ما يمكن الحصول عليه من تفصيلات من الإذاعات. وفي الصباح وصلت الي السفارة قبل الثامنة صباحاً، وبالقرب من المدخل فوجئت بحشد كبير للغاية من مصوري وكالات الأنباء ومحطات التلفزيون الياباني والأجنبي، وقد وقف الكثير منهم علي سلالم خفيفة لضمان التقاط الصور، ومتابعة اللقطات من بعيد. وما أن اقتربت السيارة بأرقامها الديبلوماسية حتي دبت الحركة السريعة بين هذه المجموعة من رجال الإعلام، ونزلت من السيارة لأجد بالقرب من فمي مجموعة ميكروفونات تمسكها الأيدي أو تقربها مواسير رفيعة، والأسئلة تنهمر طالبة ما يشبع نهم وسائل الإعلام التي لا تكتفي أبدا. ودخلت الي السفارة، ولاحظت العلم المصري الرائع وهو يرفرف في منتصف الصاري - منكسا - حزنا علي من رفعه عاليا في صحراء سيناء بعد تحريرها. وصح ما توقعته، فسرعان ما بدأ التوافد للعزاء من كبار المسئولين والوزراء والسفراء، وحمدت الله أن كل الترتيبات قد تمت أثناء الليل بحيث كان المكان وكل الزملاء جاهزين لاستقبال المعزين، الذين استمرت جموعهم تتوافد ومنهم نماذج من رجل الشارع الياباني، وتلاميذ المدارس والجامعات، والكل يعبر عن مشاعره بالدموع - دموع اليابانيين سهلة - حزنا علي

فقد السادات الذي كان له شعبية جارفة في اليابان باعتباره رجل السلام، وصاحب فكرة نبذ الحروب التي مازالت تشكل مصدرا للألم والمرارة بالنسبة لليابانيين منذ الحرب العالمية الثانية، وإلقاء القنابل الذرية علي هيروشيما ونجازاكي..، ولاحظنا أن أفرادا من المعزين قد اتبع العادات اليابانية، فأحضر معه بعضا من أنواع الحلوي المصنوعة من الأرز، والتي تقدم عادة لأهل المتوفي كتعبير عن المشاركة، وكذلك وجدنا بعض المظاريف وبداخلها خطابات عزاء مع مبالغ نقدية بعضها من تلاميذ صغار في السن أرفقوا بها مبالغ متواضعة للغاية، وكنا ننفعل لهذه الخطابات المليئة بالبراءة والبساطة، وأحسسنا أن العالم قد أصبح فعلا قرية صغيرة يتكاتف فيها الجميع، ويتبادلون العزاء والمشاعر الصادقة. ما أن هدأت زيارات العزاء حتي واجهت السفارة مشكلتين : أولاهما – كمية من «كعك دقيق الأرز» التي وصلتنا كتعبير عن المشاركة في العزاء، وقد وزعناها علي العاملين اليابانيين بالسفارة، فهم يستطيبون طعمها، أما النقود فقد جمعت وأرسلت بشيك واحد الي جمعية خيرية يابانية في طوكيو، وقامت السفارة بإرسال خطاب شكر شخصي لكل من شارك في العزاء، أما من قدم نقودا فقد أرفق بخطابه صورة من الشيك مع التنويه بتقديرنا لمشاركته لنا في مشاعرنا، وقد تمت كل هذه الخطوات في إطار العادات والتقاليد اليابانية في مناسبات الحداد.

وظننت أن المشاكل قد انتهت بعد أن وجدنا حلا لمشكلة الحلوي ثم مشكلة النقود، ولكن كان هناك مأزق مازال في انتظاري.

اجتمع بي رئيس جمعية الصداقة العربية اليابانية وأبلغني أن الجمعية ستقيم حفل تأبين للمرحوم الرئيس السادات، وشرح لي خطوات الحفل، وأنه سيكتفي بخطاب قصير يلقيه، ثم الوقوف عدة دقائق حدادا، ثم نتقدم الي البوفيه البسيط لتناول المشروبات. وصلت ومعي الزملاء أعضاء السفارة وسمحت لي أقدميتي أن أتقدمهم، وهي ميزة لها ثمنها ومسئولياتها، واقتربنا من باب القاعة، ودخلت من الباب لتتقدم لي إحدي الفتيات وردة صفراء أخذتها شاكرا، وأنا لا أدري ماذا سأعمل بهذه الوردة، وتوقفت قليلا وحضرات الزملاء خلفي، وقد استقر في أذهانهم أنهم سيقلدون سفيرهم في تصرفه، ولم تكن «حكاية الوردة» مما ناقشناه – رئيس الجمعية وأنا – في سيناريو الحفل عند اجتماعنا... وبنظرة سريعة شاملة وجدت مائدة وعليها صورة المرحوم السادات مكللة بالسواد، وأمام الصورة عدة ورود صفراء، وهنا صحت من أعماقي في صمت «وجدتها»، وتقدمت بهدوء لأضع الوردة التي سلمت لي بجانب أخواتها تحت صورة الفقيد الكريم.... تحية إجلال وتقدير علي الطريقة اليابانية، أما الزملاء فقد كفيتهم مشقة مواجهة المأزق والبحث عن المخرج، واستقرت ورودهم بكل ثقة في المكان المخصص لها.

١٣– أسلوب بعض رجال الأعمال باليابان :

يؤمن رجل الأعمال الياباني بالدقة الشديدة والتخطيط المسبق. وتستمر المفاوضات مهما طالت

حتي يمكن الوصول لاتفاق، فإذا أبرم الاتفاق فالقاعدة العامة هي وجوب احترام وتنفيذ كل البنود بأسلوب يقترب من التقديس لا يقبل تعديلا أو تغييرا مهما صغر. تعلمت من اليابانيين هذه القواعد وأصررت علي تطبيقها في التعامل معهم. وكان يضايقني أن هذه القواعد تظل مقدسة لا تمس طالما هي في صالح الجانب الياباني، أما إذا كانت مصلحة رجل الأعمال الياباني - أحيانا - في إجراء بعض التعديلات فهنا تزول القداسة عن هذه القواعد. وأذكر أن وفدا مصريا كبيرا برئاسة أحد السادة الوزراء قد وجهت له دعوة لزيارة طوكيو، ونظرا لأن رجال الأعمال اليابانيين هم عمد الاقتصاد الياباني وسبب نجاحه، واتصالاتهم الشخصية هي التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم التجارية والاقتصادية فقد جري العرف في اليابان علي أنه إذا رغب رجل الأعمال الياباني في دعوة مسئول حكومي بدولة أخري الي اليابان لمناقشة مشروع مشترك أو قرض أو أي نشاط اقتصادي مما يعود علي مؤسسته بالمنفعة، وبالتالي علي الاقتصاد الياباني، فتجنبا لإحراج الضيف المدعو، فقد أقيم مكتب خاص يتبع رئيس الوزراء، بحيث توجه الدعوة رسميا من رئيس الوزراء الياباني، وتتكفل الشركات المستفيدة بتحمل كافة النفقات بعيدا عن ميزانية الدولة وتعقيداتها.

وبدأت المؤسسات الداعية الاتصال بالسفارة لمناقشة الموعد وبرنامج الزيارة، وأرسل المشروع المبدئي للوزير الزائر بالقاهرة، ومع استمرار الاجتماعات والمراسلات مع القاهرة تم الاتفاق علي المشروع النهائي الذي وافقت عليه كافة الأطراف المعنية. وصل سفير مصر في الموعد المحدد الي مطار ناريتا - مطار طوكيو - ليكون في استقبال الوزير والوفد المرافق له. وفي قاعة كبار الزوار تقابل السفير مع ممثل المجموعة اليابانية، وتبادل التحية مع بعض الحاضرين، ثم أعلن عن وصول الطائرة، وتقدم أحد أعضاء السفارة لمكان وقوف الطائرة ليصطحب الوزير من الطائرة حتي قاعة كبار الزوار، وهنا وفي هذه اللحظة التي تم اختيارها بدقة وتكتيك دقيقين، تقدم اليّ ممثل المجموعة اليابانية ليخبرني - والوزير في طريقه إلينا - أنه كان في القاهرة منذ يومين، وقابل الوزير الذي وافق علي عدة تعديلات بسيطة، وقدم لي برنامج الزيارة المعدل لأراه، لاكتشف أن البرنامج القديم الذي كان يشمل زيارة الوزير المصري لستة من الوزراء اليابانيين الذين تختص وزاراتهم بالمشروعات التي سيبحثها الوزير المصري وقد أدرجت هذه الزيارات بناء علي طلب الجانب الياباني، ووافقت عليها السفارة وقبلها الوزير، هذه الزيارات قد تحولت الي زيارات لنواب الوزراء. وبهدوء ديبلوماسي تعلمناه مع الأيام، خاصة وقد تملكني الغيظ لإخفاء هذا البرنامج «المعدل» حتي اللحظة الأخيرة، سألت رئيس المجموعة عما إذا كان الوزير المصري قد وافق علي مقابلة نواب الوزراء بدلا من الوزراء، فأجابني بابتسامة وأدب يابانيين أن وزيرنا رجل بعيد النظر، وقد قبل التعديل بروح رياضية عندما عرف أن ضغوط العمل قد جعلت مقابلة الوزراء اليابانيين متعذرة، وبابتسامة أدب «مصرية - يابانية» رددت عليه بأنه طالما قد وافق الوزير فليس للسفارة أي اعتراض.

انصرف صاحبنا سعيدا ليكون في شرف استقبال الوزير عند مدخل القاعة، وقد اعتقد أن

خطته قد نجحت وحقق أهدافه، ودخل الوزير والوفد المرافق له للقاعة وبرفقته مندوب المجموعة اليابانية ليعرفه علي المستقبلين، وانتهت مراسم الاستقبال، واصطحبت الوزير بهدوء الي ركن بالقاعة، وسألته عن البرنامج وتعديلاته التي فوجئت بها قبل وصوله بدقائق، فأجاب بأن المندوب الياباني قد زاره بالمكتب في اليوم السابق للسفر، وعرض عليه بعض التغييرات، وكان اليوم مزدحما بالعمل فوافق الوزير بسرعة ودون أن يعطي انتباها كافيا لدراسة التغييرات المقترحة، وشرحت له أنه سيقابل ستة نواب وزراء، بدلا من ستة من الوزراء كما كان محددا في البرنامج الأول، وأجاب الوزير ببساطة مذهلة أنه طالما أن الوزراء مشغولون فلا بأس من مقابلة نوابهم، وشرحت له أن البروتوكول لا يسمح بأن الوزير يقابل نائب وزير، وأن الوزير المصري لايقل قدرا واحتراما وخبرة عن زميله الياباني وأن في إتمام هذه الزيارة مخالفة للبروتوكول المصري والياباني، بالاضافة الي أنها تسئ أدبيا الي مركز الوزراء المصريين. أجابني ضاحكا أنه يرجوني ألا أخذ المسألة بهذه الحساسية. ووجدت نفسي في مأزق لا أحسد عليه، فقد يعتقد الوزير «الطيب» أنني أعمل علي إفساد زيارته، وفي الوقت نفسه فإن كل ما تعلمته من ديبلوماسية لا يسمح بهذه المخالفة الصارخة والاستهانة الفجة، وبأدب بالغ أوضحت للضيف الزائر أنه الوزير، وله الكلمة الأولي، وأنني كسفير أقدم له مشورتي، وله أن يأخذ بها أو يهملها، ولكنني أستأذنه أنه في حالة مقابلته لنواب الوزراء أن يعفيني من مصاحبته في هذه الزيارات.

اكتشف الوزير أن الأمور ليست بهذه السهولة التي أعتقدها، وأن هناك كهنوتا لايدريه في فن الديبلوماسية، فآثر تجنب الصدام السلمي، وسألني عن وسيلة الخروج من هذه المشكلة، واقترحت عليه أن يقوم السادة وكلاء الوزارة الثلاثة أعضاء الوفد المصري بزيارة نواب الوزراء بدلا منه، أما إذا تحدد له موعد لمقابلة أي من الوزراء فيمكنه الترحيب بهذا اللقاء. وعاد الوزير للمجموعة المتواجدة في القاعة ليقول لمندوب المجموعة اليابانية إنه يري أن يقوم وكلاء الوزارة الثلاثة المصاحبين له بالوفد بزيارة نواب الوزراء بدلا منه، ونبه علي معاونيه للقيام بهذه المهمة، والتفت إليّ رئيس المجموعة اليابانية وهو يتميز غيظا، وفي الوقت نفسه لم ينس أن يضع علي وجهه أكلشيه الابتسامة اليابانية المؤدبة ليسألني عن رأيي، ولأجيبه بأنه كما تم تغيير البرنامج الأول الذي سبق الاتفاق عليه، فإن من حق الوزير أن يغير البرنامج «المعدل»، طالما سمح بقاعدة التغيير بعد الاتفاق.

١٤ – مآزق خفيفة :

ا– الضيف المصري و «الكابوكي»

حضر الزائر الكريم الي اليابان، وبدأ في تنفيذ برنامج الزيارة المعد وكان سعيدا بكل ما يطلع عليه من تقدم التكنولوجيا الحديثة في اليابان واستخداماتها، ويطلب المزيد من الزيارات العملية للمشاهدة والدراسة. وأبلغني أنه لم يكن بالقاهرة عند افتتاح «المركز الثقافي المصري» – دار الأوبرا – عند عرض فقرات من مسرح «الكابوكي» الياباني وما تبع ذلك من تعليقات جادة وكاريكاتورية حول

هذا الفن التقليدي الياباني الذي لم يفهمه ولم يستسغه المشاهد المصري. شرحت للضيف الكريم صعوبة تقبلنا كمصريين لهذا الفن التقليدي القديم الذي يمتنع فيه علي النساء الاشتراك في العرض، ويقوم بدور المرأة رجل يطلق عليه "Oyama" يستعين بالمكياج والباروكات والكيمونو النسائي ويتقمص شخصية المرأة ويغلب علي حركاته وكلامه ومظهره كل مظاهر الدلال والميوعة الأنثوية ويصاحب العرض المسرحي موسيقي تعتمد علي آلة رئيسية تشبه الجيتار تسمي "Shamisen" ويعالج مسرح الكابوكي موضوعات قديمة، ويستخدم ألفاظا يابانية أصبحت صعبة الفهم حاليا حتي بالنسبة للياباني المثقف، ولذلك لابد من معرفة أركان القصة التي ستمثل علي المسرح حتي يمكن متابعتها وتخيل أحداثها.

أصر زائرنا علي طلبه، ووفقنا في حجز بضع تذاكر في مسرح الدولة الذي يقدم هذا الفن العريق الذي يعرض لفترة محدودة كل عام، وتحجز أغلب تذاكره مقدما وتوجهنا للمسرح، وتسلم كل منا سماعة لاسلكية تترجم للحضور - كل بلغته - مايدور أمامه علي المسرح حتي يمكنه متابعة الأحداث، وفهم الانفعالات والتحركات علي المسرح. بدأ العرض برتابته المعهودة، وبغرابة ملابسه وموسيقاه وأسلوب الإضاءة وحركات الممثلين بل وأصواتهم، والمكياج التقليدي الذي يضعونه، وأنصت الضيف دقائق معدودة، وإذا به فجأة ينزع السماعة، ويهمس الي طالبا الخروج لأنه لايستطيع أن يتحمل مايشاهده ويسمعه رغم الترجمة، ولم أشأ أن أذكره بأنني حذرته من قبل، وابتسمت في هدوء ورجوته أن يتحمل قليلا، ويمكنه أن يختار موضوعا يسرح فيه بفكره خارج هذه القاعة حتي تأتي الاستراحة، ولحظتها يمكننا الخروج بهدوء ودون إحراج لأحد. ومرت الدقائق بطيئة متثاقلة وصاحبنا يتململ في كرسيه، حتي أتانا الفرج بإعلان الاستراحة، والهروب من هذا المأزق.

ب - إشتباك مصري / مصري :

دُعي اثنان من رجال القضاء يشغلان أعلي المناصب القضائية للاطلاع علي النظام القضائي الياباني، وكان أحدهما صديقا لي منذ ما يزيد علي الثلاثين عاما. دعوتهما للعشاء في أحد المطاعم اليابانية التي تقدم طعاما يستسيغه المصريون. اتصل بي في نفس اليوم استاذ جراح بإحدي كليات الطب المصرية وهو زميل لقريب لي ليبلغني تحيات قريبي، فذكرت له أنني قد دعوت اثنين من كبار رجال القضاء للعشاء معي، وأنه يسعدني أن ينضم إلينا. وإجتمعنا نحن الأربعة علي الطعام في جو اجتماعي بهيج، ودارت المناقشات الجادة بين هذه النخبة من المثقفين، وبدأت الجلسة ممتعة، وفجأة تطرق الحديث الي الأدوية والمرض. وكنا لانزال في بداية عصر الانفتاح بمصر، وقد بدأت الأسعار في الارتفاع بلا منطق، ونتج عن ذلك ظهور نفوس تبتغي الكسب السريع، وكادت أن تختفي المثاليات، واستكمل أحد المستشارين حديثه في أدب رقيق ليقرر أنه يتعجب حين يسمع أن أحد السادة الجراحين قد تقاضي ألفا من الجنيهات «كان رقما مرتفعا في حينه» لإجراء عملية جراحية بسيطة، وأردف أنه كان يفضل أن يراعي الجراح ظروف المجتمع، وقسوة الظروف علي المرضي، وأن يكون قدوة

للمواطنين في مواجهة إنفلات الأسعار، لا أن يساير بعض الطبقات التي أصابها السعار بحثا عن المكسب السريع، وللأمانة فقد كان حديثه مهذبا، وعاما يشرح ويوضح دون أن يجرح.

فوجئت بالأستاذ الجراح يرد في عصبية لا مبرر لها، وبأسلوب هجومي وبألفاظ لا تتفق وجلستنا ليهاجم القضاء والقضاة كافة بألفاظ صريحة جارحة، وتشمل الجميع بلا استثناء بحيث يشكل ما قاله جريمة في قانون العقوبات، وارتبكت للحظات، وعبثا حاولت إيقافه أو تنبيهه الي خروجه عن قواعد اللياقة خاصة وهو يعمم الاتهامات مع عدم مراعاة المركز الأدبي، أو المشيب الذي يكسو رءوسنا – ماعداه – وساد الصمت المتوتر، وكنا قد قاربنا الانتهاء من العشاء، واستأذنت منهم للحظات، وبعد خطوات سرتها دعوت الجراح الكبير ليرافقني، وبعيدا عن المائدة أبلغته أنه قد يكون من الأوفق له وللجميع أن يعود الآن الي فندقه، ووضعت سيارتي تحت أمره. وهكذا تم فض الاشتباك بعد حدوث جروح يتعذر مداواتها. وعدت الي السادة المستشارين، وقد جلسوا وكأن علي رءوسهم الطير، وقد ساد الوجوم والأسي، فاعتذرت لهما بما يرضيهما، وحاولت خلال بقية الجلسة أن أزيل عن نفوسهم ما حل بها من ألم ومرارة. ولم أنس أن أبعث لقريبي بخطاب راجيا منه أن يبعث اليّ من أصدقائه مستقبلا من هم أقل عصبية وأكثر ودا.

جـ – متاعب المباحثات

حضر الوفد المصري الي طوكيو برئاسة أحد كبار المسئولين عن الاقتصاد، وبدأت المباحثات، وتعددت الاجتماعات، وكانت نصيحتي للمسئول الكبير ألا يوافق علي أي بند مهما صغر في نفس الجلسة التي يعرض فيها الموضوع، لأن المفاوض الياباني لا يمكن أن يعطي قرارا في نفس الجلسة، ولابد له من التشاور مع زملائه وأخذ رأي المختصين. وشرحت أن كل تنازل أو موافقة يحصل عليها الجانب الياباني لا يدخلها في حسابه عند القرار النهائي، وخاصة إذا احتاج الأمر الي تنازلات من الطرفين للوصول الي حل معقول، وقلت للمسئول الكبير إنني أعلم أنه يملك سلطة البت، وكذلك نظيره الياباني، ولكنه سيلاحظ أن رئيس الوفد الياباني هو أقلهم كلاما، وأنه يترك المجال للمختصين ولا يصدر قرارا فوريا قط. وذكرت له علي سبيل الفكاهة ما نشر أخيراً من أن رئيس الوفد الأمريكي في المباحثات التجارية مع الوفد الياباني قد صرح بأنه بعد جلسات استمرت أياما عديدة، ونوقشت فيها كل التفصيلات، وعد الجانب الياباني بتقديم حلول إيجابية في جولة المباحثات التالية. وفي الموعد المحدد حضرت المجموعة اليابانية لتقدم مقترحاتها التي تشبه «لفافة» الهدية مغلفة بأجمل أنواع الورق، وتفتحها لتجد «لفافة» ثانية ورابعة وخامسة و.... حتي تفتح «اللفافة» الأخيرة لتجد فيها ورقة صغيرة وقد كتب عليها بخط واضح «أنا أحبك». ثم انتهزت الفرصة لأشرح عادة من عادات اليابانيين يسيء الأجانب فهمها، فعند المناقشة يستمع الياباني لما يقال بأدب وتركيز، وعند كل فقرة من كلام محدثه يهز رأسه قائلا «هَيْ» بنغمة حاسمة، يترجمها المفاوض الذي أمامه بما يعني «نعم» أو «موافقة» خصوصا أنها مصحوبة بهزة من الرأس من أعلي لأسفل، ولكن الحقيقة أن هذه الكلمة

«هَيْ» لاتعني أبدا نعم أو الموافقة، وإنما تعني فقط أنني استمع إليك جيدا، وأنني متابع لما تقول، وكم سببت هذه الكلمة المصحوبة بهزة الرأس مشاكل كثيرة للوفود الأجنبية القادمة لطوكيو، والتي تثور معتقدة أن المفاوض الياباني قد تراجع عما سبق له الموافقة عليه نتيجة لهذه العادة اليابانية التي أساء ترجمتها المفاوض الآخر.

استمرت جلسات الوفدين حتي مساء اليوم السابق، ولم تصل المباحثات الي أي اتفاق، واصر الجانب الياباني علي عرضه الذي لا يحقق الحد الأدني لما يمكن للمفاوض المصري قبوله، وتبادل رؤساء الوفود كلمات التحية الختامية علي أن يدرس كل وفد مع سلطات بلده المقترحات التي قدمت. أقيم حفل عشاء في المساء بمنزل السفيرتكريما للوفد المصري، حضره أعضاء الوفد الياباني وكبار المسئولين، وفي نهاية الحفل فاجأني رئيس الوفد المصري بأن أحد رؤساء المؤسسات اليابانية - المستفيدة من نجاح المباحثات - طلب منه ألا يسافر الوفد في الصباح وفقا للموعد المحدد من قبل، وأن يمد إقامته لمدة ثمان وأربعين ساعة علي أمل أن تؤدي إتصالاته الي الموافقة علي المقترحات المصرية الأخيرة، ثم توقيع العقد.

لما كان الوفد المصري يقيم في ضيافة الجانب الياباني فقد تساءلت عن الجهة التي ستتحمل مصروفات مد الاقامة، ولم أجد ردا، وناقشت مصدر المعلومات الجديدج ثم لم أجد إلا الصراحة وسيلة للخروج من هذا المأزق. أفهمت السيد رئيس الوفد أن اليابانيين يناورون جيدا حتي آخر لحظة، ولكن لو وصلوا الي الحد المقبول بالنسبة لهم فإنهم يعلنون ذلك في الدقيقة الأخيرة من المباحثات، أما إنهاء جلسات المباحثات، وتبادل كلمات التحية النهائية بالاضافة الي معلومات السفارة المؤكدة...... كل ذلك يقطع بتعذر تغيير القرار. أما البقاء في الفندق انتظارا لأمل كالسراب، فهذا مالا أرضاه للوفد ولا لأنفسنا، وألح رئيس الوفد مؤيدا فكرة البقاء يومين ومبينا أنه علي ثقة من نجاح الاتصالات الجانبية بين اليابانيين، وأحسست أن أمامي مشكلة تحتاج الي كل ما تعلمته من صبر وأدب وكياسة، وفجأة وجدت المخرج والحل، كان الوفد سيغادر الي هونج كونج حيث يبقي يومين ثم يسافر الي القاهرة مباشرة. طلبت من رئيس الوفد أن يطلب من المصدر الذي اتصل به طالبا البقاء في طوكيو أن يتصل بي عند نجاح اتصالاته، وسأخطرهم فورا للحضور من هونج كونج ثانية لطوكيو لتوقيع الاتفاق، وبذلك نحفظ ماء وجهنا وتكون عندنا الفرصة لو تحقق ما أراه مستحيلا. وسافر الوفد في موعده، واتصلت بهم في الموعد المحدد لأخطرهم أن المحاولة قد فشلت، وكان لابد لها أن تفشل لأن هذا الأسلوب لا يصلح مع العقلية اليابانية المنظمة والمبرمجة.

١٥ - الزلزال تأديب وتهذب وإصلاح :

أقامت إحدي .حكومات الدول الغربية جناحا في حديقة المنزل المخصص للسفير يستخدم بصفة رسمية لنزول كبار الضيوف والبعثات الرسمية - للإقامة فقط - وعرف عن السفير الموجود والسيدة

حرمه كرمهم وترحيبهم الودود بضيوفهم القادمين من الوطن. وما لبث عدد البعثات الرسمية التي تصل طوكيو أن تزايد الي درجة مرهقة، خاصة وقد بدأ بعض القادمين في انتقاد كمية الطعام التي تقدم لهم، بل والتعبير عن حسدهم وحقدهم لهذا السفير الذي عين في أرقي عاصمة في العالم ويتمتع بكل هذه الرفاهية.

روت حرم السفير هذه القصة لزميلاتها، ثم أردفت أنها قد توصلت الي حل مشاكلها مع الضيوف بطريقة مستحدثة. ألحت الزميلات لمعرفة هذا الحل السحري لتستخدمه كل منهن في مواجهة مايلاقونه. وحكت حرم السفير أنه فور وصول البعثة لجناح الضيافة يكون في استقبالهم ضابط أمن السفارة الذي يسلم كلا منهم – مقابل إيصال – حقيبة الطوارئ، هذه الحقيبة تحوي الأشياء الضرورية لاستخدامها عند وقوع زلزال، ويبدأ في شرح طرق الاستخدام «خوذة، أحبال، بطاريات، أدوية، ماء، وأكل محفوظ...»، ثم يشرح لهم أن الزلازل تتكرر كثيرا في اليابان، وعليهم أن يحفظوا واجباتهم عند حدوثها، ويلقنهم أن عليهم سرعة الاختفاء تحت المائدة و.... وأن نقطة التلاقي بعد الاصابة المباشرة لمنطقة إقامتهم هي حديقة.... حيث يتجمع الناجون لحصر الخسائر، ويلفت نظرهم الي أن المائدة والسرير والدولاب كلها مثبتة في الحوائط والأرضيات بخطاطيف حديدية تمنع وقوعها فوق رءوسهم عند حدوث الزلزال، ويستفيض في شرح مخاطر الزلازل، ووسائل الوقاية المحدودة ضد آثارها المدمرة، ويتركهم وقد أصابهم الفزع الأكبر وباتوا يتعجلون يوم العودة الي وطنهم تخوفا من حدوث ما لا يحمد عقباه.

يأتي اليوم التالي وتنتهز حرم السفير الفرصة لتقديم الفصل الثاني من المسرحية. تتطوع حرم السفير وتبلغهم أنها ستمر بوسط المدينة لقضاء بعض الاحتياجات، وترغبهم في الركوب معها في جولة حرة، وما أن يبتلعوا الطعم حتي تقودهم أولا الي «سوبر ماركت» بحجة شراء بعض ما يلزم المنزل، وتدعوهم للنزول «للفرجة» فقط، وتمكث داخل المحل وقتا كافيا ليسمح لحضرات الضيوف الكرام بمعرفة أثمان اللحوم والفراخ والخضر والفاكهة والمعلبات، وتبدأ عملية تحويل الثمن من الين الياباني – المرتفع القيمة – الي عملتهم الهزيلة، ويكتشفون الارتفاع الرهيب لأسعار كل المأكولات، ويتأكدون أن ما تناولوه في إفطارهم بالسفارة يعادل ثروة صغيرة، فيعودون وهم أكثر تقبلا لأي طعام يقدم لهم، ويشعرون بالامتنان والحمد لكل ما لاقوة من كرم أصبحوا يقدرونه حق قدره، وهم لايعلمون السر الذي أخفته عنهم حرم السفير وهو أن هذا «السوبر ماركت» يستورد من خاروج اليابان كل ما يخطر علي البال، وأن المقيمين في طوكيو لا يتعاملون معه إلا في الضرورات نظرا لارتفاع أسعاره.

ومنذ رواية هذه الحكاية، أصبح هذا المحل ملتقي لضيوف كل السفارات في طوكيو، تقودهم سعادة السفيرة التي يعلو وجهها الابتسامة وهي تقابل زميلة لها تقوم بنفس المهمة – التأديبية

الترفيهية – لضيوفها الكبار.

١٦– اللؤلؤ الياباني ومشاكله مع السفارة :

تفننت اليابان في انتاج اللؤلؤ وتقديمه علي هيئة حلي رائعة الجمال، ولم يستطع الزائرون من وفود وأصدقاء وزوجاتهم مقاومة إغراء جمال اللؤلؤ ومشغولاته، وأصبحت زيارة محال اللؤلؤ مطلبا رئيسياً لكل من يحضر الي طوكيو. من المعتاد أن يصطحب الزائرين وزوجاتهم عضو من السفارة أو زوجته لإرشادهم الي المحلات ذات السمعة الطيبة التي لا تقدم أنواعا من اللؤلؤ بها عيوب فنية، أو تغالي في الأسعار. وقد درست هذه المحلات طبيعة العرب والمصريين وحبهم «للفصال» فتعاملت معهم بأسلوب يجعلهم يخرجون من المحل وهم معتقدون أنهم قد حققوا صفقة رابحة. وكان أكثر ما يضايقني كسفير مسئول عن الصحة النفسية للأعضاء وعن هنائهم العائلي ما أشعر به عندما يعود الزميل من مرافقة أحد الزائرين ويروي لي عن المبالغ الباهظة التي دفعت في شراء منتجات اللؤلؤ – في عصر الانفتاح – ويقارن بين مرتبه في طوكيو مع الغلاء الفاحش وبين اللامبالاة التي تنفق بها الأموال، وأحسست أن زوجات الأعضاء يتبادلن مثل هذه الحكايات، ويندبن الحظ والمرتب اللذين لم يسمحا لهن بامتلاك قطعة من مشغولات اللؤلؤ.

استمر التحسر حتي اهتدت إحداهن – كانت طبيبة – الي الحل الموفق. كان تقدير الموقف يقرر أنه نظرا لاستحالة شراء «اللولي» لتعذر إيجاد المبلغ المطلوب دفعة واحدة، فقد يكون في فكرة «الجمعية» المعمول بها في مصر المخرج لتحقيق هذا الهدف العزيز. تكونت «الجمعية» وأطلقن علي هذا التجمع الاقتصادي اسم «جمعية اللولي». واتفقت سيدات السفارة فعلا على مبلغ الاشتراك الشهري، وعملن «قرعة» لتحديد الدور لمن يسلم لها الرصيد شهريا، وبدأت كل منهن في دراسة السوق والمعروضات لتضع خطة الشراء عندما يحل عليها الدور. وفي الشهر الأول نجحت الفكرة تماما، وتم تجميع المبلغ وتسليمه لصاحبة الدور، التي أسرعت فوراً، وأكرر فورا، لشراء الحلية. وفي أول فرصة اجتماعية كانت هذه الحلية محل إعجاب عضوات جمعية اللولي وأزواجهن. وفي الشهر التالي قامت الدكتورة أمينة الصندوق بجمع المبالغ من العضوات، ونظرا لتصادف وجودها بالسفارة، فقد رأت أن أسرع وسيلة لإرسالها الرصيد لصاحبة الدور هي أن تسلمه لزوجها ليوصله لحرمه المصون. وبعد أيام اجتمعت السيدات في إحدي الحفلات وكلهن شوق لمشاهدة ما اشترته الزميلة عضو الجمعية. ووجدن الأخت وقد إكتسي وجهها بعلامات العبوس والتوتر، وكعادة السيدات فقد تلاحقت الأسئلة حتي حصلن علي السيناريو الكامل الذي بدأ بوصول الزوج للمنزل، ومعه مظروف النقود، وسلمه بكل أمانة لزوجته، وما أن فرحت به «أم أحمد» وبدأت في دراسة أنسب الأوقات لنزولها الي محلات «اللولي» لشراء أملها المنشود، حتي بدأ الزوج في عرض المسرحية الاجتماعية بادئا الفصل الأول بإبلاغها أنهم سبق أن تلقوا خطابا من المدرسة التي تدرس بها ابنتهم الحبيبة يخطرهم بضرورة سداد المصروفات، وأن الموعد الذي حدد كنهاية لموعد السداد قد اقترب، والمرتب لم يسمح بتدبير المبلغ

المطلوب، وبدأ الفصل الثاني بمعزوفة تشرح آثار عدم السداد وما قد يتبعه من توقف الإبنة عن الدراسة، وتأثير ذلك علي نفسيتها، بل وعلي مستقبلها، وعلي كل مارسموه لها ولأنفسهم من أحلام وردية. وكان الفصل الثالث هو مسك الختام حيث شرح الزوج تفصيليا سعادة الصغيرة بالمدرسة، والأضرار النفسية التي تصيبها لو حجزوها بالمنزل، واستمر علي هذه الوتيرة حتي أحست الأم أنها ستكون مثالا للأنانية، وأن ضميرها لن يسمح لها بالاستمتاع بلبس هذه الحلية، وشعرت بوخز الضمير لمجرد تفكيرها في شخصها وأمامها هذه المشكلة التي لن يحلها إلا تنازلها عن هذا المبلغ ليدفع كمصروفات للابنة. وكأي أم مصرية تحب أسرتها أعلنت تنازلها عن حقها المشروع مفضلة الإبنة ومستقبلها، وهكذا أسدل الستار بأسلوب مشابه لما يحدث في المسرح، والكل سعيد وقد انتصرت المبادئ المثالية.

لكن هذا لم يمنع الزميلة من التنفيس عن مشاعرها وهي تتساءل «أليس سداد المصروفات مسئولية الزوج؟، وماذا كانْ سيحدث لو لم يوجد المبلغ الذي جمع بمعرفة جمعية «اللولي؟». وصارت هذه الأقصوصة مثار الضحك بين الرجال مع الإعجاب بالزوج «الشاطر» أما السيدات فقد حرصن بعد ذلك علي أن تتسلم من عليها الدور النقود وتنزل مباشرة للسوق لتشتري ما تريد قبل أن يبدأ الزوج في عرض قائمة المشاكل الاقتصادية العائلية والعالمية. وقد أسعدنا جميعا أنه بعد عدة أشهر استطاعت العضوة صاحبة القصة أن تشتري هديتها من اللؤلؤ وبذلك انتصرت رسالة «جمعية اللولي» ولو بعد حين.

كان اللؤلؤ موضوع مأزق لطيف لاينسي، فقد دعي ضيف كبير وحرمه لزيارة اليابان، وكان ضمن البرنامج الترفيهي خلال الزيارة مشاهدة مزارع اللؤلؤ الأصلية، والاطلاع علي كيفية تربية الأصداف، وزرع اللؤلؤ ثم تنميته وفرزه وإعداده كسلعة ليغمر أسواق العالم. وتوجهنا الي إحدي مزارع اللؤلؤ التي أنشأها «ميكيموتو» الذي يطلق عليه في اليابان ملك اللؤلؤ، وشرح لنا المسئول أن «ميكيموتو» قد ولد عام ١٨٥٨م واستمر في تجاربه لزراعة اللؤلؤ حتي عام ١٨٩٣م حين تمكن من انتاج أول حبة لؤلؤ من زراعته، واستمر في تطوير وسائل الانتاج وتحسينها حتي عام ١٩٠٥ حينما وضع قواعد وأسلوب هذه الصناعة المتميزة. وعلمنا أن اللؤلؤ الطبيعي ينتج من دخول ذرة غريبة قد تكون حبة رمل الي داخل المحارة، وتضايق الحيوان البحري الهلامي الذي بداخلها مما يضطره الي إفراز مادة – من الكالسيوم – يحيط بها هذه الذرة التي تضايقه ويستمر في إنتاج هذه المادة وتكوين مجموعة من الطبقات حولها، وفي النهاية تتشكل لؤلؤة جميلة كان الغواصون في الزمن السابق ينزلون الي أعماق المحيط لجمع المحارات وفتحها واستخلاص ما يجدونه فيها من لؤلؤ طبيعي. ومن المعلومات الغريبة التي سمعناها أن المحارات تجمع بين عناصر الذكورة والأنوثة عند بدايتها، وترقد في قاع المحيط، وتتغذي علي ما يعلق بالماء حولها، وبعد حوالي العام يتحول الحيوان البحري بعضه الي ذكر والبعض الآخر الي أنثي، ويفرز الذكر مادة ذكرية وتفرز الأنثي البويضات، وتلتقي المادتان، ويتم التلقيح وتنتج بويضات صغيرة ترقد في قاع المحيط وتتغذي علي الفطريات في الماء حتي تكبر. وشرح

لنا المسئول أن اللؤلؤ المزروع لا يختلف عن الطبيعي لأن الاساس هو دخول ذرة الي داخل المحارة ويلتف حولها طبقات من مادة الكالسيوم تحمي الجسم الداخلي للمحارة من الاحتكاك بهذا الجسم الغريب. ولاحظنا أنه في حالة اللؤلؤ المزروع تفتح المحارة برقة بأسلوب وأدوات أقرب ما تكون لما يستخدم في إجراء العمليات الجراحية، ويوضع في مكان معين من الجسم الهلامي داخل المحارة نواة مصنوعة من الطبقة الداخلية الصلبة لمحارات تم اختيارها بعناية، ثم تغلق المحارة ويعاد وضعها في مياه المحيط ليبدأ الحيوان البحري داخل المحارة في إحاطة هذا الجسم الغريب بطبقات الكالسيوم منتجا حبة من اللؤلؤ بعد فترة زمنية.

ويعتقد أن المحارة تحتاج الي عام كامل لتكمل ألف طبقة حول النواة، وتحتاج حبة اللؤلؤ الي فترة زمنية حوالي العامين للإكتمال. توضع المحارات في سلال من السلك بحيث تتخللها المياه، وتدلي لأسفل بحبل يعلق في عوارض من البوص أو البلاستك، ويراعي أن تتراوح درجة حرارة المياة من ٢٣ – ٢٥ درجة مئوية، وتموت المحارة اذا زادت درجة حرارة الماء، كما أنها توقف كل نشاطها لو أصبحت المياه باردة، ولذلك لابد من قياس درجة حرارة المياه يوميا، وإنزال «الأسبتة» الي الأعماق أو رفعها لأعلي وفقا لتغيرات درجة الحرارة، ويمكن لزارعي اللؤلؤ أن يضعوا صبغة بكميات بسيطة للغاية في المحارة لانتاج لؤلؤ ملون، كما أن حجم النواة يحدد حجم حبة اللؤلؤ مستقبلا، كذلك يمكن إنتاج حبة «توأم» بوضع نواتين متجاورتين في المحارة حيث تغطيهما الطبقات سويا مما ينتج عنه لؤلؤ «توأم». ويمكن وضع نواة علي شكل نصف دائرة لتنتج لنا المحارة لؤلؤة علي شكل نصف دائرة، وخلص الخبراء من ذلك الي تأكيد أن اللؤلؤ المزروع هو من انتاج المحارة فعلا وبنفس المواد التي يتكون منها اللؤلؤ الطبيعي.

أما عن اللؤلؤ الصناعي فهو الذي يتم بعيدا عن الماء، وبعيدا عن المحارات، وتكون كل خطواته من بدايتها لنهايتها من تصنيع الإنسان والآلة باستخدام بعض المواد وأهمها منتجات البلاستك. عرض علينا المختصون أسلوب فرز اللؤلؤ وفقا لأحجامه، ثم وفقا لألوانه، وتوضع كل مجموعة متشابهة في خيط معقود طوله ١٥ بوصة. وعرفنا أن الحبة الكاملة الاستدارة والتي تنعدم بها العيوب هي الأغلي والأقيم، وأن اللؤلؤ الملون يفضل ألا يعمل به ثقب للاستخدام حتي لا يضيع اللون تدريجيا، وأن اللؤلؤ الذي يربي في المياه العذبة يكون صغيرا وغير متساو وغير مستدير. وتقترب الزيارة من نهايتها وقد اكتشفنا أن هذه القلائد والأساور والحليات التي تتزين بها السيدات تمر بمراحل دقيقة وطويلة مع خبرة فنية حاذقة حتي تعكس كل هذا الجمال.

ينتهي العرض والشرح ونصل الي الخطوة الأخيرة في الزيارة، ويقدم وعاء زجاجي جميل ملئ بالماء وبه عدة محارات مقفلة، وعلي كل ضيفة أن تختار إحداها، والمفروض أن عمر هذه المحارة سنتان علي الأقل لضمان تكوين حبة اللؤلؤ. وتقوم العاملة المختصة بفتح المحارة التي اختارتها كل سيدة، وهنا تقع المفاجأة الكبري، فقد وجدت كل من السيدات حبة لؤلؤ في محارتها، إلا الضيفة الكريمة فكانت

محارتها فارغة بلا لؤلؤ، وهي حالة تشكل النسبة الضئيلة التي تفشل المحارة فيها في تكوين الطبقات التي تغطي النواة، وكان مأزقا حرجا لم يصلحه تقديم محارة أخري عثر بها علي حبة لؤلؤ.

١٧- دار الأوبرا ومشاكل بنائها :

كنا في عام ١٩٨١ وقد تأكد مركز اليابان كقوة اقتصادية كبري في العالم، وبدأت الاستراتيجية اليابانية تخطط لأن يكون لها وجود سياسي مؤثر يتناسب مع ما بلغته في عالم الاقتصاد. قدر المفكرون أن من أهم وسائل احتلال هذا المركز المتميز سياسيا دعوة الملوك والرؤساء لزيارة اليابان بحيث تبدو طوكيو علي مدار العام ملتقي ومركزا سياسيا للقوي العالمية وألا تخلو نشرة أخبار عالمية أو محطة تلفزيونية من أخبار عن اليابان وزوارها الكبار. وتوافد علي اليابان رؤساء أمريكا وانجلترا وفرنسا وأغلب الدول الأوربية والآسيوية. تبع ذلك – وفقا للأسلوب الياباني – عملية جس نبض هادئة مع السفارة المصرية في طوكيو، وكان الرد أننا نرحب بالدعوة، وستنقل هذه الرغبة للقاهرة ولو أننا نشعر أن الأحداث في الشرق الأوسط والتزامات الرئيس قد تؤجل هذه الزيارة لبعض الوقت. واستمرت المقابلات بمثابرة وإلحاح وقدم إلينا بالسفارة عرض غير رسمى – للإغراء – يتضمن أنه تقديرا من الحكومة اليابانية لهذه الزيارة فان هناك تفكيرا بأن تقدم اليابان – إذا تحققت الزيارة – منحة لاترد في حدود أربعين مليون دولار تقريباً تستخدم في أحد مشروعين وفقا لاختيار الطرف المصري.

المشروع الأول أن تبحر من اليابان سفينة شحن محملة بالقمح في حدود هذا المبلغ هدية للشعب المصري من الشعب الياباني، خاصة وقد كان هناك عجز في المخزون الاستراتيجي للقمح في مصر. ويشمل المشروع الثاني إنشاء محطة مركزية لمواقف الاتوبيس بميدان التحرير تحت أرض الميدان. وكان رد السفارة السريع هو رفض مشروع القمح، فقد كنا نعرف أنه سيستهلك فورا وتضيع المنحة أكلا، أما مشروع مبني محطة الاتوبيس فقد أبلغتهم أن عندنا بمصر شركات كبيرة للمقاولات يمكنها بناء مثل هذا المشروع، وأنني أطمع أن نعيد التفكير للوصول الي مشروع غير عادي يكون له صفة الدوام مع بقائه رمزا للتعاون البناء بين البلدين. أرسلت هذه التفاصيل للقاهرة طالبا مساعدتي في اقتراح مشروعات لعرضها علي الجانب الياباني.

كان سفير اليابان بالقاهرة في ذلك الحين ديبلوماسيا مثقفا وفنانا. ونظرا لأن دار الأوبرا المصرية القديمة قد احترقت، ولم تمكن الظروف الاقتصادية الحكومة المصرية من تخصيص مبلغ لإعادة بناء الأوبرا فقد عاشت القاهرة محرومة من هذا المركز الإشعاعي للفن والجمال. رأي السفير الياباني صاحب الموهبة الفنية ان قيام اليابان ببناء دار الأوبرا بالقاهرة يحقق ما طلبته سفارة مصر في طوكيو كمشروع يكون رمزا للتعاون. تعددت الاتصالات في القاهرة وطوكيو، وفوجئنا بعقبة كبيرة وهي أن اليابان كلها ليست بها دار اللأوبرا وفقا للمعايير الهندسية والفنية المتعارف عليها دوليا، وصحيح أن لدي اليابان مجموعة كبيرة من القاعات الموسيقية والمسارح الفخمة، ولكن لا يطلق عليها

اسم دار للأوبرا، وبذلك فإن الموافقة علي بناء دار للأوبرا في مصر قد يثير معارضة كبيرة. وتمكنت الديبلوماسية اليابانية والمصرية من تخطي هذه العقبة بتسمية المشروع «المركز الثقافي القومي». بدأت الاتصالات الجادة، وتوالت زيارة الوفود اليابانية والمصرية للعاصمتين لمعاينة موقع الأرض المقترح بأرض الجزيرة، والاطلاع علي النماذج اليابانية علي الطبيعة، وحضر الي طوكيو وفد برئاسة المرحوم الوزير محمد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة في ذلك الوقت ومعه مجموعة متميزة من الخبرات المصرية، وتم الاتفاق علي الخطوط العريضة للمشروع. وعكف المختصون علي وضع التفاصيل الهندسية والفنية، واتفق علي ألا يعلن عن المشروع إلا في نهاية زيارة الرئيس مبارك لليابان التي تحدد موعدها في ابريل عام ١٩٨٣. وقد سبق الزيارة إعداد جيد – مجهد – ضمانا لتحقيق أهدافها السياسية والثقافية والاقتصادية، وتبادلت السفارة مع القاهرة مكاتبات وبرقيات عديدة تم فيها الاتفاق علي كل برنامج وتفاصيل الزيارة، وأصبح المشروع مكتملا ينتظر وصول الوفد الرسمي لتنفيذه.

بدأت الزيارة الرسمية ببرنامجها المتفق عليه، وفي صباح اليوم الثاني من الزيارة ونحن نستعد للخروج لنبدأ أول اجتماع مع المسئولين فوجئت بالمرحوم الوزير كمال حسن علي وزير الخارجية، وهو يبلغني، بأن هناك تفكيرا لطلب إلغاء مشروع تخصيص المنحة التي ستقدمها اليابان لبناء المركز الثقافي القومي وتعلن في نهاية الزيارة ليعاد تخصيصها لانشاء مراكز ميكنة زراعية في كل محافظة من محافظات مصر، هدفها تشجيع استخدام المعدات الزراعية الحديثة، توفيرا لليد العاملة، وتحقيقا لإنتاج زراعي أفضل وأكثر، وأردف السيد وزير الخارجية أن المسئول الذي قدم هذا الاقتراح – ليس وزير الزراعة – قد عزز رأيه بأن المواطن المصري لن يسعده عودة الوفد المصري من اليابان وقد حصل علي منحة تصرف علي «المزيكة»، وان من الأوفق أن تصرف في موضوع يهم الفلاح المصري.

ذهلت للحظات وأنا استرجع الجهد الذي بذلناه مع رجال وزارة الثقافة المصريين والجانب الياباني، ولم اتصور أن هذا العناء يضيع في لحظات. شرحت للمرحوم وزير الخارجية أن قرار تخصيص المنحة لبناء المركز الثقافي القومي قد مر بمراحل دراسة استغرقت سنتين، مر فيهما علي كافة المستويات التنفيذية والفنية في كل الوزارات اليابانية المختصة، وبعد هذه الدراسة المكثفة عرض علي البرلمان الياباني الذي أقر المنحة والغرض المخصصة لأجله في ميزانية هذا العام. وركزت علي أن أسلوب اليابانيين في التفاوض والتعامل لا يحتمل مطلقا تغيير ما اتفق عليه، وقبول بدائل واتخاذ قرارات فورية وأكدت أن اليابانيين يعملون كجهاز كمبيوتر، إذا أردت تغيير البيانات فلابد من مسح كل المعلومات القديمة، ثم نرجع الي نقطة البداية لنخطو الخطوة الأولي. وأكدت أنه في حالة إصرارنا علي تغيير الهدف من المنحة، فإنه بناء علي خبرتي بالعقلية اليابانية وأسلوب عملها فستوقف المنحة، ولن نحصل علي الموافقة لتخصيصها لمشروع الميكنة الزراعية، وستضيع علينا تماما فرصة بناء دار الأوبرا.

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائي، فقد سنحت لي الفرصة لشرح وجهة نظري كسفير مقيم باليابان أعرف أسلوب تعامل اليابانيين، وأن ترددنا سيضيع علينا هذه الفرصة الذهبية، ولن نكسب

المشروع البديل، وصدرت التعليمات باستمرار ما تم الاتفاق عليه، وأنقذنا دار الأوبرا أو المركز الثقافي القومي من الضياع.

كان هذا هو الفصل الأول من المأزق الذي واجهني، وكان عليّ أن أبحث عن مخرج للفصل الثاني الذي فوجئت بوجوده. تبين أن السيد المسئول عدو «المزيكة» قد اجتمع بزميله في الحكومة اليابانية في اليوم السابق، وبكل بساطة قدم إقتراحه بتغيير الهدف من المنحة مع الإيحاء بأن هذا الرأي يلقي القبول لدي كبار المسئولين. يعتبر نظام جمع وترتيب وتنظيم وتخزين وتبادل المعلومات في اليابان من أرقي النظم الموجودة في العالم، ولهذا التقدم في نظم المعلومات الفضل الأعظم في تفوق اليابان، ويتم تبادل المعلومات لكل من يعنيه الأمر بسرعة فائقة، سواء علي المستوي الأفقي أو الرأسي. ووصل خبر اقتراح التعديل لوزير الخارجية الياباني في دقائق، وسارع الوزير باستدعاء المسئولين وأبلغهم بالمأزق، واتهم صراحة سفير اليابان في مصر بأنه أهمل في واجباته، ولم يتأكد تماما أن بناء المركز الثقافي هو الرغبة النهائية للسلطات المصرية. واعتقد الوزير أن هذا الإهمال سيكون سببا في تداعيات لم يكن لها مبرر نظرا لتعذر تغيير الهدف من المنحة، وما يتبع ذلك من تأثيرات سلبية علي الزيارة ونتائجها.

بدأ الوفد المصري الزيارة الأولي وكانت لمصنع ياباني للسيارات يقوم بتشغيله مجموعة ضخمة من أجهزة الانسان الآلي «الروبوت»، ويعتبر أهم مصنع في العالم، ويستخدم أحدث وسائل التقنية العلمية. خصص لكل مجموعة اتوبيس صغير للتنقل بين أرجاء المصنع الذي أقيم علي مساحة كبيرة للغاية. ركبنا الأتوبيس، وقد خصص للمرحوم الوزير كمال حسن علي، ونائب وزير الخارجية الياباني لشئون الشرق الأوسط وسفير اليابان بالقاهرة. جلس نائب الوزير بجانبي وكنت أحمل له الكثير من التقدير والمودة، فقد تعاون معي في العمل بكل إخلاص ووضوح، وشارك بجهده وفكره في تذليل العقبات التي واجهتنا ونحن نضع برنامج الزيارة ونناقش مشروع المنحة مع متابعة الحصول علي موافقة كل الجهات بسرعة. همس السفير نائب الوزير وأشار الي زميلنا سفير اليابان في مصر والذي يجلس بالقرب منا، وشرح لي كيف أن السفير قد صدم عندما بلغه ما قاله عنه وزير خارجيته، وأن عدولنا عن المشروع الذي سبق الموافقة عليه سيجعل من هذا السفير الضحية التي تدفع الثمن، وأننا لن نستفيد شيئاً من هذا التغيير. وكانت المرة الأولي التي أعلم فيها أن فكرة التعديل قد أثيرت مع طرف ياباني. طمأنته الي أنها كانت فكرة عابرة استبعدت فورا، وأنه لم يحدث أي تغيير فيما تم الاتفاق عليه، ونظرت الي زميلي الياباني وقد كست وجهه علامات الألم والإحباط والأسي، رغم التقاليد اليابانية التي تحظر أن يعبر الوجه عن المشاعر الداخلية للانسان. كنت أعلم علم اليقين أن غضب وزير الخارجية الياباني لو أصاب هذا السفير باعتباره لم يحسن التأكد من نوايا الطرف المصري واحتياجاته بدليل طلبنا التعديل في اخر لحظة، فإن سفارة مصر في اليابان هي التي ستدفع الثمن عند تعاملها مع أبناء وزارة الخارجية اليابانية، وأيقنت أن ما بنيته من جسور للثقة والمودة خلال السنوات السابقة

سينقلب الي تجاهل وعدم تعاون نتيجة لما حدث لزميلهم بناء علي ترددنا. شرحت للوزير المرحوم كمال حسن علي هذه المشكلة، وما حدث للسفير الياباني وما ينتظره وما أتوقعه بالنسبة لنشاط سفارة مصر واتصالاتها، وكان كالعهد به دائماً — رحمه الله — لماحا، تتسم مواقفه كلها بالرجولة والدعم فوافق علي اقتراحي، بأنه بمجرد انتهاء الجولة والعودة الي المقر، فإنه سيقابل نائب الوزير ومعه السفير. نقلت الي الزميلين اليابانيين طلب وزير الخارجية المصري بلقائهما. وتم اللقاء وفيه أكد الوزير المصري لهما بصفة رسمية أن السفير الياباني قد قام بالجهد المشكور الذي لا ننكره، وأن اقتراح التغيير كانن فكرة عابرة غير جدية، وأنه يأسف للتداعيات التي حدثت، ويرجو نقل تقديره للسفير ومجهوداته الي السيد وزير الخارجية الياباني. وخرج الاثنان من المقابلة وقد علت البسمة وجهيهما وعاد اليهما الهدوء، ومرت الأزمة بسلام، وازدادت علاقة السفارة بكبار المسئولين بوزارة الخارجية اليابانية توثقا، باعتباري الزميل المنقذ، وفتحت لنا كل الأبواب.

تمت الزيارة وصدر البيان الختامي، وبه الالتزام ببناء مركز الثقافة القومي — دار الأوبرا — كرمز للتعاون الثقافي بين البلدين، وهكذا كسبنا صرحا للفنون كاد يضيع منا نتيجة لما يحدث في كواليس السياسة.

١٨– مآزق الإتيكيت في اليابان :

أجمل ما في اليابان أنك تواجه حضارة جديدة عليك تماما، فالحضارة اليابانية تختلف عن الحضارة الأوربية التي اتصلنا بها وعرفنا بعض قواعدها. وتختلف كلية عن الحضارة الأمريكية البسيطة التلقائية، كما أنها تبتعد كثيرا عن مكونات الحضارات في أفريقيا أو مصر أو الدول العربية. يشعر الانسان في اليابان أنه رغم قراءاته العيدية فإنه يواجه كل يوم بموقف لا يفهمه وأسلوب في «الإتيكيت» غريب عليه، وكثيرا مايتسبب الجهل بقواعد «الإتيكيت» الياباني في مآزق لا تنتهي يعاني منها الأجنبي، وسأعرض في هذه العجالة لبعض القواعد التي أشعر أنها تختلف تماما عما تعلمناه، وهي تعطينا في الوقت نفسه فكرة عن سلوكيات هذا الشعب الأسيوي النشيط.

١– أسلوب التحية :

التحية في اليابان بالانحناء وليس بالسلام باليد أو الأحضان أو القبلات. وتصلح التحية بالانحناء للتعبير عن أي من مشاعر: الاحترام، الشكر، الاعتذار، التوديع، أو الرجاء. وتحية اليابانيين بالانحناء لها ثلاثة أشكال.

١ – تحية «السايكيري» The Saikeirei

ومعناها «أعلي درجات الاحترام»، وتتم بالانحناء البطيء لأسفل لأبعد مسافة ممكنة، وبطريقة تقليدية تعبر عن الطاعة والخضوع، وتقترب من التعبير عن التقديس. هذه التحية كانت مخصصة

لتحية الامبراطور فقط، ولكن تم إلغاؤها مع نهاية الحرب العالمية الثانية بعد اعتبار الامبراطور شخصا عاديا وليس له قداسة سليل الآلهة. ويحيي اليابانيون الامبراطور الآن بالأسلوب المتبع مع الآخرين مع التوقير الزائد.

٢ – التحية العادية The Ordinary Salutation

وهذه التحية لها وضعان :

أ – الإنحناء من الوضع جالسا:

وفيه يضع الانسان يديه علي الأرض، والكف لأسفل وبينهما مسافة من أربع الي ست بوصات، وينحني بين الكفين بحيث تصل جبهته الي مسافة حوالي أربع بوصات من الأرض، ويراعي أن يكون الانحناء بهدوء وبطء.

ب – الإنحناء من الوضع واقفاً :

ويتم الوقوف والقامة مرتفعة، مع النظر للأمام وانحناء الجسم بزاوية ٣٠ درجة مع خفض الأيدي والكفين لأسفل حتي الركبتين، وبعد الثبات لمدة قصيرة ترفع الرأس قليلا، ويراعي أن الانحناء لا يكون من نهاية فقرات العمود الفقري، كما لا تجوز التحية باحناء الرأس فقط.

٣– الإنحناء الخفيف :

الإنحناء للتحية هو جزء من التقاليد اليابانية المرعية، وقديما كان يتكرر بين الشخصين مرات عديدة خلال الحديث الواحد، ولكن نظرا لما تمتاز به الحياة الآن من سرعة وروح عملية، فيكتفي الآن بالانحناء في التحية الأولي، وبعد ذلك تستخدم الانحناءة الخفيفة سواء في الجلوس، أو في الوضع واقفاً، مع مراعاة أنه من الواجب في الحالتين أن ينحني الجسم بزاوية قدرها ١٥ درجة، أما الأيدي فيمكن تركها ممتدة على الجانبين، أو ثابتة بجوار الركبتين، ومن المشاهد الغريبة أن تراقب الأم وقد حملت طفلها وهي تقوم بتحية طرف آخر أعلي مقاما أو سنا، وتنحني ومعها الطفل، وتؤدي حركة الانحناء بمنتهي الدقة والكفاءة، ثم تمسك برأس الطفل وتحني رأسه مع جسمه تحية للطرف الآخر وبذلك ينشأ الطفل منذ الصغر وهو يحترم ويمارس هذا التقليد. يمكن للإنسان أن يحدد الوضع الاجتماعي، أو الوظيفي، أو فروق السن لاثنين يتبادلان التحية من أسلوب الانحناء بملاحظة أيهما ينحني أكثر، وأيهما يؤدي التحية الأخيرة. ومن المناظر غير المعتادة لنا منظر عاملات المحلات الكبيرة عندما تفتح أبوابها للزبائن في الصباح، فإن البائعين والبائعات يقفون في صفين طويلين أمام الأقسام المخصصة لهم في الممشي الذي يمر به الزبائن، وينحني كل واحد أمام كل زبون يمر به، ويستمر هذا الاحترام والتبجيل عدة دقائق، ولعل هذا الاستقبال «المحترم» هو الذي كان يدفع بعض الزائرات

المصريات لليابان للحرص علي دخول هذه المحلات لحظة فتح أبوابها، ليستمتعن بهذا التبجيل والانحناء لهن وهو ما يندر تكراره في أي دولة أخري.

ب - زيارة منازل اليابانيين :

اليابان جزيرة محدودة المساحة، ونسبة كبيرة من أراضيها تتشكل من جبال بركانية غير قابلة للسكني، والأراضي التي تصلح لبناء المساكن محدودة، ولذلك تتصاعد أسعارها بمعدلات فلكية باستمرار. يقام المسكن الياباني علي مساحة صغيرة، ويتغلب أهل الدار علي صغر المساحة بأسلوب الغرفة المتعددة المنافع بحيث تفرش الغرفة «بالتاتامي» وهو الحصير الياباني، ويوضع في منتصفها مائدة غير مرتفعة وبعض «الشلت» فتكون غرفة للمعيشة والمأكل، وفي المساء تنقل المائدة والشلت بجوار الجدار - الورقي - وتخرج المراتب الرقيقة للغاية، و«الألحفة» الخفيفة من الدولاب الموجود بالغرفة وتفرش لتصبح غرفة للنوم، ولا يوجد بالمنزل الياباني أشياء لا لزوم لها، أو مهمات قد خزنت لمجرد احتمال الحاجة لها مستقبلا. يصبح بذلك المسكن الياباني محتويا علي كل ما هو ضروري فقط مع استخدام كل الأجهزة المساعدة الحديثة. يترتب علي صغر حجم المسكن أن الضيف لا يدعي عادة للمنزل، بل تتم المقابلة في أحد المطاعم اليابانية. وتحكم الزيارة في المنزل عدة قواعد أهمها الاستئذان قبل الدخول للمنزل بصوت مرتفع، وحينما يصل الإذن بالدخول يقوم الزائر بخلع حذائه ويضع مقدمته في اتجاه المنزل، وسيقوم المضيف أو المضيفة بتعديل الوضع بتغيير اتجاه مقدمة الحذاء ليكون في اتجاه الخارج وجاهزا لاستخدام الزائر عند خروجه. وإذا كانت الزيارة تتم بمعرفة سيدة فعليها أنه تخلع حذاءها ثم تضع مقدمته في اتجاه الخارج لتعفي مضيفتها من مشقة القيام بهذه العملية، وإذا قدم للزائر أو الزائرة «شبشب» فعليه ارتداؤه والسير به مع مراعاة أنه محظور السير به علي حصير التاتامي.

عند تناول الشاي بمسك الكوب باليد اليمني، وتوضع اليد اليسري تحته، وإذا كان هناك شخص بجوارك فعليك - من باب الأدب - عند تناولك قطعة الحلوي المقدمة لك مع الشاي أن تنحني انحناءة خفيفة وتستأذنه في أن تأكلها قائلاً "Osaki Ni" أي «هل تسمح لي؟».

جـ - تبادل الهدايا :

تقديم الهدية عند الزيارة يعتبر عادة عند اليابانيين، ولكنها بدأت في الانقراض الآن. يراعي في الهدية التي تقدم أن «تلف» في الورق المخصص للهدايا مع تجنب وجود ثنيات في الورق، ويتعين أن تكون اللفة الأخيرة الي أعلي وتنتهي عند الحافة اليمني للهدية، أما نهاية «ورقة اللف» فتكون عند النهاية اليسري للفة، أما الهدية التي تقدم في مناسبات غير سعيدة فينعكس الوضع بالنسبة «لورق اللف» مع مراعاة أن هذا الموضوع حساس، ومن الواجب مراعاته بدقة. ويجب مراعاة عدم المغالاة في قيمة الهدية لعدم إحراج متلقيها الذي يقع عليه التزام بردها وبنفس قيمتها تقريبا في أقرب مناسبة.

د – تناول الطعام :

قبل الأكل نستأذن من الجالس بجوارنا قائلين "Itadakimasu" أي أستأذنك في أن أبدأ الأكل، ثم نتبع هذه الجملة بانحناءة صغيرة، ونرفع غطاء طبق الأرز الفارغ الموجود علي اليسار ونضعه بجوار الطبق مواجها للسقف، ثم نرفع غطاء طبق الشوربة الموجود علي اليمين ونضعه أمام طبقه. عند بداية تقديم الأرز تضع الطبق الفارغ علي الصينية الصغيرة المقدمة لك لتضع لك المضيفة أو المضيف فيه كمية من الأرز، وبعد وضع الأرز تمسك بالطبق وتضعه علي المائدة أمامك. يعتبر مخافة للأصول الأكل من طبق الأرز قبل وضعه على المائدة أو لا. يوضع الطبق علي المائدة وتأخذ العصاتين بيدك اليمني، وترفع طبق الأرز بيدك اليسري وتبدأ في الأكل بالعصاتين، ويراعي تثبيت العصا السفلي مع تحريك العلوية عند الإمساك بكمية من الأرز، إذا أعجبك هذا الأرز المسلوق مع قليل من الخل، وأردت الحصول علي كمية أخري، فما عليك إلا أن تترك قليلا من الأرز في طبقك، فإن هذا يعني أنك لم تنته بعد من أكلك وتريد المزيد، وسيقوم من يتولي توزيع الأرز بوضع كمية أخري في طبقك، وعند الانتهاء من أكل الأرز، وعدم الرغبة في المزيد فعليك بأكل كل الموجود في طبقك بحيث لا تترك ولا حبة واحدة، وهذا يعني أنك كتفيت. عند الانتهاء من الأكل، فعليك إعادة غطاء كل من طبق الشوربة وطبق الأرز الي الأطباق. ويراعي عند انتهاء الطعام عدم وضع العصاتين المستخدمتين في الأكل بطريقة متقاطعة بل توضعان متوازيتين أمام الأطباق. ونصيحة أخيرة للزائرين مع إقامة قصيرة في اليابان، هي أن يطلبوا من المأكولات الأنواع البسيطة والقريبة الي ما تعودوه، وألا يحاولوا المغامرة بأكل شيئ غريب عليهم، وخاصة في الحفلات الرسمية، وإلا فقد «أعذر من أنذر».



الانحناءة اليابانية



عزاء رئيس الوزراء اليابانى



تقديم الشاى اليابانى

مؤلف هذا الكتاب هو السفير عبد الفتاح محمد شبانة الذي عمل بالسلك الدبلوماسي مايقرب من ٢٥ عاما قضاها متنقلا بين سان فرانسسكو وأسبانيا وساحل العاج وأخيرا سفيرا في اليابان وألمانيا.. وقد حصل خلال عمله علي وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ووسام الجمهورية من الدرجة الثانية - وسام چورچ الأول من اليونان - وسام العلوى من المغرب - بانر من المجر - ايزابيلا الكاثوليكية من أسبانيا - والوسام القومي من كوت دي إيڤوار - الشمس المشرقة من اليابان ووسام الاستحقاق من ألمانيا.

ومن ثم نجد أن حياة الكاتب مليئة بالخبرات والتجارب الثرية في مختلف المجالات.. إلا أنه انفرد في هذا الكتاب باختيار الحكايات الطريفة والمآزق الحرجة التي تقابل الدبلوماسي بعيدا عن الأحداث السياسية. كما أنه عني بتسجيل كثير من المعلومات القيمة عن حضارة كل بلد عاش فيها.. كل ذلك بأسلوب شيق أنيق.

«الناشر»

